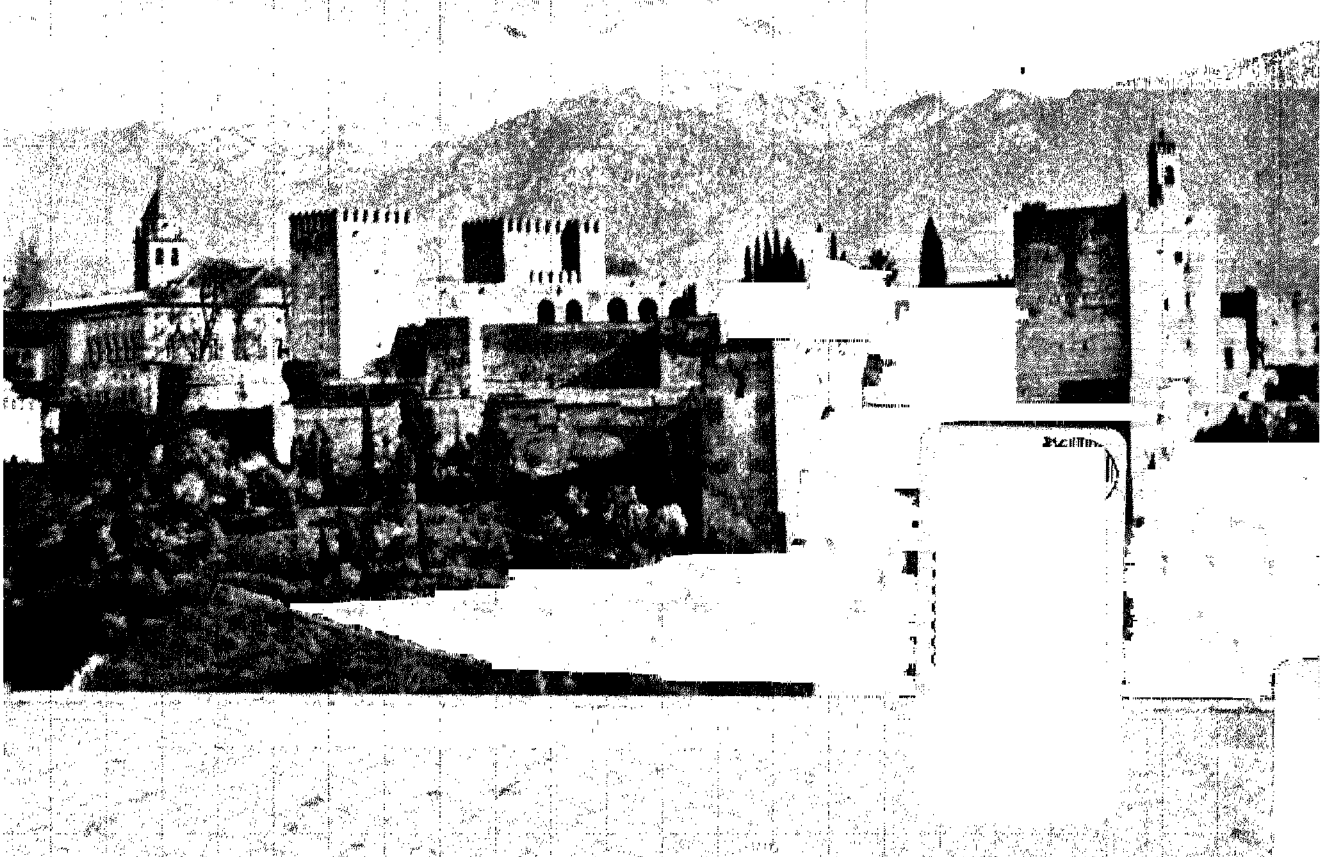
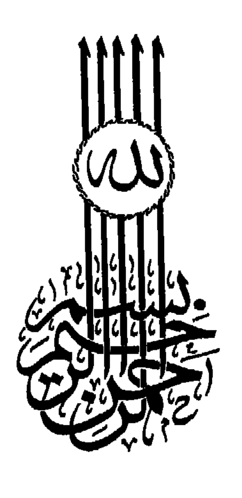
محمد حسن قجة

محطات أندلسية

دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي




بسم الله الرحمن الرحيم

مَحطّات أندلسيّة

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



الدار السعودية
للنشر والتوزيع

جدة
الإدارة : البغدادية - عمارة الجوهرة
تليفون : ٦٤٣٢٨٢١ / ٦٤٢٤٠٤٣ / ٦٤٢٤٢٥٥
تلكس : ٤٠٤٣٥١ نشرا
ص.ب : ٢٠٤٣ / ٢١٤٥١ ، برقيا : نشردار
المستودعات : طريق مكة المكرمة ، شرق المطار القديم
المكتبات : ١ - شارع الملك عبد العزيز ، تليفون : ٦٤٧٨٧٢٣
٢ - شارع فلسطين ، مركز الزومان ، تليفون : ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام : الشارع العام ، ص.ب : ٨٩٩
تليفون : ٨٣٢٣٥١٥ / ٨٣٣٥٥٢٠

محمد حسن قجة



دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي



مُقَدّمَة

تحتل كلمة «الأندلس» مساحة بارزة من الذاكرة العربية، تتمثل في صور شتى: مساحة فيها الأسى والمرارة، وفيها الفخر بأمجاد تولت، وفيها الهاجس التاريخي الذي ما فتىء يتكرر في حياتنا العربية منذ سقوط الأندلس قبل خمسة قرون.

والأمر الذي يزيد هذا الهاجس إلحاحاً، ويعمّق من خلاله الجرح الأندلسي، أننا شهدنا خلال القرون الخمسة الماضية، وما زلنا نشهد، تساقط أعضاء جديدة من الجسم الكبير، بعضها أعيد إلى جذوره، وبعضها ينتظر.

ولا شك أن المكتبة الأندلسية غنية بالدراسات التي تناولت تاريخ الوجود العربي في أسبانيا، ذلك التاريخ الذي امتد عبر ثمانية قرون تتفاوت اتساعاً وتقلصاً في حركة مدّ وجزر انتهت بجفاف مطبق لذلك الوجود سياسياً وبشرياً.

وعلى الرغم من المحن المتلاحقة التي شهدها التراث العربي، من مكتبات وآثار مختلفة، فإن هذا التراث لا يزال شاهداً حياً على روعة الحضارة الإسلامية التي غرسها العرب في أرض الأندلس، ورووها دماً وعلوماً وعطاءً بشرياً بلا حدود.

وقد بقيت لنا أعداد من أمهات الكتب في التاريخ والأدب كتبت في أزمان متباعدة، ومن أعلام الكتاب ـ على سبيل المثال ـ ابن بسام وابن الخطيب وابن خلدون والمقري وابن حيان، وسواهم.

كما شهدت الساحة الأندلسية اهتماماً واسعاً من الدراسات الاستشراقية، على اختلاف مذاهبها ومشاربها، وقد شرعت مدرسة الاستشراق الاسباني المعاصر تتجه إلى قدر كبير من الموضوعية والنظرة المنصفة للتاريخ العربي في الأندلس، مما أفرز دراسات جليلة القدر على يد أساتذة كبار من أمثال: ريبييرا، وبالنثيا، وغومث، وسواهم ممن لهم يد طولى في ميدان الدراسات الأندلسية.

هذا إلى جانب اهتمام الجامعات والهيئات الثقافية العربية بالدراسات الأندلسية، وغزارة تلك الدراسات وتوزعها على شتى مناحي الفكر والتاريخ والأدب والفن.

* * *

إن الاهتمام بالدراسات الأندلسية ليس نابعاً من دوافع تاريخية فحسب، فالمكتبة الأندلسية غنية بشتى ألوان المعرفة، وقرطبة في عظمتها نافست بغداد في مجدها، بل إن الثقافة الأندلسية قدمت للبشرية أعلاماً أفذاذاً لهم فضل كبير على الفكر البشري عامة، كابن خلدون وابن رشد وابن حزم، وسواهم. والمكتبة الأندلسية تزهر بالمؤلفات في الأدب والفلسفة والطب والموسيقى والفلك والتاريخ والجغرافية والتراجم، إلى جانب فيض من العلوم الدينية المتعددة الاهتمامات.

ومن هنا، فإن خزائن المخطوطات المبثوثة في غير مكان في أسبانيا والمغرب بخاصة، تضم كنوزاً من المعرفة الإنسانية تغني الحضارة وتضيء جوانب فترة من التاريخ عمّرت ثمانية قرون.

لقد كان الأندلس منطقة الاحتكاك الأولى بين العرب وأوربا، وكانت الحضارة العربية الإسلامية جسراً عبرت عليه البشرية إلى عصور النهضة الحديثة.

وإذا كانت أوربا العنصرية المتعصبة ترفض أي دور حضاري للمسلمين في مسيرة التاريخ، فما ذلك إلا مكابرة جاهلة، وإغفال متعمد لصفحات مشرقة لا يمكن أن تظل محجوبة.

* * *

إن عنوان «محطات أندلسية» الذي يحمله هذا الكتاب، يلقي ضوءاً على توزيع الدراسات التي فيه بين التاريخ والأدب والفن والعمارة، وهي دراسات مختصرة سريعة، إنما كتبت أساساً في أوقات متباعدة لتأخذ مكانها في بعض المجلات والصحف. ومن هنا كانت لا تسير في خط واحد منتظم، والرابط العام بينها هو الإطار الأندلسي على سعته وشموله. ويضم الكتاب اثنتين وعشرين مقالة يتداخل فيها التاريخ بالشعر والعمران والموسيقى، لتقدم في خاتمة المطاف لوحات عابرة من السفر الأندلسي الكبير الخالد.

وانطلاقاً من ذلك، فالكتاب لا يلتزم بسرد زمني معين، ولا بمنهج محدد رتيب، بل إنه جولات تلتقط من هنا ومن هناك، لعلها تتمكن من تشكيل باقة متواضعة في حديقة الأندلس العظمى.

وسوف يلاحظ القارىء الكريم أن الكتاب لم يلتزم بفصول متتابعة ولا أبواب متكاملة، وإذا كانت المحطتان الأوليان بمثابة تمهيد تاريخي للوجود العربي في الأندلس، فإن هناك محطتين أخريين تترجمان لمؤرخين هما: ابن حزم والمقّري.

بينما تهتم محطات ستّ بالعمارة الأندلسية، ثلاث منها للمساجد، وثلاث للقصور. وتناولت محطة شخصية زرياب، الموسيقي الذي أحدث تغييراً واسعاً في معالم الحياة الأندلسية.

أما المحطات الإحدى عشرة الباقية فهي دراسات أو تراجم للشعر الأندلسي وأعلامه، وهذه الدراسات لا يمكن فصلها عن مجريات الأحداث

التاريخية، بل إن بعض الشعراء ارتبط اسمهم بحدث تاريخي معين استحق الدراسة والوقفة المتأنية، كالشاعر الفقيه الالبيري، والشاعر الطليق، أو ارتبط اسمهم بلون أدبي معين، كولّادة، وابن الزقّاق.

وأرجو أن تتاح لي فرصة الوقوف في محطات أندلسية أخرى، وما أكثر تلك المحطات، فيكون لكتابي هذا جزء ثان وثالث. . .

* * *

سوف يبقى الأندلس مورداً لا ينضب لدراسات لا تنتهي، وكل جرح جديد سوف يحفر في الذاكرة جدار الجرح القديم فيزيد النفوس ألماً، ويزيدها في الوقت نفسه تحفزاً وتوثباً وتطلعاً إلى حاضر متماسك متصل ببهاء المجد الغابر.

بين أعمدة هرقل وجدار بواتييه

الرحلة عبر الأندلس الإسلامي عاشت ثمانية قرون . . وعبر المحطات التي سوف نتوقف عندها، يختلط شذى الأدب بصحوة العلم وآفاق الفلسفة. ولا بد قبل الطواف على تلك المحطات المتناثرة هنا وهناك، من إلمامة عابرة تقف بنا على بوابة التاريخ لتحل لنا بعض رموز الصراعات الممتدة في عمق الزمن حتى يومنا هذا.

لعبة شد الحبل عبر المضيق بدأت قبل ثلاثة آلاف سنة . المضيق الذي كان همزة وصل بين الحضارات وخط فصل بينها . . وهذه اللعبة تمثل أوجه الصراع الحضاري والسياسي بين شمال المتوسط وجنوبه . . صراع كان هدفه المباشر بسط السيادة على المتوسط وجعله بحيرة فينيقية أو يونانية أو رومانية أو عربية أو إسلامية أو عثمانية أو أوربية حديثة .

منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد تدفقت الهجرات الفينيقية نحو الشمال الأفريقي منطلقة من موانىء شرقي المتوسط وبخاصة «صور» المدينة الهامة في تلك الفترة[1] . وكانت دوافع الهجرة اقتصادية بالمقام الأول بحثاً عن مراكز تجارية في الحوض الغربي من المتوسط فالفينيقيون أساساً روّاد بحر ، وكانت السفن وسائل اتصالهم مع الحضارات المجاورة في مصر وكريت وقبرص . وكان نشاطهم الصناعي يتطلب البحث عن مصادر المواد الخام ، وعن أسواق لتصريف ما يصنعون من أقمشة وزجاج وعاج .

---

(١) تاريخ المغرب الكبير، رشيد خوري ج ١ ص ١٦٢ .

وقد ساهمت الدوافع البشرية والسياسية في دفع الهجرات الفينيقية نحو البحر ، لأن الموجات البشرية المتمثلة في الحوريين والسومريين والآراميين والاكاديين والبابليين زاحمت كلها المدن الفينيقية في الشاطىء الشرقي للمتوسط فانصرف السكان إلى البحث عن آفاق جديدة وراء البحار .

ومن طرائف قصص التاريخ ما ترويه المصادر اليونانية القديمة عن الهجرة الفينيقية إلى غربي المتوسط ، وهي تروي أن الأميرة «أليسا Elissa» أخت بجماليون Pygmalion ملك صور ، تزوجت من خالها أشرباس Achrebas فأغضب ذلك أخاها الملك وقتل خاله أشرباس ، فحزنت أليسا وهاجرت مع بعض مؤيديها إلى قبرص ، ومن هناك انطلقت إلى الساحل الأفريقي ، وشرعت ببناء مدينة قرطاج . وكان ذلك في السنة السابعة من حكم بجماليون وتصادف ٨١٤ ق .م . [١] ورغم ما في القصة من مبالغات وخيالات فإن لها جذوراً تاريخية معروفة .

وفي حدود القرن السابع قبل الميلاد بدأت تتبلور دولة قرطاج مستقلة عن أمها صور على الساحل الشرقي . وبدأت ملامح الصراع الحضاري والسياسي والتجاري تشتد وتقوى بين الدولة القرطاجية الفتية وبين النفوذ اليوناني . وتجلى هذا الصراع في محاولة كل فريق بسط نفوذه على جزيرة صقلية التي تمثل واسطة العقد في المتوسط . على أساس أن صقلية مفتاح السيادة على الملاحة البحرية .

كانت قرطاجة من أعظم المدن في عصرها نشاطاً وحركة وحضارة وتجارة . وكانت محاطة بالماء من جهاتها الثلاث فهي أشبه بسفينة راسية . وكانت حولها أسوار هائلة لحمايتها[٢] .

وقد مر الصراع على صقلية بمراحل وأدوار من المد والجزر وتبادل السيادة

---

(١) Warmington. B.H. Carthage , London 1960 p. 22

(٢) مدينة المغرب العربي ، أحمد صقر ص ٩٧.

انتهى بانتصار كاسح للقرطاجيين أتاح لهم بسط نفوذهم على المتوسط الغربي والأوسط . ورغم موجة الاسكندر المقدوني التي ابتلعت أجزاء هامة من العالم فإن قرطاج بقيت بمنجاة من تلك الموجة لأن توجه الاسكندر كان نحو الشرق باتجاه الامبراطورية الفارسية[1] .

ثم تأتي المراحل الهامة من الصراع المرير بين الدولة القرطاجية والدولة الرومانية خلال القرنين الثالث والثاني ق .م . وكان محور الحروب كالسابق محاولة بسط النفوذ على المتوسط. وكانت الحروب البونية الاولى ٢٦٤ ـ ٢٤١ ق .م .[2] وقد انتهت تلك الحروب بسيادة الرومان على صقلية رغم الخسائر الفادحة التي لحقت بهم .

وقد عوض القرطاجيون خسارتهم صقلية باتجاههم نحو أوربا عبر المضيق الذي كان يعرف باليونانية باسم «كات أكسوخين»[3] .

كانت علاقات قرطاج الاقتصادية قديمة مع شبه جزيرة إيبريا الواقعة خلف بحر الزقاق (كما أطلق عليه العرب) . وكان القرطاجيون يستفيدون من المواد الخام والجند المرتزقة والموانىء في تلك البلاد . ولكن منذ عهد هملقار برقة والد هانيبال اتجهت حكومة قرطاج إلى إحكام سيطرتها السياسية والعسكرية على إيبريا مما اضطر الرومان إلى الاعتراف بتلك السيطرة وعقد معاهدة بذلك مع قرطاج عام ٢٢٦ ق .م . .

وجاء إلى السلطة القائد العظيم هانيبال وقد قطع على نفسه عهداً بالانتقام من الرومان وقهرهم في عقر دارهم ، وابتدأت معه الحرب البونية الثانية ٢١٨ ـ ٢٠١ ق .م .

---

(١) Warmington B.H , Ibid p. 101

(٢) تاريخ المغرب الكبير ، الناضوري ج ١ ص ٢٢٤ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، الاندلس ، كولان ص ٢٠ .

خرج هانيبال بجيوشه واجتاز جبال الألب رغم مصاعبها مكتسحاً كل المسافات في طريقه إلى روما ، ملحقاً الهزيمة بنخبة من الجيوش الرومانية جاءت تباعاً لوقف زحفه السريع . وبعد معركة «كناي» الحاسمة التي سحق فيها هانيبال جيوش روما بقيادة فارو وباولوس ، كان بامكانه الاتجاه إلى روما العاصمة ودخولها . . إلا أنه سلك طريقاً آخر إلى جنوب شبه الجزيرة الايطالية ، وكان مخططه إحداث الفرقة بين شعوب الامبراطورية الرومانية ، ولكن خطته هذه أتاحت لروما فرصة التقاط الانفاس وتعبئة القوى من جديد . وكانت خطوط تموين هانيبال قد ابتعدت آلاف الأميال عن عاصمته وبدأ التعب يتسلل إلى عناصر جيشه لأنه لم يستثمر الحرب الخاطفة التي سحق خلالها الرومان . فبدأت مرحلة العد العكسي بالنسبة لوجوده في ايطاليا ، واضطر للانسحاب ، ولاحقه الرومان عبر أسبانيا إلى الشواطىء الافريقية . وانتهى الأمر باستسلام هانيبال بعد معركة زاما Zama سنة ٢٠٢ ق .م . وخسرت قرطاج أكثر ممتلكاتها .

ورغم استسلام قرطاج إلا أنها استمرت تعد العدة لحرب حاسمة حتى كانت الحرب البونية الثالثة ١٤٩ ـ ١٤٦ ق .م .[١] . وأظهر خلالها القرطاجيون ضروباً فائقة من البطولة والتضحية دفاعاً عن وجودهم السياسي والبشري ونجح الرومان في دخول قرطاج وكانت إحدى المعارك الخالدة في تاريخ البشرية حيث قاتل القرطاجيون من بيت إلى بيت ومن مركب إلى مركب ، وقد دمر الرومان المدينة العظيمة بعد نهبها وسلبها وأحرقوها بعد أن بقيت لمدة سبعة قرون المدينة الاولى على المتوسط وصاحبة النفوذ فيه .

وقد أكون أسهبت في الحديث عن الصراع القرطاجي الروماني ، ولكني أريد أن أصل إلى نتيجة هامة هي أن الوجود الروماني في الشمال الإفريقي وفي شبه جزيرة إيبريا وجود دخيل غاز وليس وجوداً أصيلا . وإن الفينيقيين الذين

(١) Warmington B.H., Ibid p. 205

وفدوا من شرقي المتوسط امتزجوا بالسكان البربر وانصهروا معهم عبر مئات السنين في مجتمع واحد . وإن الفينيقيين القرطاجيين هم الذين بنوا الموانىء الهامة في أسبانيا مثل ، قرطاجنة Cartagena وتارتسوس Tartesos، وفي جزر البليار وسردينيا ومالطة التي كانت جزراً قرطاجية .

لذلك فإن الفتح العربي الإسلامي للشمال الإفريقي كان طرداً للغزاة الرومان وإنهاء لوجودهم الدخيل الذي دام أكثر من سبعة قرون . وهذا يفسر لنا الحماس الذي استقبل به السكان المحليون جيوش المسلمين رغبة في الخلاص من الرومان المحتلين .

يمكننا الآن أن نتوقف قليلاً عند تسميات : ايبريا ـ اسبانيا ـ الاندلس .

جاءت كلمة ايبريا من سكان يسمون الايبيريين Les Ibères وقد عاصروا الفنيقيين واليونان ثم الرومان . أما كلمة اسبانيا Espagne فهي تسمية رومانية تعني بلاد الغرب . وتسمية الأندلس جاءت من كلمة الفندال ، وهم قوم غزوا شبه الجزيرة واطلقوا عليها اسم «ونداليشيا»[1] ثم حوله العرب إلى (أندلس) وأطلقوه على المنطقة الإسلامية من أسبانيا . ويطلق اسم الاندلس اليوم على المنطقة الجنوبية من أسبانيا وتضم مدن قرطبة واشبيلية وغرناطة وتدعى باللغة الاسبانية «اندالوثيا» .

استكمل القائد الفذ موسى بن نصير فتح المغرب الكبير ولم تستعص عليه سوى مدينة «سبتة» التي كان يحكمها «يليان» واتخذ من طنجة مركزاً له ، ودانت له قبائل البربر ودخلت جموعها في الإسلام أفواجاً[2] .

وكان يحكم أسبانيا القوطية «لذريق» Rodrigo الذي اغتصب الحكم من

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الأندلس، كولان ص ٥٨ .

(٢) البيان ، ابن عذاري ج ١ ص ٣٥ .

أسرة غيطشة ، مما أثار هؤلاء وجعلهم يبحثون عن منقذ يخلصهم من هذا الطاغية .

ويروى أن يليان كانت له ابنة في بلاط طليطلة عاصمة أسبانيا في تلك الفترة ، وأن لذريق قد استكرهها على نفسها ، فغضب لذلك يليان أشد الغضب ، وأضمر الانتقام من لذريق[1] .

وبعد مراسلات ومشاورات واستئذان من الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق . . أرسل موسى مولاه طارق بن زياد على رأس جيش من سبعة آلاف مقاتل جلهم من البربر[2] فاجتاز بحر الزقاق على سفن يليان سبتة وكان ذلك يوم ٥ رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل ٧١١م) من مدينة طنجة في الشاطىء الإفريقي إلى جبل على الشاطىء الأسباني كان الأقدمون يدعونه «أعمدة هرقل» وباسمه سمي المضيق . ومن يومها أطلق على الجبل جبل طارق وعلى المضيق «مضيق جبل طارق» ولزمه ذلك حتى يومنا هذا، فهو يدعى في جميع اللغات «Gibraltar»

وقصة المعركة بين طارق ولذريق معروفة في كتب التاريخ على اختلاف ميولها ومشاربها فقد التقى الفريقان في مكان يدعى «وادي لكه» يوم ٢٨ رمضان ٩٢ هـ (١٩ يوليو ٧١١ م) وحسمت المعركة بنصر ساحق للمسلمين دفعوا ثمنه ثلاثة آلاف قتيل[3] .

وتبع موسى طارقاً بجيش قوامه ثمانية عشر ألف مقاتل وتولى فتح غربي أسبانيا ، ثم التقى مع طارق ودخل القائدان المظفران طليطلة العاصمة ، وتابعا زحفهما السريع كالسيل الجارف شمالاً حتى أشرفا على منطقة جليقية في

(١) Dozy: Histoire des Musliman p. 70.

(٢) تاريخ العبر ، ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥٤ .

المنجد ، ص ٢٠٨

الشمال الغربي من أسبانيا . وهناك جاء رسول الخليفة الوليد يأمر موسى بالتوقف ويستدعيه إلى دمشق .

ولست أدري إن كان من حقنا أن نقف وقفة تأمل أمام بعض الحوادث الصغيرة التي تغير مجرى التاريخ . . . فاستدعاء موسى وطارق تسبب في إيقاف الحملة على جليقية ، وهذه المنطقة نشأت فيها نواة مملكة «ليون» النصرانية التي توسعت شيئاً فشيئاً حتى قضت على الوجود الإسلامي في الاندلس فيما بعد . . . وكان طموح موسى واندفاع طارق كفيلين بسحق بقايا الوجود القوطي وتثبيت الوجود العربي الإسلامي في المنطقة والانطلاق نحو أوربا عبر جبال البرانس شمالاً . ولكن . . تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

عاد موسى وطارق إلى دمشق ، وبعد ثلاثة أيام توفي الوليد وجاء أخوه سليمان وكان ناقماً على موسى وطارق فعزلهما . ويبدو أن سليمان كان يخشى من ازدياد نفوذ موسى وانفصاله بولاية الاندلس[1] .

كانت الفترة الزمنية التي فتح خلالها العرب الاندلس فترة قياسية ، فخلال ثلاث سنوات كانت البلاد بطولها وعرضها قد خضعت للمسلمين وبدأت قوافل الهجرة العربية والبربرية تتدفق عبر المضيق الذي أصبح اسمه مضيق جبل طارق ، وأصبح الشاطئان يسميان «عدوة المغرب وعدوة الاندلس» .

كانت الدولة الاموية في دمشق في مراحل عمرها الأخيرة ، تضطرب في أحشائها فتن القيسية واليمانية ، وثورات الخوارج ، والدعوة العباسية السرية لإسقاط الدولة . وانعكس ذلك كله على الاندلس المفتوح حديثاً ، وأضيف إليه تناقض المجتمع الجديد بفئاته المختلفة : العرب ـ البربر ـ المولدون ـ النصارى .

---

(١) تاريخ المغرب الكبير ، محمد علي ديوز ج٢ ص ١٦٥ .

ومرت فترة الولاة ٩٢ ـ ١٣٨ هـ ، وهي على قصرها عرفت عشرين والياً . وشهدت سقوط الامويين في دمشق وقيام الدولة العباسية في بغداد .

كانت فترة الولاة مضطربة تفتقر إلى الاستقرار ، وهي مع ذلك قد أفرزت القائد الكبير عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، الذي ولي الاندلس سنة ١١٢ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك. وكان من قبل أحد قادة فتح الاندلس في جيش موسى وطارق[١].

حاول عبد الرحمن استكمال خطة موسى بن نصير . فأعد عدته لاجتياز جبال البرانس والتوغل في بلاد الغال المعروفة اليوم باسم فرنسا . وكان جيش عبد الرحمن في حدود ٨٠ ألفاً من المقاتلين في رأي أكثر المؤرخين .

اجتاح عبد الرحمن مدن الجنوب ومنها بوردو وتوغل في أواسط فرنسا وتجاوز مدينة ليون ، حيث التقى بجيش الفرنجة الكثيف بقيادة شارل مارتل . وكان جيش عبد الرحمن متعباً مثقلاً بالأحمال من الغنائم .

كان اللقاء على مقربة من نهر «اللوار» في مكان يدعى «بواتييه» وتسميه المصادر العربية «بلاط الشهداء» وقد استمرت المعركة ستة أيام بشكل ضار وعنيف . وفي اليوم السابع عمد الفرنجة إلى الحيلة فأطلقوا نداء في جيش عبد الرحمن بأن بعض الجند الفرنجة قد وصلوا إلى الغنائم خلف جيش المسلمين ، مما أدى إلى تراجع بعض الجند من جيش عبد الرحمن لتفقد غنائمهم . وقد أحدث ذلك بلبلة وفوضى استغلها الفرنجة ، فاندفعوا في صفوف جيش المسلمين ، ولم تفد صيحات عبد الرحمن في جنوده أن يعودوا إلى ساحة القتال ، وبقي يقاتل حتى سقط عن جواده شهيداً رحمه الله . وكان ذلك في شعبان ١١٤ هـ[٢] .

---

(١) الأعلام ، الزركلي ج ٣ ص ٣١٢.

(٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٦٥.

يعتبر المؤرخون هذه المعركة إحدى المعارك الخمس عشرة الحاسمة في تاريخ البشرية ، ويعتبرها الاوربيون المعركة الحاسمة الأولى في مطلع العصور الوسطى . فهي التي قررت مصير أوربا لعدة قرون . ولو كتب النصر لعبد الرحمن الغافقي لتغير وجه تاريخ العالم بصورة جذرية ولاستكمل برنامجه الطموح بالعودة إلى دمشق العاصمة عن طريق القسطنطينية .

ورغم هزيمة العرب في بلاط الشهداء فقد احتفظوا بمدن الجنوب الفرنسي لمدة أكثر من قرنين ووصلت علاقاتهم التجارية إلى مدن سويسرا وأقاموا فيها مراكز لهم(١) .

لقد أذهلت هزيمة بلاط الشهداء مسلمي الاندلس فلم يفكروا خلال القرون التالية بعبور جبال البرانس بجيوش كثيفة ، ولكنهم ما فتئوا يرسلون الطلائع والبعوث للإغارة على أواسط فرنسا وأطرافها .

وحاول الفرنجة بعد نصف قرن توجيه ضربة موجعة لعرب الاندلس فاجتاز شارلمان بجيوشه الجرارة جبال البرانس عام ١٦١ هـ وحاصر سرقسطة في أقصى الشمال ولم يتمكن من دخولها ، وقفل راجعاً ، ولكن العرب كانوا له بالمرصاد في شعاب الجبال ، فانقضوا على جيشه ومزقوه شر ممزق حتى لم يكد ينجو من الموت . وأصبحت هذه المعركة ذكرى حزينة لدى الأوربيين على مدى الأيام وقيلت فيها قصائد وأناشيد . وقد جعلت هذه المعركة الفرنجة لا يفكرون بعبور جبال البرنس مرة أخرى لمحاربة المسلمين لعدة قرون(٢) .

وهكذا تتكامل حلقات الصراع وتتصل ، ويستطيع المسلمون حمل تسامحهم وحضارتهم إلى أوربا الغارقة في الظلمات ، فيحيلون اسبانيا إلى منبر للعلم والمعرفة يقصده الراغبون من كل أنحاء العالم .

---

(١) G. le Bon, La civilisation arabe p. 323.

(٢) العرب في اسبانيا ، علي الجارم ص ٤٢ .

لقـد اختفت أعمدة هـرقل ليحـل محلها جبـل طـارق . . ولكن الجـدار العاتي في «بواتييـه» أوقف مسيرة الحضـارة ، وأخّرها ألف سنة كـما يقول أحـد المفكرين الفرنسيين المعاصرين في حوار له مع إحدى السيدات :

«أتعلمين يا سيدتي «ما أتعسُ يوم في تاريـخ البشريـة؟» «إنه يـوم بواتييـه وهزيمة العرب أمام شارل مارتل ، ولو انتصـر العرب في تلك المـوقعة لتقـدمت الحضارة البشرية ألف سنة» .

في المحطة الاندلسية الثانية سنلتقي مع نخلة الرصافة وصقر قريش ، في قرطبة العظيمة .

الصّقر ونخلة الرصافة

أيها الراكب الميمم أرضي	أقْرِ من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قدَّرَ البَيْنُ فافترقنا	وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

هذه الكلمات الرقيقة حملتها يد النسائم الاندلسية واجتازت بها الجبال والصحاري والبحار لتبلغ بها بلاد الشام . . . وتفضها همسات على أذن فتاة أموية سلمت من موجة الملاحقة العباسية .

الكلمات أرسلها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . . إلى أخته . . .

هو في قرطبة أمير حاكم يؤسس دولة جديدة . . وأخته في الشام حيث ولدت وعاشت .

بدأت رحلته إلى قرطبة وهو في العشرين من عمره . . واستغرقت الرحلة من شاطىء الفرات إلى شاطىء الوادي الكبير في الاندلس ست سنوات كاملة ،

ولد عبد الرحمن في منطقة تدعى «دير حنا» قرب دمشق سنة ١١٣ هـ وتوفي والده معاوية مخلفاً أطفالاً صغاراً رعاهم جدهم هشام خير رعاية[١] .

(١) العرب في أسبانيا ، علي الجارم ص ٥٩.

وكانت أمه «راح» من قبيلة زناتة البربرية في الجزء الشمالي من المغرب الأقصى . وقد انتقلوا جميعاً إلى قصر هشام في الرصافة التي بناها في بادية تدمر واتخذها مقراً لخلافته .

تقع الرصافة على مقربة من الفرات . . وكانت حاضرة جميلة في أيام هشام يستقبل فيها الوفود ، ويرسل منها عماله وأوامره وتعليماته .

وتحدثنا كتب التاريخ عن نبؤة تحدث بها مسلمة بن عبد الملك مع أخيه الخليفة هشام عن عبد الرحمن وهو صغير :

«دخل مسلمة يوماً حديقة قصر هشام فرأى أطفالاً يلعبون وبينهم عبد الرحمن فاقترب منه وبدأ يتفرس فيه وهو يردد : نعم إنه هو . . إنه هو يا هشام .

ويعجب هشام ويسأل أخاه مسلمة عن الموضوع ، فيجيبه هذا :

ـ سيذهب أمر بني أمية يا أخي وتنطوي دولتهم، وتلاحقهم يد الافناء ويتمكن واحد منهم من الهرب . . ويذهب بعيداً بعيداً ليرفع لواءهم من جديد في مكان قصي . . وهذا الهارب هو عبد الرحمن الذي أمامك الآن .

ويتطير هشام من النبؤة ويغضب ، ويرفض تصديق كلام أخيه وهو يرى دولته في غاية القوة والبأس والجبروت» .

ولكن الزمن يدور دورته العاجلة . . وتنمو عوامل المعارضة داخل الدولة الاموية ويضعف الخلفاء بعد هشام وينغمس بعضهم في عهودهم وصراعاتهم ، حتى إذا كانت معركة الزاب عام ١٣٢ هـ هزم الجيش الأموي أمام جيش أبي مسلم الخرساني . . وهرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . . وطارده العباسيون حتى مصر حيث قتل هناك .

بدأت مرحلة الملاحقة والتصفية لكل ما هو أموي إلى درجة أطلق معها

لقب «السفاح» على الخليفة العباسي الاول لكثرة ما سفك من دماء الامويين وأنصارهم . بل إنه تتبع الأموات في قبورهم فنبش القبور ومثل بالجثث أشنع تمثيل .

كان عبد الرحمن في حدود العشرين من عمره حينما بدأت عملية المطاردة وقد هرب من الجند العباسي والتجأ إلى قرية على الفرات . . حتى إذا وصلت الرايات العباسية السوداء إلى القرية لم يكن أمام عبد الرحمن إلا أن يلقي بنفسه في النهر مع أخيه سابحاً إلى الضفة الثانية . ووصلت خيول العباسيين إلى شاطىء الفرات فصاح بعضهم بالسابحين أن يعودا ولهما الأمان . فلم يصدق ذلك عبد الرحمن أما أخوه الاصغر فصدقهم وعاد ولم يأبه بتحذير أخيه. وما كان من جند العباسيين إلا أن حزّوا رأسه وألقوه على الشاطىء وأخوه عبد الرحمن يرقب ذلك من الشاطىء الآخر ويرى أخاه ذا الثلاثة عشر ربيعاً يقضي في طرفة عين .

بدأت رحلة التعب والظلام والاختفاء والصمت . . من شاطىء الفرات باتجاه مصر . . عبر القرى والصحاري والادغال والجبال . . رحلة ليل واختباء نهار[1] .

وفي مصر يتوقف عبد الرحمن ليلتقط بعض أنفاسه . . وتلاحقه النبؤة مرة أخرى . . كان أمير مصر عبد الرحمن الفهري الذي أقره العباسيون على إمارته فمضى يشاركهم مطاردة الامويين سادته بالامس . وقد أخبره يهودي يوماً أن شاباً أموياً من بني مروان ذا ضفيرتين سيدخل الاندلس وينشىء فيه دولة تستمر في أحفاده . ونوى الفهري الغدر بعبد الرحمن حينما رآه نزل مصر ورأى ضفيرتي شعره . . إلا أن عبد الرحمن لم ينتظره ليفعل ذلك .

كان خادمه «بدر» المخلص الوفي قد وصل إلى مصر مع أسرة عبد الرحمن

---

(١) العرب في اسبانيا ، علي الجارم ص ٦١.

الصغيرة ومن هناك شدوا رحالهم غرباً إلى حيث زناتة أخوال الامير المغامر .

لم يبخل عليه أخواله بالتأييد والعون . ولم تجد ملاحقة الفهري ولا عيونه وأرصاده في الوصول إلى عبد الرحمن .

مكث عبد الرحمن عامين كاملين متخفياً قرب شواطىء سبتة وخادمه بدر يمضي في رحلاته المتلاحقة بين العدوتين : عدوة المغرب وعدوة الاندلس .

كان للأمويين في الاندلس بقايا أنصار ومؤيدين يتحينون الفرصة المواتية للانتفاض على والي العباسيين يوسف الفهري .

وصل بدر إلى طليطلة فالتقى هناك زعيمين من وجوه العرب وقادتهم هما : عبيدالله بن عثمان وعبدالله بن خالد ، وقد أبديا حماساً بالغاً للأمير الاموي المغامر ، وبدآ بجمع المال والأنصار وتهيئة الامر سراً لاستقباله في الاندلس .

طال الانتظار بعبد الرحمن شهوراً وهو يرقب عودة خادمه الأمين «بدر» وذات يوم ، فيما كان يتهيأ للصلاة على شاطىء البحر . . لاحت له سفينة تتهادى على راحة الموج . . فتفاءل خيراً . . وما هي إلا لحظات حتى نزل خادمه بدر من السفينة ، وانطلق إليه يعانقه والفرح يملأ ملامح وجهه . . وهو يردد[1] :

ـ لقد فزنا يا مولاي . . والنصر قريب بإذن الله .

وكان بدر قد اصطحب معه شاباً من الاندلس ، فلما رآه عبد الرحمن استبشر برؤيته وسأله عن اسمه وكنيته فقال له الشاب : اسمي تمام ابو غالب . . .

وكان عبد الرحمن منذ نبؤة مسلمة بن عبد الملك يتفاءل أو يتطير بما يرى

(١) العرب في اسبانيا ، علي الجارم ص ٦١ .

ويسمع . . فلما سمع اسم تمام صاح فرحاً: الله أكبر تم أمرنا وغلبنا بحول الله .

امتطى الأمير الشاب سفينة العبور ، وكان البحر هادئاً رخاء وكأنه يحتضن الرحالة المغامر . . ووصل الموكب الصغير إلى الشاطىء الآخر ونزل مدينة «البيرة» حيث كان الزعيمان عبيدالله وعبدالله في انتظار الزعيم الجديد .

مضت ست سنوات منذ انطلاقة الأمير الهارب من شاطىء الفرات يتلمس طريقه نحو الجانب الآخر من أرض المسلمين . . بدأها عام ١٣٢ وها هو يصل الاندلس عام ١٣٨ هـ .

أخذ الأمويون وأنصارهم يلتفون حول الامير الجديد ، وأسقط في يد يوسف الفهري ومساعده الصميل ، وأخذا يعدان العدة للقاء عبد الرحمن ، وكان الوقت شتاءً ، والأمطار والفيضانات تعوق الحركة . . وكأن كل شيء كان يسير في صالح عبد الرحمن ، فأتاح له ذلك الوقت الكافي لجمع مزيد من الانصار حوله ، حتى إذا التقى الطرفان على شاطىء الوادي الكبير قرب قرطبة : جيش يقوده يوسف الفهري يحاول المحافظة على ما لديه من زعامة ومكاسب في الاندلس ، وجيش يقوده الأمير الشاب ذو الخمسة والعشرين عاماً ، ولكنه شاب متفجر ذكاء وفطنة وبعد نظر .

واضطر عبد الرحمن للحيلة . . فالحرب خدعة ، فأرسل إلى الفهري أن يسمح له بعبور النهر إلى الضفة الاخرى بقصد التفاوض ، حتى إذا أذن له الفهري بذلك عبر بجيشه وكانت المعركة الفاصلة في تاريخ الاندلس . وانهزم الفهري والصميل ودخل عبد الرحمن قرطبة يوم العاشر من ذي الحجة عام ١٣٨ هـ فكان العيد عيدين . وقد منع عبد الرحمن جنده من الاعتداء والنهب وصان حرمات المهزومين فلم ينتقم منهم .

وهكذا بدأت صفحة جديدة وحاسمة في تاريخ الاندلس ، صفحة أموية جديدة كانت استمراراً لأمجاد دمشق في قرطبة .

لم يستسلم يوسف الفهري والصميل للهزيمة ، بل عاودا الكرة فهزما مرة ثانية ، واتفقا مع عبد الرحمن على العمل معه . ووفى الصميل بذلك الاتفاق ، ولكن يوسف هرب إلى ماردة معقل أنصاره وأعلن الثورة وهاجم اشبيلية بجيش كثيف من عشرين ألفا ، وكان عليها عبد الملك المرواني والياً لعبد الرحمن ، فأجفل عن اللقاء ولكنه اضطر لذلك ، وكأن الأقدار كانت تهيىء الامر لعبد الرحمن، فانتصر عبد الملك المرواني رغم ضآلة جيشه وهرب يوسف الفهري، حيث قتله أحد الناس تخلصاً من فتنه وحروبه واحتمل رأسه إلى عبد الرحمن في قرطبة.

انقضى عام كامل وقد غدا الاندلس تحت سيطرة عبد الرحمن وحكمه المطلق وهو في السادسة والعشرين من عمره . . شاب مديد القامة وسيم ، في عينه بعض حول يشبه في ذلك جده هشاماً . تبرق عيناه بوميض الذكاء والحذر والهدوء، وتنمّ ملامحه عن النبل والعراقة.

عام لم يعرف خلاله الامير الشاب طعماً للهدوء والراحة والاستقرار واستمر في أعوامه التالية يقضي على الفتن ويحارب الثائرين في كل مكان .

وكان أخطر ما تعرض له سلطان عبد الرحمن الجيش العباسي الذي أرسله أبو جعفر المنصور بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي[1] وعدته سبعة آلاف مقاتل ، فاستولى على باجة واستطاع حصار عبد الرحمن في قرمونة قرب اشبيلية .

ولكن عبد الرحمن خرج في سبعمائة من خيرة الرجال وباغت الجيش العباسي بهجوم مفاجىء قتل فيه العلاء وأكثر جيشه ولاذ الباقون بالفرار .

---

(١) الاعلام ، الزركلي ج ٤ ص ٢٤٥

وكانت تلك آخر محاولة يقوم بها العباسيون لاجتياز جبل طارق .

وتحدياً لأبي جعفر أمر عبد الرحمن بأن توضع رؤوس كثيرة من القتلى في أكياس وتلقى في القيروان . كما أرسل برأس العلاء ومعه اللواء الأسود العباسي إلى مكة في موسم الحج فألقي بين يدي المنصور الذي كان يحج ذلك العام . فغضب المنصور أشد الغضب واحتدم وجهه بالغيظ ولكنه لم يملك إلا أن يقول : «الحمد لله أن كان يفصل بيني وبين هذا الرجل بحر» .

وكان عبد الرحمن يقول: «لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونشبه ، وتسليمه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف بنفسه في لجج المهالك لابتغاء مجده ، فاقتحم جزيرة نائية شاسعة واستمال قلوب رعيتها بسياسته ، فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قصبته قاهراً لأعدائه ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه . إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه» .

والمنصور هو الذي سأل سماره يوماً :

ـ أتدرون من صقر قريش ؟

قالوا : أمير المؤمنين أبو جعفر الذي أسس الملك وقضى على الصعاب .

قال : ما صنعتم شيئاً .

قالوا : معاوية بن أبي سفيان .

قال : ولا هذا .

قالوا : عبد الملك بن مروان .

قال أبو جعفر : إنه عبد الرحمن الداخل الذي نجا بدهائه وحيلته من رماحنا وسيوفنا يعبر القفر ، ويركب البحر ، ويدخل بلداً بعيداً ، ويقيم له ولأولاده ملكاً .

ومن يومها أطلق على عبد الرحمن الداخل لقب «صقر قريش» . لم يكد عبد الرحمن ينتهي من الجيش العباسي . . ويقضي سنوات يثبت أركان ملكه الجديد . . . حتى أطل الخطر الماحق برأسه من الشمال . . فلقد عبر شارلمان جبال البرانس بجيوشه الجرارة معتمداً على تأييد بعض الخونة من أمراء المسلمين المتآمرين على دولة عبد الرحمن . وما أن وصلت جيوش شارلمان إلى أسوار سرقسطة في الشمال حتى كان المتآمرون قد تفرقوا بين مقتول ومسجون وانسحب شارلمان بعد أن سمع بثورة ضده في بلاده ، فعاد أدراجه ، وأثناء عبوره جبال البرانس انقضت عليه القبائل المناوئة له مع الجيش العربي الكامن هناك وأفنوا جيشه فناء كاملا. ومرة ثانية كانت الأقدار تهيىء الأمر وتسهله لعبد الرحمن ليبقى له الحكم ولأبنائه من بعده أكثر من ثلاثمائة سنة .

إن كثرة الأحداث التي عصفت بالأمير المغامر جعلته شديد الحذر لا يثق بأحد ، بطاشاً ميالاً للقمع ، مما جعل الناس يخافون بأسه وينفضون عنه فاضطر للاستعانة بجيش ضخم من مرتزقة البربر كانوا سلاحه وعدته في حروبه خارجياً ، وإمساكه بالسلطة داخلياً .

وحينما كان يخلو إلى نفسه كان يعود بذاكرته إلى أيام الطفولة والصبا في رصافة هشام قرب الفرات . . وهو لذلك بنى الرصافة في قرطبة وزرعها بالنخيل لتذكره بمنبت النخل في مسقط رأسه وملاعب صباه ، وتروي لنا كتب الأدب والتاريخ مناجاة صقر قريش لنخلة كان يتأملها في رصافة قرطبة فيقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهي في التغرب والنوى   وطول التنائي عن بلادي وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة   فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

ولا يكف الحنين يراود صقر قريش . . . ولا تني رؤية النخيل تثير فيه الذكريات فينطلق يناجيها :

يا نخل، أنت فريدة مثلي في الأرض نائية عن الأهل
تبكي - وهل تبكي مكممة عجماء لم تجبل على جبْل
ولو انها عقلت إذن لبكت ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت وأخرجني بغضي بني العباس عن أهلي

كان عبد الرحمن موضع خلاف بين المؤرخين . . فمنهم من نعته بالبطش والعسف والظلم ، ومنهم من وصفه بالحزم والشجاعة والحكمة . . ويقول فيه المؤرخ ابن حيان :

« كان عبد الرحمن راجح الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متّصل الحركة ، لا يخلو إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الحدّة، قليل الطمأنينة، بليغاً مفوهاً، شاعراً محسناً، سمحاً سخياً، طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره ويكثر معاشرة الناس والمشي بينهم» .

كان عبد الرحمن يغضب إذا سمع الناس يقولون إنه صاحب حظ حسن ، وأن طالعه السعيد قد أوصله إلى الحكم وجعله ينتصر على أعدائه، وهو يقول في ذلك :

لا يُلفَ ممتنّ علينا قائل : «لولاي ما ملك الأنام الداخل»
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم : سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

لقد أمضى صقر قُريش أربعة وثلاثين عاماً في توطيد ملكه وملاحقة معارضيه وصدّ العبّاسيين جنوباً والفرنجة شمالاً . . . حتى وافاه الأجل عام

١٧٢هـ وهو في التاسعة والخمسين من عمـره. وأوصى بالإمـارة من بعده لابنـه هشام.[1].

وسوف تبقى سيرة صقـر قريش حـدثاً خـارقاً في تـاريخ المسلمـين بل في تاريخ البشرية جمعاء.

(١) تاريخ العبر، ابن خلدون ص ٢٧٠.

بواكير الشعر الأندلسي

درج مؤرخو الأندلس على تقسيم مراحل الوجود العربي في أسبانيا إلى العهود التالية:[1]

١ ـ عهد الولاة: ابتداء بطارق بن زياد حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (٩٢ ـ ١٣٨) هـ ـ (٧١٠ ـ ٧٥٥)م.

٢ ـ عهد إمارة قرطبة : (١٣٨ ـ ٣٠٠) هـ ـ (٧٥٥ ـ ٩١٢) م

٣ ـ عهد خلافة قرطبة : (٣٠٠ ـ ٤٠٣) هـ ـ (٩١٢ ـ ١٠١٢) م

٤ ـ عهد ملوك الطوائف : (٤٠٣ ـ ٥٣٦) هـ ـ (١٠١٢ ـ ١١٤١) م

٥ ـ عهد المرابطين : (٤٩٥ ـ ٥٤١) هـ ـ (١١٠٢ ـ ١١٤٦) م

٦ ـ عهد الموحدين : (٥٤١ ـ ٦٦٨) هـ ـ (١١٤٦ ـ ١٢٦٩) م

٧ ـ عهد بني الأحمر في
في غرناطة : (٦٦٨ ـ ٨٩٨) هـ ـ (١٢٦٩ ـ ١٤٩٢) م

وفي حديثنا عن بواكير الشعر الأندلسي سنتوقّف عند عصر الأمراء الأوائل بعد أن نمر على عصر الولادة.

تميزت مرحلة عصر الولاة بأنها مرحلة نزاعات وحروب ومحاولة تثبيت السلطة وإشاعة الاستقرار السياسي . وعلى الرغم من قصر تلك الفترة نسبياً (٤٥) سنة فقط فقد حكم خلالها أكثر من عشرين والياً. وشهدت سقوط الدولة الأموية في دمشق وقيام الدولة العباسية في بغداد.[2]

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، الأندلس، كولان ص ٢٩

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية ص ١٠ ـ ١١

كانت الحروب مستمرة بين المسلمين والأسبان، وشهدت تلك الفترة عبور الوالي عبد الرحمن الغافقي جبال البرانس شمالاً واستشهاده في معركة بلاط الشهداء. كما كانت النزاعات الداخلية على أشدها بين العرب والبربر. وبين القيسية واليمانية. ثمّ بين مؤيدي الأمويين والعبّاسيين.

وبما أن المرحلة لم تعرف الاستقرار، فإنها بالتالي افتقرت إلى النضوج الأدبي والثقافي، وما ظهر من أدب بسيط إنما كان شذرات جاءت مع الجيوش التي عبرت المضيق، وكان في بعض الجند شعراء لم يحفظ لنا الرواة كثيراً من أشعارهم.

ينسب المقري في كتابه «نفح الطيب» أبياتاً إلى طارق بن زياد يقول فيها: (١)

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيّرا ... عسى أن يكون الله منّا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة ... إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

ولكن الشك في هذه الأبيات ونسبتها إلى طارق أكبر بكثير من الحقيقة. فطارق كان من بربر الشمال الإفريقي، وقد أسلم على يد موسى بن نصير. وليس من المعقول أن يتعلّم العربية في فترة قصيرة فيكتب فيها شعراً ويلقي بها خطباً. كما ينسحب هذا الشك على خطبته المنسوبة إليه بعد عبور المضيق والمشهورة بمطلعها «أيها الناس أين المفر، البحر وراءكم، والعدو أمامكم». (٢)

ومن أسباب هذا الشك أن المصادر الأولى المعاصرة لطارق والقريبة من عصره لم تسجل هذين النصّين ولا أشارت إليهما. بل ورد ذلك في مصادر متأخرة مثل نفح الطيب للمقري.

---

(١) نفح الطيب، المقري ج ١ ص ١٢٤
(٢) الأدب الأندلسي، أحمد هيكل ص ٦٨ - ٦٩

وإذا نحن قفزنا عدداً من السنين بعد الفتح، وصاحبنا قوافل الوافدين وهي تنتقل من عدوة المغرب إلى عدوة الأندلس، نرى أحد الولاة وهو أبو الخطّار حسام بن ضرار، وهو أحد رجال الفتح ومن أكابر القحطانيين. وقد عيّنه هشام بن عبد الملك والياً على الأندلس سنة (١٢٥هـ) وبقي في ولايته حتى (١٢٧هـ). وكان أبو الخطّار شاعراً فارساً حتى لقب بعنترة الأندلس.(١)

وفي شعر أبي الخطّار جزالة الشعر الجاهلي وفحولة الشعر في صدر الإسلام فهو استمرار للأدب المشرقي ولم يترك فيه الأندلس أي أثر.. لأن التأثير الأندلسي جاء بعد ذلك بزمن ليس قصيراً.

من شعر أبي الخطّار قوله يعاتب الأمويين لأنهم ينصرون القيسية على اليمانية: (٢).

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا	وفي الله إن لم تنصفوا حَكَمٌ عدْلُ
كأنكُم لم تشهدوا «مرجَ راهط»	ولم تعلموا من كان ثَمَّ لـه الفضل
وقيناكم حرَّ الوغى بصدورنا	وليست لكم خيل تُعَدُّ ولا رَجْل
فلما رأيتم واقِد الحرب قد خبا	وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا	بلاء، وأنتم ما علمت - لها فعل
فلا تجزعوا إن عضّت الحرب مرة	وزلّت على المرقاة بالقدم النّعل

وفي شعره يلاحظ الأثر الجاهلي في الاخذ بالثار الجاهلي وذلك بعد انتقامه لمقتل أحد بني عمومته:

فليت ابن حواس يخبر أنني	سعيت به سعي امرىء غير عاقل
قتلت بـه تسعين تحسب أنهم	جذوع نخيل صرعت في المسايل
ولـو كانت الموتى تباع اشتريته	بكفي وما استثنيت منها أناملي

(١) بغية الملتمس، الضبي ترجمة رقم ٦٢٢
(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية ص ١٨ - ١٩

ومن شعراء عصر الولاة كذلك أبو الأجرب جعونة بن الصمة . الذي عرف بهجاء الصميل بن حاتم زعيم القيسية ، فلما تمكن منه الصميل بعد ذلك عفا عنه فمدحه أبو الأجرب وكان أبو نواس معجباً بشعر أبي الأجرب وقد سأل أن يسمع شيئاً من شعره حينما التقى في العراق بالاندلسي عباس بن ناصح[1] . وكان يعتبر بمنزلة جرير والفرزدق .

ومن شعر أبي الأجرب قوله :

ولقد أراني من هواي بمنزل ... عال ، ورأسي ذو غدائر أفرع

والعيش أغيد ساقط أفنانه ... والماء أطيبه لنا والمرتع

* * *

بعد عصر الولاة تأتي مرحلة إمارة قرطبة . المرحلة التي أعاد فيها صقر قريش بناء الدولة الاموية في الاندلس . بعد انهيارها في دمشق على يد العباسيين وجند أبي مسلم الخراساني.

أنفق عبد الرحمن فترة حكمه البالغة أربعاً وثلاثين سنة في حروب داخلية وخارجية واستطاع تثبيت دعائم دولته الفتية بمقدرة خارقة للعادة والتاريخ .

اضطر عبد الرحمن في سبيل توطيد حكمه إلى التقليل من نفوذ القبائل العربية ، والاعتماد على جند من الموالي .

وقد أدى ذلك إلى تنوع العناصر المكونة للمجتمع الاندلسي : كان هناك العرب من القبائل التي دخلت أثناء الفتح وبعده . . . والبربر الذين دخلوا مع جيوش الفتح ثم توافدوا بعد ذلك ، وكان هناك المولدون وهم الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام وكثر عددهم مع الزمن فاندمجوا مع المجتمع الجديد وتحول لسانهم إلى العربية . ثم كان هناك الصقالبة الذين هم في الأساس أسرى أو

(١) جذوة المقتبس ، الحميدي ص ١٨٧ .

عبيد دخلوا في عداد جنود الإمارة الاموية وهم من أصول مختلفة متباعدة ، وقد لعبوا فيها بعد أدواراً هامة وتقلدوا مناصب عسكرية وسياسية رفيعة في عهد عبد الرحمن الناصر ومن بعده. يضاف إلى ذلك كله النصارى الاسبان الذين احتفظوا بدينهم ، واليهود الذين استفادوا من مناخ التسامح فكانت إقامتهم في الاندلس فتره مزدهرة في حياتهم .

أعطى هذا التنوع في تركيب الاندلس شكلاً جديداً له سمات مغايرة لمجتمعات المشرق . وسوف نتناول الحديث عن ذلك بتفصيل واسع في محطات أندلسية قادمة.

ولكن الذي يهمنا الآن ، أن الحياة الجديدة بدأت تلقي ظلالها على بواكير الشعر الاندلسي ، فتتفاعل الثقافة العربية مع المؤثرات الجديدة لينشأ من ذلك أدب أندلسي متميز.

بعد استقرار السلطة لعبد الرحمن الداخل تدفق على الاندلس أعداد كبيرة من الأمويين وأنصارهم وأشياعهم ممن كانوا متوارين عن الأنظار في المشرق ، وقد حمل هؤلاء علومهم وأدبهم وكان منهم محدثون وأدباء وشعراء . فكانوا بمثابة النواة الاولى للثقافة الاندلسية . ومن هؤلاء : أبو الأشعث الكلبي ، والغازي بن قيس وعبد الملك بن عمر بن مروان[١] .

يلاحظ في الادب الاندلسي منذ عهده المبكر أن المهتمين به من شعراء وكتاب كانوا من الحكام ومن عامة الناس ، كما يلاحظ ظهور دور كبير للمرأة في هذا المجال ، وبروز أعداد غير قليلة من النساء الاديبات والشواعر منذ عصر الإمارة الأول[٢] .

***

---

(١) نفح الطيب، المقري ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) الشعر النسوي في الاندلس محمد المنتصر الريوني ص ٤٥ .

وفي طليعة شعراء عصر الإمارة الأول يلوح لنا الامير الاموي عبد الرحمن الداخل . كان عبد الرحمن شاعراً بليغاً وناثراً مجيدا. وفي شعره تبدو شخصيته بجوانبها الإنسانية والسياسية والفروسية .

يغلب على شعر عبد الرحمن الداخل طابع الفخر ، وما هذا بغريب على فتى اقتحم الأهوال وأسس دولة انتزعها من بين أنياب المخاطر المحدقة به داخلياً وخارجياً .

يروي صاحب كتاب «أخبار مجموعة» أن بعض رفاق الامير دعوه إلى صيد الغرانيق* بجانب معسكره بقصد التسلية والترويح عن النفس فقال في ذلك[1]:

دعني وصيد وُقّع الغرانِقِ
فإن همّي في اصطياد المارق
في نَفَق إن كان أو في حالق
إذا التظتْ هواجر الطرائقِ
كان لفاعي ظلّ بندٍ خافق
غَنيتُ عن روض وقصر شاهق
بالقفر والإيطان في السرادق
فقل لمن نام على النمارق
إن العلا شُدت بهمٍّ طارقِ
فاركب إليها ثَبَجَ المضائق
أو لا ، فأنت أرذلُ الخلائق

(*) الغرنوق : طائر مائي .

(1) اخبار مجموعة ، تحقيق ص ١١٧ ـ ١١٨ .

ومن شعره السياسي قوله يفتخر بما فعله في الاندلس :[1]

أبني أمية قد جبرنا صدعكم — بالغرب رغماً والسعود قبائل
ما دام من نسلي إمام قائم — فالملك فيكم ثابت متأصل
إن الملوك مع الزمان كواكب — نجم يطالعنا ونجم آفل

وقال يخاطب بعض أقاربه الامويين وقد وفدوا عليه من المشرق ، يصور كفاحه الطويل وما لقي من المتاعب في سبيل الوصول إلى غايته[2] :

شتان من قام ذا امتعاض — مذ قال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتاً لعزم — مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بحرا — ولم يكن في الانام كلاّ*
فشاد ملكاً وشاد عزًّا — ومنبراً للخطاب فصلا
وجنّد الجند حين أودى — ومصّر المصر حين أخلى
ثم دعا أهله جميعا — حيث انتأوا أن هلمّ أهلا
فجاء هذا طريد جوع — شديد روع يخاف قتلا
فنال أمناً ونال شبعاً — ونال مالاً ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا — أعظم من منعم ومولى

وإلى جانب شعره السياسي هناك شعره الإنساني المتمثل في الحنين إلى مرابع طفولته وصباه . ولعل أجمل ما قاله في ذلك حديثه عن النخلة التي رآها في حديقة قصره بالرصافة في قرطبة . وقد أثارت رؤية النخلة كوامن أشجانه وبعثت ذكريات صباه، فقال [3]:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة — تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى — وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي

(*) العاجز الثقيل .
(1) نفح الطيب المقري ج ٢ ص ٧٠ .
(2) نفسه، ج٢ ص ٧١.
(3) نفسه، ج٢ ص ٧١.

نشـأت بأرض أنت فيهـا غـريبـة		فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثـلي
سبقتك غوادي المزن في المنتأى الذ		ي يصح ويستمري المساكين بالويل

* * *

ولعـل أبرز شعـراء الأندلس في عهـد عبد الـرحمن الداخـل وابنه هشـام وحفيده الحكم هو الشاعر أبو المخشي عاصم بن زيد العبادي ، الذي ينتهي نسبه إلى بني عباد في الحيـرة. وكان والـده قد نـزل مع جنـد الشام في منـطقـة «البيرة». ونشأ هو ببلدة «شوش» واتجه إلى قرض الشعر حتى أصبح ألمع شعراء الأندلس في عصره[1].

وقد كان أبو المخشي بذيء اللسان كثير الهجـاء. وكان يميـل إلى سليمان الإبن الأكبر لعبد الرحمن الداخل. مما أغضب أخاه هشاماً وكان والي مـاردة في حكم أبيه. فاستدعـاه يوماً هشـام إلى ماردة وأبـو المخشي يظن أنـه سيكرمـه، ولكن هشاماً كان قد أضمر له الشر لبيت قاله يمدح أخـاه سليمان ويعـرض فيه بهشام الذي كان أحول. والبيت يقول فيـه :

وليسوا مثل من إن سيل عونـا		يـقـلـب مـقـلـة فـيـهـا اعـورار

وقد ارتكب هشام غلطة فظيعة إذ أمـر بقطع جـزء من لسان أبي المخشي وسمـل عينيه بحجـة أنه تعـرض لعرض إحـدى النساء في شعـره. فعـاش أبـو المخشي بقية عمره أعمى وغضب عبد الرحمن لـذلك أشـد الغضب وعنف ابنه أشد تعنيف.

تـركت هذه الحـادثة أثـراً هائـلاً في نفس أبي المخشي بقية حيـاته، وقـال شعراً وجدانياً لم يسبقهُ إليه قائل. ومن ذلك قوله[2] :

خـضـعـت أم بـنـاتي لـلـعـدا		إذ قـضى الله بـأمـر فـمضى
ورأت أعـمـى ضـريـراً إنمـا		مشيـه في الأرض لمس بـالعصـا

(۱) جذوة المقتبس ، الحميري ص. ۳۸۸
(۲) المُغرب، علي بن سعيد ج ۲ ص. ۱۲۳

لقد ضاع أكثر شعر أبي المخشي ولم يبق منه إلا النزر اليسير. ومن هذه البقايا قوله في مقدمة لمدحه عبد الرحمن الداخل[1].

وهمّ ضافني في جوف ليلٍ ... كلا موجيهما عندي كبير
فبتنا والقلوب معلقات ... وأجنحة الرياح بنا تطير

ومن أجمل مدائحه بيت قاله في عبد الرحمن وابنه سليمان[2]:

هما مهدا لي العيش حتى كأنني ... خفية زفّ بين قادمتي نسر

لقد وفق الشاعر كل التوفيق في اختيار كلمة «الزف» وهي الريشة الضعيفة في آخر خوافي الجناح. وهذه الريشة بحاجة إلى حماية قوادم النسر، بما في ذلك من إيحاء بقوة النسر الذي وفر له الحماية والعيش الآمن.

ومن جميل وجدانياته بعد العمى قوله يصف حال زوجته:

وأمّ بنيّاتي الضعيفُ حويلُها ... تعول فتى مثلي وكان يعولها
إذا ذكرت ما حال بيني وبينها ... بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

لقد كان أبو المخشي صورة الشعر الأندلسي في عصر الإمارة الأول.

ففي شعره ملامح البداوة والمحافظة إلى جانب الأثر الأندلسي. وغلب على موضوعاته المديح والهجاء، ثم اتجه إلى تجربته الجديدة بعد فقده البصر.

* * *

ومن شعراء تلك المرحلة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن المعروف بالربضي. والأمير الثالث في قرطبة بعد جده وأبيه. وكان على عكس جده مولعاً باللهو والصيد والترف، يؤثر الندماء والشعراء والقيان، مما أغضب عليه جمهور

---

(١) جذوة المقتبس، الحميري ص. ٣٨٧

(٢) المرجع السابق ص. ٣٨٧

الفقهاء. ولكنه كان فارساً شجاعاً جريئاً، أمضى الشطر الأكبر من حكمه في محاربة الثائرين والمتمردين ومن أخطر ما تعرض له ثورة الربض في قرطبة وقد سمي بالربضي بعد قمعه تلك الانتفاضة. وكان إلى جانب ذلك شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً. وفي أدبه تصوير لمراحل حياته السياسية والشخصية ويغلب على شعره لونا: الغزل والحماسة. وهو في غزله رقيق يذوب ليناً وخضوعاً، بينما هو في حماسته عنيف جبار شديد.

من شعره في الغزل قوله[1]:

ظل من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكا الهوى زيد ظلما ... وبعاداً يدني حِماماً وشيكا
تركته جآذر القصر صبًّا ... مستهاماً على الصعيد تريكا
يجعل الخد راضياً فوق ترب ... للذي يرتضي الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل بالحر ... إذا كان في الهوى مملوكا

ومن جميل غزله قوله[2]:

قضب من البان ماست فوق كثبان ... ولَّيْنَ عني وقد أزمعن هجراني
ملكنني ملكاً ذلت عزائمهُ ... في الحبِ ذُلّ أسير موثق عان
من لي بمغتصبات الروح من بدني ... يغصبنني في الهوى عزِّي وسلطاني

أما شعره الحماسي ففيه الجزالة والعنف. من خير ما يمثله قوله بعد انتصاره في موقعة الربض[3]:

رأبت صدوع الأرض بالسيفِ راقعاً ... وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
حميت ذماري فانتهبت ذمارهم ... ومن لا يحامي ظل خزيان ضارعا

(١) البيان المغرب، إبن عذاري ج٢ ص. ١١٩
(٢) المرجع السابق ص. ١١٨
(٣) اخبار مجموعة ص. ١٣٢

ولما تساقينا سجالاً حروبنا   سقيتهم سما من الموت ناقعا
فهاك بلادي إنني قد تركتها   مهاداً ولم أترك عليها منازعا

* * *

وآخر شاعر سنتوقف عنده من شعراء عصر الإمارة الأول هو عباس ابن ناصح الثقفي[1] من سكان الجزيرة الخضراء. وقد سافر إلى المشرق فطوف في مصر والعراق والحجاز وحينها عاد إلى الأندلس ولي قضاء الجزيرة الخضراء وشذونة من قبل الحكم بن هشام.

وتروي كتب التاريخ أن عباساً لقي أبا نواس في رحلته المشرقية وتبادل معه الحديث حول أدب الأندلس.

من المؤسف إن ديوان عباس ضاعَ فيما ضاع من آلاف الكتب. وما بقي منه متفرق في بطون بعض الكتب. وشعره موزع بين المدح والحماسة والفخر والزهد. ومن قوله يمدح الحكم بن هشام:

نَكِدَ الزمان فآمنت أيامه   أن لن يكون بعصره عسر
ظلع* الزمان بأزمة فجلى له   تلك الكريهة جوده الغَمْر

ومن شعره في الزهد قوله:

ما خير مدة عيش المرء لو جعلت   كمدة الدهر والأيام تفنيها
فارغب بنفسك إن ترضى بغير رضى   وابتع نجاتك بالدنيا وما فيها

تبقى في تلك الرحلة شاعرة مجيدة هي حسانة التميمية، وسوف نترك الحديث عنها إلى محطة خاصة بشاعرات الأندلس تأتي في حينها.

---

(١) بغية الملتمس، الضبي ص. ٢٧٦

(*) ضاق

المسجد الجامع في قرطبة

يتوافد ملايين السائحين كل علم على قرطبة لزيارة جامعها العظيم الـذي مضى على بنائه / ١٢٠٠ / سنة وهو ثابت راسخ يصارع الزمن.

فلنعش معاً قصة بناء هذا المسجد الجامع منذ بدايتها، ومـا آل إليه حـاله اليوم.

استـطاع عبـد الـرحمن بن معـاويـة بن هشـام بن عبـد الملك ـ المعـروف بعبد الرحمن الداخل ـ أن يوطد دعائم دولته بعد هربـه من ملاحقـة العباسيـين وعبوره البحر من الشاطىء الإفريقي إلى الشاطىء الأندلسي.

ومنـذ أن استتب له الأمـر واستـطاع أن يفـرض الأمن في البـلاد ويصـد هجـوم العبـاسيـين من الجنـوب والفـرنجـة من الشمـال، انصـرف إلى البنـاء والعمران وتنظيم أمور الدولة ـ شأنه في ذلك شأن جده الكبير عبد الملك ـ.

فشرع ببناء قصر الرصافة ومسجد قرطبة الكبير. وسـوف نعود إلى قصـر الرصافة في محطة قادمة.. ونتوقف اليوم على أحد أبواب هذا الجامع الخالد.

منذ حوالي ثلاثين سنة أقام الأسبان لوحاً كبيراً من المرمر الأبيض وكتبـوا عليه بالعربية والأسبـانية (العـربية في الأعـلى) العبارة التـالية: «ذكـرى الخليفة العـظيم عبد الرحمن الناصر» وذلك بمناسبة مرور ألف عام على وفاته.

وندخل من هذا الباب المجاور للوحة المرمرية، فإذا نفحـة قدسيـة تطل علينا من التاريخ وتصافحنا من أبواب المصلى الداخلي.

لم تكتب كتب التاريخ الإسلامي عن جامع كما كتبت عن جـامع قـرطبة. تحـدثت عنه تلك الكتب بـإجلال فـائق، ووصفته وصفـاً دقيقـاً، وقـد سمـاه المراكشي «الجامع الاعظم»[1] وكذلك ابن الخطيب[2] وابن بشكوال[3].

أما الحميري فقد وصفه بقوله[4]:

وفيها المسجد الجامع المشهور أمره الشائع ذكره، من أجلّ مصانع الدنيـا كبر ساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنيـة اهتم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة وتتميماً أثـر تتميم حتى بلغ الغايـة في الإتقان. فصـار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف.

وقال عنها الأدريسي (أي عن قرطبة):

«وفيهـا الجامـع الذي ليس بمسـاجد المسلمـين مثله بنيـة وتنميقـاً وطـولاً وعرضا».

وإن عظمة هذا المسجد وروعـة عمارتـه وزخارفـه وفن بنائـه هي الأمور التي أنقذته من التدمير والتخريب بعد دخـول الأسبان إلى قـرطبة، علماً بـأنهم - أي الأسبان - دمروا أكثر الآثار العربية والاسلامية وأحرقوا عشـرات الألوف من الكتب قبل أن ينتبهوا إلى خطورة ما يفعلون.

***

دخل المسلمون قرطبة بعد فتح الاندلس وانتصار طارق وموسى عـام ٩٢ هـ ٧١١ م. وكعـادتهم، تركـوا للأديـان الأخرى حـرية العبـادة وبقاء المعـابـد الخاصة بها. ولم يعمدوا إلى الإبادة ومحاكم التفتيش كما فعل الأسبـان بعد ذلـك

(١) المعجب، عبد الواحد المراكشي ص. ٣٧٢.
(٢) أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب ص. ٤٣
(٣) إبن بشكوال، نقلاً عن نفح الطيب ج٢ ص. ٩٩
(٤) الروض المعطار، الحميري ص. ١٦٨.

بعدة قرون. وقياساً على ما فعله المسلمون الأوائل في فتح العراق والشام، شاطر مسلمو قرطبة النصارى كنيستهم التي كانت تعرف باسم St. Vincent وتقع وسط المدينة، فتركوا نصفها للنصارى واقتطعوا نصفها لأنفسهم واتخذوه جامعاً متواضعاً متكامن السقف قصير الأبواب بسيط البناء، وقد حدد قبلته حنش الصنعاني[1].

وحينما استقر الأمر لعبد الرحمن الداخل رأى ضرورة توسيع المسجد وكان لا بد لذلك من أخذ الشطر الآخر الذي يشغله النصارى.

وهنا يضرب لنا التاريخ الإسلامي مثلاً آخر في التسامح والأفق الحضاري، فالأمير الأموي عبد الرحمن الداخل لم يعمد إلى اغتصاب الكنيسة وطرد النصارى منها وإنما فاوضهم مفاوضة طويلة رفضوا خلالها كل المبالغ المغرية التي قدمت لهم ثمناً لشطر الكنيسة. ثم وافقوا أخيراً شريطة أن يسمح لهم ببناء كنيسة خارج الأسوار، وفعلاً تم بناء تلك الكنيسة وتعرف باسم San Asciclo . وكان ذلك سنة ١٦٨ هـ - ٧٨٤ م[2].

***

كيف ظهرت صورة مسجد عبد الرحمن الداخل في مرحلته الأولى. ترك نصف المسجد باحةً خارجيةً، وسقف نصفه الآخر، والنصف المسقوف هو الذي يدعى عادة «بيت الصلاة» وكان يتألف في عهد عبد الرحمن من تسع بلاطات تتجه عمودياً إلى جدار القبلة والبلاط الأوسط منها سعته ٧,٨٥ م. بينما سعة كل بلاط آخر ٦,٨٦ م.

أما السقف فيتألف من ألواح خشبية مسطحة بين عوارض مربعة وكل لوح منها مسمر بالسقف وفيه من النقوش والزخارف والنصوص والدوائر ما

---

(١) نفح الطيب، المقري ج٢ ص. ٩٦ - ٩٧

(٢) فتح الأندلس، خواكين جونثالث ص. ٩ - ١٠

يختلف تماماً عن بقية الألواح. وتحت كل لوح أزار خشبي نقشت عليه آيات قرآنية.

ومن المؤسف جداً أن هذه اللوحات الجميلة قد طالتها يد التخريب ولم يبق منها شيء. وقد تمكن أحد علماء الآثار المعاصرين من إعادة تركيب سقف البلاط الأوسط كما كان في عهد عبد الرحمن الداخل.

أما عمدة المسجد فهي جميعاً من الرخام ويتألف كل منها من قاعدة وبدن ورأس وقد أفاد المسلمون من الأعمدة الرخامية القديمة فأعادوا زخرفتها بشكل متناسق واستخدموها في بناء المسجد.

وقد ربطت هذه الأعمدة فيما بينها عن طريق عقود متجاورة نصف اسطوانية تحمل الجدران التي يرتكز عليها السقف. والجدران عبارة عن أرجل من الحجر المزخرف تستند إلى العقود نصف الأسطوانية، وقد مكن ذلك من جعل السقف مرتفعاً إلى ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة مما أضفى على المسجد بهاء وجلالا.

وقد جعلت العقود العليا التي يرتكز عليها السقف من اللون الأصفر الشاحب «وهو لون الحجارة المستخدمة في البناء» بينما جعلت العقود الدنيا التي تعلو الأعمدة مباشرة من الآجر الأحمر، وهكذا يتناوب اللونان في إضفاء طابع زخرفي متميز على بيت الصلاة. وحينما تسقط خيوط الأشعة من النوافذ المثلثة للجدران يشعر المرءُ داخل المسجد أن لون الشفق البرتقالي يظلله بشكل خفيف فيستشعر لذلك هيبة وخشوعاً.

وكان الأسلوب المعماري الذي اتبع في رفع سقف الجامع هو الأول من نوعه في فن البناء، وقد مكّن من رفع السقف وإضاءة بيت الصلاة وتهويته، وقد استخدمت في ذلك العقود من الآجر والحجر فوق الأعمدة الرخامية.

أما الصحن الخارجي للجامع فقد أمر عبد الرحمن بغرسه بالأشجار وكلف بذلك «عبد الله صعصعة بن سلام» ولا تزال أشجار النارنج تملأ صحن المسجد حتى يومنا هذا. وقد أصبح ذلك المتبع في سائر مساجد المسلمين في الأندلس فيما بعد.

توفي عبد الرحمن الداخل قبل أن يستكمل بناء المسجد الكبير، فتابع ابنه هشام العمل وكانت المرحلة الثانية في بنائه.

كان عبد الرحمن قد أرجأ بناء المئذنة حتى يستكمل الصحن وبيت الصلاة، وفي عهده كان أحد أبراج القصر المجاور يتخذ مئذنة. ولكن الموت عاجله قبل بناء المئذنة.

وهكذا تولى ابنه هشام بناءها وكان ارتفاعها في عهده أربعين ذراعاً. كما بنى في آخر المسجد سقائف للنساء، وفي شرقيه مكاناً للوضوء. وقد تهدمت مئذنة هشام ولكن علماء الآثار استطاعوا كشف بقاياها ووصلوا إلى قاعدتها المربعة وكل ضلع منها ستة أمتار.

وفي عهد الحكم بن هشام لم يطرأ أي تعديل على شكل الجامع.

* * *

وكانت المرحلة الثالثة في عهد عبد الرحمن الثاني بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) (٨٢٢ ـ ٨٥٢ م). وكان هذا الأمير مصلحاً أسس الدواوين ودار الطراز ودار السكة ورتب الري والزراعة واعتنى بالعمران. ونظراً للأمن والاستقرار فقد توسعت قرطبة وكثر سكانها وضاق بهم مسجدها الجامع.

وتمشياً مع هذا التوسع السكاني كان لا بد من توسعة المسجد ليلبّي حاجة السكان.

وقد تم توسيع المسجد في عهد عبد الرحمن الثاني على مرحلتين: ففي

أولاهما زاد عبد الرحمن بلاطين إلى بلاطات المسجد التسع فبلغت بذلك أحد عشر بلاطاً. ورفع سقيفتيهما على ١٩ عموداً رخامياً وذلك عام ٨٣٤ م. وفي ثانيتهما كان التوسع أكبر وذلك عام ٢٣٤هـ ـ ٨٤٨م . فقد امتد التوسع جنوباً وذلك بنقب جدار القبلة والاتجاه به جنوباً صوب النهر وبلغ عمق تلك الزيادة خمسين ذراعاً وعرضها مائة وخمسين ذراعاً وقد استخدم فيه ثمانون عموداً رخامياً نحتت لهذا الغرض. ويبدو أنه كان في قرطبة تلك الأيام مصنع على درجة بالغة من الفن والدقة لصناعة الرخام وزخرفته[1].

وقد أشرف على هذا العمل قاضي قرطبة «محمد بن زياد» ونفذه أقرب فتيان الأمير إليه وهما نصر ومسرور.

ولا تختلف هذه الزيادة في طبيعتها الفنية والمعمارية عن مسجد عبد الرحمن الداخل إلاّ أن العقود الدنيا الملاصقة للأعمدة تبدو ملفوفة بشيء من بروز محدودب. وقد برز من الأعمدة أربعة ضخام تلتصق بعضادتي المحراب الثاني.

وفتح عبد الرحمن الأوسط «الثاني» أربعة أبواب في بيت الصلاة اثنان من جهة الشرق، واثنان من جهة الغرب. وقد هدم البابان الشرقيان عند زيادة الحاجب المنصور، بينما بقي البابان الغربيان حتى يومنا هذا، وكانا يحملان اسم «باب الوزراء» و«باب الأمير» ويدعيان اليوم: «باب سان استيبان» وباب «دي لوس ديانيس».

***

وتوفي عبد الرحمن الثاني قبل أن يتم ما أراده من عمارة المسجد الكبير فتولى ابنه محمد الأول سنة ٢٤١ هـ ـ ٨٥٥ م إكمال ما يلزم من زخرفة الأعمدة والعقود والأسقف وكانت المرحلة الرابعة في عهده بإضافة المقصورة وتوثيق

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، «الأندلس» كولان ص. ١٥٧

الأبواب عام ٢٥٠ هـ ـ ٨٦٤ م وهو أول من اتخذ مقصورة في الجامع. ولا يزال على باب الوزراء «باب سان استيبان» نقش عربي كوفي نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر الأمير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن ببنيان ما حكم بـه من هذا المسجـد وإتقانـه رجاء ثـواب الله عليه وذخـره بـه، فتم ذلـك في سنـة إحـدى وأربعين ومائتين، على بركة الله وعونه. مسرور ونصر فتياه»[1].

وفي عهد المنذر بن محمد تم إحداث زيادة جديدة وهي بيت المال، وكـان بناؤه داخل الجامع وذلك لوضع الأموال المـوقفة لغيـاب المسلمين، ولا يـزال في المسجد الأموي بدمشق موضع يعرف ببيت المال.

كما أمر المنذر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف.

وحـين جاء أخـوه عبد الله بن محمـد أضاف زيـادة أخرى وهي أنـه أمـر بوصل المسجد بقصر الأمارة المجاور عن طـريق رواق مغطى من طـرف المسجد بستارة، بشكل يـدخل الأمـير معه المسجـد ويخرج من غـير أن يراه أحـد. وقد استمر هذا التقليد متبعاً في مسجد قرطبة طيلة الحكم الأموي.

لعل من الصدف التي تلفت النظر أن أبرز الحكام الأمويين للأندلس كان كل منهم يدعى عبد الرحمن وأنهم حكموا أطول الفترات خلال الحكم الأمـوي الذي دام ٢٨٤ / عاماً تعاقب خلالها / ١٦ / أميـراً وخليفة. وكـان ثلاثـة منهم يدعون «عبـد الرحمن» هم عبـد الرحمن الـداخل الـذي حكم ٣٤ عاماً. عبـد الرحمن الثـاني «الأوسط» الذي حكم ٣٢ عـامـاً ثم عبـد الـرحمن النـاصـر «الثالث» الذي حكم ٥٠ عاماً.

وقد بلغ الأندلس ذروة مجده ونفوذه وإشراقه في عهد عبد الرحمن الناصـر الذي حكم (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ ـ ٩١٢ ـ ٩٦١ م).

***

---

(١) المرجع السابق ص. ١٥٧ ـ ١٥٨

كانت مئذنة هشام في الجامع الكبير قد أصابها بعض التصدع ورأى الناصر أن ترميمها لا يجدي لأنها لا تتناسب مع عظمة الجامع. وقرر بدلاً من ذلك بناء مئذنة جديدة تليق بالمسجد العظيم وبأبهة الخلافة فالناصر كان قد أعلن نفسه خليفة بعد زعزعة الخلافة العباسية في بغداد على أيدي الجند الفرس والأتراك، وإعلان الخلافة الفاطمية في شمال افريقيا.

وهكذا أمر عبد الرحمن الناصر ببناء صومعة جديدة للمسجد وأحضر لذلك العمال المهرة والمهندسين والأحجار الضخمة.

وامر أولاً بهدم صومعة هشام وهدم السور الشمالي توطئة لتوسيع المسجد من هذه الجهة.

اصبحت صومعة عبد الرحمن مثالاً يحتذى في بناء المآذن في الأندلس والمغرب وقد حفر أساسها حتى وصل الحفر إلى الماء.

ودام العمل فيها ١٣ شهراً. وتتميز بأن لها مطلعين منفصلين متلاصقين بينهما جدار، ولا يتصلان إلاّ في أعلى بنائها. ولكل مطلع ١٠٧ درجات.

إنتهى العمل في المئذنة الجديدة عام ٣٤٠ هـ - ٩٥٠ م. وكانت قاعدتها مربعة وضلعها ٨,٤٨ م وارتفاعها حوالي ٤٠ م.

وقد نصب في أعلاها سفود يحمل ثلاث تفاحات فوق بعضها: الوسطى من الفضة والأولى والثالثة من الذهب، وفوق كل تفاحة شكل مسدسي من الذهب الخالص. وارتفاع كل تفاحة ثلاثة أذرع ونصف. وتلوح من بعيد ببريقها الأخاذ.

وكان أحد المطلعين يطل بابه على صحن الجامع، والمطلع الآخر على الطريق الخارجي. وقد كتب عن ذلك كثير من المؤرخين بدهشة وإعجاب.

وكان جدار المئذنة المطل على صحن الجامع وبيت الصلاة مزداناً بثلاثة

صفوف من النوافذ المزدوجة. بينما كان في الجدران الأخرى صفان فقط من هذه النوافذ.

في عام ١٥٨٩ م أصيبت قرطبة بزلزال عنيف أحدث أضراراً بالغة في المئذنة فظهرت الشقوق في أعلاها وفي جسمها. ولكن المهندس القرطبي «هرنان دوشيت» أنقذها من الانهيار، وذلك بإحاطة الجدران الخارجية بغلاف من الحجارة قصد تقوية القاعدة لكي تتمكن من تحمل جسم المئذنة العلوي.

وفي العصر الحديث تمكن المهندس «دون فيليث هرنانذيث» المتخصص بجامع قرطبة أن يكشف عن الجدار الإسلامي للصومعة كما تمكن أن يهتدي إلى نوافذها وزخارف تلك النوافذ. ويبلغ ارتفاع المئذنة اليوم بعد تصدعها ٢٦م. أما التفاحات فلا أثر لها.

وفي ليلة القدر كانت الشموع توقد في أعلى المئذنة ويصف ذلك إبراهيم ابن صاحب الصلاة فيقول: «والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود، وعرضت عليها عرض الجنود. ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد، ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد، وقد قوبل فيها مبيض بمحمر، وعورض مخضر بمصفر، تضحك ببكائها، وتبكي بضحكتها وتهلك بحياتها، وتحيا بهلكها».

* * *

لم يكتف عبد الرحمن الناصر ببناء الصومعة، بل كانت المرحلة الخامسة من تطوير المسجد على يديه. فقد قام بترميم جدار واجهة بيت الصلاة المطلة على صحن الجامع. وتقوية للجدار بنى واجهة جديدة ملتصقة بالقديمة.

ومن جهة ثانية قام بإصلاح باب الوزراء «باب سان إستيبان» وبنى أمامه ظلة تعتمد على مساند ملفوفة. ولا يزال هذا الباب يحمل نقشاً نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله،

أطال الله بقاه، ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه تعظيماً لشعائر الله ومحافظة على حرم بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة علي يدي مولاه ووزيره وصاحب مبانيه «عبد الله بن بدر» «عمل سعيد بن أيوب».

***

أما المرحلة السادسة في عمر المسجد العظيم فكانت أيام الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر. (٣٥٠ - ٣٦٥ هـ .، ٩٦١- ٩٧٦ م).

ومرة أخرى رأى الخليفة أن المسجد قد ضاق بمصليه، وأن عليه توسيعه. فأمر حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلي بتهيئة ما يلزم لذلك. وتم إعداد المهندسين والفنيين، وإحضار المواد اللازمة.

وقد كان التوسيع من جهة الجنوب، وذلك بمد جميع البلاطات على عمق اثني عشر عقداً.

والأمر الجديد في توسعة الحكم المستنصر بالله هو إدخال نظام القباب لأول مرة في بناء المسجد، ويبدو أن مهندسي الجامع قد تأثروا بنظام المساجد التونسية في جامعي الزيتونة والقيروان.

وهكذا ارتفعت قبة كبيرة مخرمة على مدخل البلاط الأوسط من زيادة الحكم. كما أُقيمت قبة أخرى فوق المحراب الجديد. وتم ذلك عام ٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م. وإلى جانب القبة الأخيرة أقيمت قبتان.

وقد أطلق على القبة الكبرى اسم «قبة الضوء» ويبدو أن الغرض منها كان إدخال الضوء، بينما أطلق على القبة الثانية اسم «قبة المحراب».

وإضافة إلى ذلك تم رفع سقف البلاط الأوسط عن بقية البلاطات

ونلاحظ فيما بعد كيف تأثرت مساجد الموحدين في الاندلس والمغرب بهذا اللون من فن العمارة.

وفي العام نفسه تم تنزيل الفسيفساء المذهبة بجدران الجامع. أما في العام الذي تلاه وهو ٣٥٥ هـ ـ ٩٦٦ م. فقد تم نصب مقصورة من الخشب منقوشة في باطنها وظاهرها امتدت على خمس بلاطات. وفي عام ٣٥٦ هـ ـ ٩٦٧ م أجري الماء إلى سقايات الجامع. وأقام منبراً له تسع درجات. وقد صنع من أكارم الأخشاب وفيه ٣٦ الف وصلة خشبية.

***

الميزات الفنية لتوسعة الحكم:

تعتبر الإضافات التي أحدثها مهندسو الحكم في جامع قرطبة انعطافاً كبيراً بفن العمارة، وإبداعاً لم يسبقوا إليه من قبل. ويمكننا تتبع ذلك في النقاط التالية:

ا ـ القباب:

وقد بنيت لأول مرة في عهد الحكم المستنصر، وتعتمد على هيكل من الضلوع المتقاطعة فيما بينها مما ينشأ عنه أشكال نجمية في وسطها تقوم قبة مفصصة وبين الضلوع تصل زخارف جميلة. ومن الأعلى سقفت بالقرميد.

ويتفق غالبية المؤرخين على أن قباب جامع قرطبة هي الاولى من نوعها بهذه الدقة الفنية. وهي فن مشرقي بحت لم يتأثر بالعمارة الرومانية. والقباب المشابهة أو المماثلة إنما ظهرت بعد ذلك، مثل قباب جامع أصفهان الكبير في القرن الحادي عشر الميلادي ـ الخامس الهجري.

وقبة الضوء الكبرى تمتاز بتعدد نوافذها، فهي ذات ست عشرة نافذة، أربع في كل جانب من جوانب القاعدة.

ومن قرطبة انتقل هذا الشكل أول ما انتقل إلى طليطلة، ونلاحظه في مسجد باب مردوم فيها. ومن هذا المسجد في طليطلة انتقل فن القباب القائمة على تقاطع الضلوع إلى الكنائس النصرانية في طليطلة وغيرها.

وفي سرقسطة قامت قبة جامع قصر الجعفرية على مبدأ تقاطع الضلوع ومن هذه القباب انطلق التأثير المعماري ليغزو العمارة الأسبانية والفرنسية، حيث نلاحظ كنائس قشتالة ونافار في اسبانيا. ودير موساك، واورلون وسان بليز في فرنسا.

ب ـ العقود المفصّصة والمتشابكة:

وقد شاعت هذه العقود على يد مهندسي الحكم في زيادته على الجامع. وكان من شأن هذه العقود المتشابكة أن تضفي جواً من الجمال والمهابة. وأن تتحمل القباب التي ارتكزت عليها بحيث ضمن توزيع الضغط على سائر الأركان بعد أن ارتبطت أجزاء العقود فيما بينها.

ج ـ المحراب:

كان أكبر جهد بذله مهندسو الحكم في محراب الجامع، فهو أجمل ما في الجامع وهو الذي يحدد اتجاه القبلة. وأقيمت فوقه قبة المحراب وإلى جانبها القبتان الأخريان. وعلى واجهته سبع عقود ثلاثية الفصوص مزججة دقيقة التكوين، مزينة بالفسيفساء المذهبة على أرض الزجاج اللازوردي. وعلى رأس المحراب خصة من الرخام مشبوكة محفورة منمقة تشبه القوقعة المقلوبة وفي واجهته لوحتان جانبيتان من الرخام على شكل أزار للمحراب، نقشت عليهما توريقات وتشجيرات غاية في الجمال والروعة والدقة.

د ـ الساباط:

وهو ممر مسقوف أو رواق. قد بني في عهد الحكم بعرض أربعة أمتار

ونصف على طول جدار القبلة. ويتألف من طابقين الأرضي الذي يقطعه تجويف المحراب. والأعلى الذي يمتد على طول الجدار. وهو يتألف من خمس غرف متصلة يفصل بينها ثمانية أبواب. وفي الطابق الأعلى تعلوها قبوات نصف اسطوانية. وكان الساباط يصل بين المسجد وقصر الخلافة المجاور.

وعلى مدخل الساباط نقشت العبارة التالية:

(الملك لله على الهدى، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء، أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله بعمل هذا المشرع إلى مصلاه، فتم بعون الله بنظر محمد ابن تمليخ وأحمد بن نصر وخالد بن هاشم ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب، الحمد لله).

* * *

وتأتي المرحلة السابعة والأخيرة أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر وكان سبب توسيع المسجد هو نفسه دائماً: زيادة عدد سكان قرطبة، فقد استقدم المنصور قبائل البربر ليتخذها جنوداً في جيوشه لقتال نصارى الشمال. وكان لا بد من توسيع المسجد لاستيعاب القفزة السكانية للمدينة.

بدأ العمل في توسيع المسجد عام ٣٧٧ هـ - ٩٨٧ م. وانتهى عام ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م ولم يتم التوسع جنوباً كما جرت العادة لأن المسجد كان قد اقترب من النهر، ولم يتم غرباً لأن قصر الخلافة كان من هذه الجهة، وهكذا تم التوسع شرقاً بإضافة ثماني بلاطات جديدة على طوله كله من جهة الشرق.

ولكي يتم له ذلك نزع ملكية الدور والعقارات المجاورة وعوض أهلها مالاً وعقارات وقد شارك المنصور في البناء بنفسه، كما استخدم فيه أسرى النصارى. واستخدم في البناء تراباً جلبه من مناطق قشتالة في الشمال حيث النفوذ الأسباني، وحينما فتح مدينة «شنت ياقب» وهي حالياً «سانتياغو» في

أقصى الشمال الغربي هدم كنائسها وذوب نحاس الأجراس واتخذ منه مادة لصنع ثريات المسجد وتصفيح أبوابه في قرطبة.

وقد انتقم الأسبان بعد ذلك حينما استولوا على قرطبة فأجبروا الأسرى المسلمين على إعادة بناء كنائس «شنت ياقب» وحمل أجراس كنائسها على ظهورهم.

بلغت بلاطات المسجد في شكلها النهائي في عهد المنصور تسعة عشر بلاطاً. ورغم اتساع المسجد فإنه فقد تناسقه. لأن المحراب الذي كان يتوسطه في عهد الحكم أصبح الآن متطرفاً. ورغم إتقان البناء ووثوقه أيام المنصور إلا أنه لم يكن بالدقة والروعة التي بلغها أيام الحكم المستنصر بالله.

وفي الجدار الشرقي الجديد لبيت الصلاة فتح المنصور ثمانية أبواب، مع المحافظة على بقايا الأعمدة والأبواب في زيادة الحكم. فأصبح بذلك لبيت الصلاة ستة عشر باباً نصفها في الجهة الشرقية، ونصفها في الجهة الغربية. إلى جانب ثلاثة أبواب في الشمال تدلف إلى صحن الجامع. وبابين جانبيين من الصحن إلى بيت الصلاة. وكل الأبواب ملبسة بالنحاس الأصفر ومزخرفة أجمل زخرفة، كل باب بصورة مختلفة. ولكل باب حلقة غاية في الدقة والجمال.

* * *

مضى أكثر من قرنين.. ومر عصر ملوك الطوائف ثم المرابطين فالموحدين.. ولم تطرأ على المسجد أية زيادة، اللهم إلا بعض الترميم والتجديد في عصر الموحدين.

وبقي المسجد خلال ذلك محجّاً يسعى إليه المسلمون من الأندلس وإفريقيا يدخلونه خاشعين متأملين جماله وروعته وعظمته.

في يوم ١٥ صفر ٦٠٩ هـ - ١٧ تموز «يوليو» ١٢١٢ م جرت معركة

العقاب الفاصلة في التاريخ الأندلسي والإسلامي والتي انهزم فيها جيش المسلمين شر هزيمة (سنعود إليها في محطة أندلسية قادمة). وأعقب هذه الهزيمة تساقط المدن ـ الأندلسية بأيدي الأسبان وإخراج المسلمين منها أو إبادتهم.

وبعد أقل من ربع قرن تمكن فرناندو الثالث من الاستيلاء على قرطبة سنة ٦٣٤ هـ ـ ١٢٣٦ م. وكان أول ما فعله هو دخول المسجد العظيم مع الأسقف «دي أوسما» وتحويله إلى كنيسة سميت باسم «كاتدرائية سانتا ماريا» الكبرى.

حقاً إن الأسبان كانوا متعقلين أمام الجامع الكبير فلم يهدموه كما فعلوا بغيره ـ ولكنهم بدأوا يغيرون ملامحه شيئاً فشيئاً بإضافة الزخارف المناسبة لطقوسهم.

في عام ٧٦١ هـ ـ ١٣٧١ م. عمد ملك قشتاله «دون أنريكي» إلى إقامة المصلى المعروف باسم «مصلى سان فرناندو» بجوار قبة الضوء التي بناها الحكم. وغطيت جدران هذا المصلى بزخارف محفورة في الجص مقتبسة من قصور أشبيلية وغرناطة. وأقيمت عليه قبوة مقتبسة من جامع القصبة بأشبيلية الذي تهدم منذ زمن بعيد.

واستمر الحال كذلك أكثر من مائة سنة. حتى إذا كان عام ٨٩٥ هـ ـ ١٤٨٩ م. قام الأسقف «أنيبجو مانريكي» بهدم عقود البلاطات الخمسة مع أعمدتها، الممتدة من الجدار الغربي حتى مصلى «فيلا فسيوسيا» وبنى جدارين طوليين يغطيهما سقف خشبي. وكان هذا أول تشويه كبير يصيب المسجد..

أما التشويه الخطير فهو الذي حدث سنة ١٥٢٣ بعد أن خرج آخر العرب والمسلمين من الأندلس. وهو الذي تمثل في هدم جزء كبير من زيادة عبد الرحمن الثاني والحاجب المنصور بقصد إقامة كنيسة قوطية الطراز في قلب الجامع.

وقد عارض المجلس البلدي وأعيان قرطبة بشدة هذا العمل حرصاً منهم على جمال الأثر المعماري الفريد في العالم.

وتمسك الأسقف «دون الونسو مانريكي» بموقفه الداعي إلى الهدم وعرض الأمر على الأمبراطور شارلكان الذي وافق على الهدم من غير أن يرى الجامع.

ولكن شارلكان حينما زار قرطبة بعد عام واحد سنة ١٥٢٤ ورأى الجامع العظيم ندم على سماحه بالهدم وقال عبارته المشهورة مخاطباً الأسقف وأهالي قرطبة:

«لو كنت قد علمت ما وصل إليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم لأن ما بينتموه موجود في كل مكان، وما هدمتموه فريد في العالم».

ودار الزمن بالمسجد أكثر من أربعة قرون حتى أقبل العصر الحديث، وبدأت أسبانيا تفتح ذراعيها لاستقبال السائحين من أنحاء العالم. ووجدت أن الآثار الإسلامية أعظم مورد سياحي يعتمد عليه لاجتذاب الزوار.

وهكذا فمنذ عدة سنوات اتخذ الجامع ـ الكنيسة ـ شكل متحف يتم الدخول إليه بعد دفع رسم الزيارة. وبدأت عملية نزع بعض الإضافات النصرانية عن الجدران والسقوف والقباب. وعادت إلى الوجود العبارات الإسلامية تشرق بماء الذهب على الجدران. وبرز من جديد محراب الحكم المستنصر بالله آية في الذوق والجمال.

ولا زال في صحن المسجد بركة ماء وبجانبها شجرات النارنج.. ولا زال الزائر يدلف إلى المسجد ـ الكنيسة ـ المتحف فيستشعر رهبة وخشوعاً ـ ويرى بعينيه زمناً يمتد في الماضي أكثر من ألف ومائتي سنة.

أهم المساجد الأموية في الأندلس

تحدثنا في محطة أندلسية سابقة عن المسجد الجامع في قرطبة، الذي لا يزال حتى اليوم يقف شامخاً ببنائه المهيب الجميل وأعمدته الرخامية الساحرة ومئذنته الباذخة. وهذا المسجد العظيم يعتبر من أهم الآثار التي بناها المسلمون ليس في الأندلس فحسب، وإنما على مستوى الحضارة الإسلامية في عمرها الذي يربو على أربعة عشر قرنا.

* * *

وقد اهتم الأمراء الأمويون بالمدن الأندلسية الأخرى. ولم يقصروا عنايتهم على قرطبة. وفيما يلي عرض موجز لأهم المساجد التي بنيت في الفترة الأموية في الأندلس وهذه الفترة مقسومة إلى قسمين:

أ ـ الإمارة الأموية في قرطبة ١٣٨ ـ ٣٠٠ هـ ـ ٧٥٦ ـ ٩١٢ م

ب ـ الخلافة الأموية في قرطبة ٣٠٠ ـ ٤٢٢هـ ـ ٩١٢ ـ ١٠٣١م

فالفترة الأموية تمتد ثلاثة قرون إلا قليلاً بقسميها: الإمارة والخلافة.

أولاً ـ المسجد الجامع بتطيلة:

تقع مدينة تطيلة في أقصى الشمال من الأندلس، إلى الشمال الغربي من مدينة سرقسطة. وهي قريبة من جبال البرانس الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا وقد فتحها المسلمون خلال الموجة الأولى التي أعقبت دخول موسى وطارق بجيوشهما عام ٩٢ هـ. ودعيت هذه المنطقة منذ البداية باسم «الثغر الأعلى».

بني المسجد الجامع في تطيلة في عهد الأمير الأموي محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط الذي حكم بين سنتي ٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ ـ ٨٥٢ ـ ٨٨٦م. والذي أقام بناء المسجد هو والي تطيلة والثغر الأعلى في تلك الفترة «موسى بن موسى» والذي كان يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي الجزئي.

في عام ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م. سقطت مدينة طليطلة بيد النصارى بعد أن حاصرها الفونسو السادس ملك قشتالة. وكان سقوطها أكبر ضربة توجه للوجود الإسلامي في الأندلس منذ الفتح. وتقع طليطلة وسط أسبانيا مما يجعلها ذات قيمة استراتيجية ومعنوية وسياسية. وكان سقوطها إيذانا ببدء سقوط بقية المدن الواحدة تلو الأخرى، ولكن الذي أخر ذلك هو انتصار المسلمين الكاسح في معركة «الزلاقة» عام ٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٦ م بقيادة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين.

لم تقاوم مدينة تطيلة الضغط النصراني أكثر من ثلاثين سنة بعد سقوط طليطلة فقد سقطت بدورها بيد النصارى الأسبان بقيادة «روترن» كونت مدينة البرش عام ٥٠٨ هـ ١١١٤ م.

وقد سقطت المدينة بعد حصارها، ودخلها روترن بعد أن عقد مع أهلها صلحاً يتركهم بموجبه أحراراً لمدة سنة يمارسون خلالها أعمالهم وعبادتهم، ثم يختارون بين الرحيل وبين القبول بالشروط النصرانية. وخلال تلك السنة بقي المسجد الجامع كما كان في عهد المسلمين حسب نصوص اتفاقية الصلح.

وبعد انقضاء السنة دخل روترن المسجد الكبير مع عدد من الأساقفة وأقاموا احتفالاً خاصاً كبيراً جرى تحويل المسجد الجامع إلى كنيسة أطلق عليها اسم «سانتا ماريا العظمى».

وبعد أقل من نصف قرن جرى تبديل جذري في بنيان الجامع فأقيمت على أنقاضه كاتدرائية كبرى وأزيلت معالم المسجد الكبير.

* * *

خلال موجة الاهتمام بدراسة الآثار الإسلامية في أسبانيا، تم اكتشاف بقايا عناصر معمارية تتعلق بمسجد تطيلة الكبير. وعلى الرغم من قلة تلك العناصر المكتشفة. إلا أنها تلقي كثيراً من الضوء على الفن المعماري الإسلامي في منطقة الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي.

لقد تم العثور على عدة مساند ذات لفائف وعقود مزدوجة على شكل حدوة الفرس وعلى تيجان مزودة بتوريقات غاية في الدقة والجمال الأخاذ.

كما تم العثور على لوحة حجرية بها زخارف هندسية تعتمد على خطوط معقوفة تتفق والأسلوب الكلاسيكي. ويبدو أن هذه اللوحة كانت عضادة لأحد الأبواب.

وقد عثر كذلك على شرفات مسننة من المرمر مزخرفة مزينة بتوريقات نباتية محفورة بدقة بالغة.

وعلى الرغم من الشبه الكبير بين تلك الآثار وبين الفن المعماري لمسجد قرطبة الجامع، إلا أن تلك الزخارف الدقيقة الرائعة في مسجد تطيلة تفوق مثيلاتها في مسجد قرطبة. ويبدو التأثير واضحاً بالفن المعماري الإسلامي من جهة، والفن البيزنطي من جهة ثانية.

ثانياً ـ جامع باب مردوم بطليطلة:

كانت طليطلة عاصمة القوط الذين احتلوا أسبانيا وأسسوا حكمهم فيها قبل الفتح الإسلامي بعدة قرون. وكان آخر حكام القوط «لذريق» الذي انهزم أمام جيش طارق بن زياد في معركة وادي «لكه» التاريخية عام ٩٢ هـ.

ومنذ العام الأول للفتح دخل المسلمون طليطلة وأضحت ولاية من ولايات الأندلس، بينما غدت قرطبة عاصمة الحكم الإسلامي في تلك البلاد.

والمسجد الذي نتحدث عنه لم يكن المسجد الكبير الأساسي في مدينة طليطلة الهامة (تقع طليطلة إلى الجنوب من مدريد). بل إن قيمته تاريخية معمارية أكثر من قيمته كمسجد جامع في المدينة.

وقد أطلقت عليه تلك التسمية نظراً لوقوعه بجانب باب في أسوار المدينة يدعى «باب مردوم».

ولا تزال على واجهة البناء لوحة حجرية تحمل نقشاً عليه هذا النص:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله، فتم بعون الله على يد موسى بن علي البناء. وسعادة. فتم في المحرم سنة ٣٩٠ هـ».

وتاريخ البناء يعود إلى عهد الخليفة الأموي هشام الثاني بن الحكم الثاني الذي كان الحكم الحقيقي في خلافته للحاجب المنصور بن أبي عامر وأولاده من بعده وقد توفي المنصور عام ٣٩٢ هـ. بينما استمرت خلافة هشام حتى ٣٩٩هـ.

حينما استولى الفونسو السادس على طليطلة عام ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م قام فوراً بتحويل مساجدها إلى كنائس، وأطلق على جامع باب مردوم اسم كنيسة «سانتا كروث» وقد قام الفونسو بمنح هذا المسجد لإحدى الجمعيات الدينية التي وسعته من ناحية الشمال بإضافة مبنى منحني الشكل مختلف الطراز عن جسم المسجد الأساسي. ويطلق اليوم على هذا الجامع اسم «كنيسة الكريستو دي لا لوث».

يقوم بناء المسجد على شكل مربع طول ضلعه ثمانية أمتار، يتوسطه اسطوان. وتعلوه قبة من حولها ثمانية أساطين مقببة. وتتجه جدران المسجد بشكل المربع صوب الجنوب الشرقي حيث يقوم المحراب في الجدار الجنوبي الشرقي منه.

يتألف بيت الصلاة في المسجد من تسعة اساطين تقسمها أربعة أعمدة تعلوها تيجان قوطية قديمة الطراز، وفوق الأعمدة إثنا عشر عقداً متجاوزة تتوزع على الشكل التالي:

أ ـ ثلاثة عقود في الشمال الشرقي للمسجد تفضي إلى البهو.

ب ـ ثلاثة عقود في الجنوب الغربي، وتطل على الواجهة الأساسية للمسجد وعليها النقش المذكور.

جـ ـ ستة عقود تعلو العقود السابقة يتناوب فيها اللونان الأبيض والأحمر بحسب قوالب الحجر الأبيض والآجر الأحمر.

أما نظام التقبيب فيلاحظ فيه التأثير الواضح بجامع قرطبة الكبير وهو يعتمد على تقاطع الضلوع المتجاوزة في أشكال مختلفة، منها ما يمثل شكلاً رباعياً منحرفاً ذا أقطار ومنها ما يبدو على شكل مثمن، ومنها ما يقلد تقاطع القبة المخرمة في جامع قرطبة.

ويظهر في قباب جامع طليطلة الميل نحو الزخرفة الهندسية أكثر مما يلاحظ في قباب جامع قرطبة، وهذا الولع بالزخارف الهندسية سوف يبلغ ذروته في قصور الحمراء بغرناطة.

ثالثاً ـ المسجد الجامع بالمرية:

تقع مدينة المرية على الشاطىء الجنوبي للأندلس ، وهي ميناء هام على البحر المتوسط (انظر الخارطة في آخر الكتاب).

وقد كانت المرية منذ بدء الفتح الإسلامي إحدى المدن الهامة في الاندلس ومركز اشعاع أدبي مرموق .

وبعد سقوط الخلافة الاموية في قرطبة عام ٤٢٢ هـ ـ ١٠٣١ م تقسم

الاندلس كما هو معلوم ، إلى دويلات هزيلة تجاوزت العشرين دويلة كل منها في مدينة وبعض القرى . وكان نصيب المرية أن يحكمها بنو صمادح لفترة تقترب من نصف قرن حتى دخلها المرابطون بعد ذلك حينما ضموا الاندلس إلى دولتهم في المغرب .

وفي الفترة التي احتدم فيها الصراع بين المرابطين والموحدين استغل النصارى الفرصة وانقضوا على المدن الاندلسية احتلالاً وتدميراً . واستطاع الفونسو السابع ملك قشتالة الذي تلقبه المصادر العربية باسم (السليطين) أن يستولي على مدينة المرية وذلك يوم ٢٠ جمادي الأول ٥٤٢ هـ بعد حصار بري وبحري شاركت به قوات صليبية قادمة من ايطاليا وفرنسا ، ودام الحصار ثلاثة شهور تمكن بعدها النصارى من دخول المدينة فقاموا بقتل جميع الرجال وسبي النساء والأطفال وأرسلوهم إلى أسواق النخاسة في اوربا ودمروا الميناء وأحرقوا سفن المسلمين فيه .

كان احتلال النصارى لمدينة المرية تحدياً كبيراً لدولة الموحدين الفتية ، ونكسة معنوية للمسلمين ، لأن المدينة تقع في أقصى الجنوب وفي عقر دار الوجود الإسلامي في الأندلس . لذلك حاول الموحدون استعادة المدينة عام ٥٤٦ هـ أي بعد أربع سنوات من احتلالها ، فلم يستطيعوا ذلك ، إلا أنهم تمكنوا من دخول الميناء وإحراق السفن النصرانية الراسية فيه .

بعد ثلاث سنوات تلقى والي غرناطة أمراً محدداً من الخليفة الموحدي عبد المؤمن بضرورة استعادة المرية فوراً ومهما كلف الثمن . وأقبلت جيوش المسلمين لحصار المدينة ولكن الفونسو السابع هب لمساعدتها ، ومن المؤسف جداً أن جيش الفونسو كان يضم قوة من المسلمين الخونة المتعاونين مع العدو الصليبي بقيادة محمد بن مردنيش ولكن الفونسو وحلفاءه انهزموا هزيمة منكرة ودخل الموحدون مدينة المرية عام ٥٥٢ بعد عشر سنوات من احتلالها من قبل النصارى .

وبعد انحسار الوجود الإسلامي في الاندلس أثر هزيمة المسلمين في معركة «العقاب» أصبحت المرية جزءاً من مملكة غرناطة حتى سقطت أخيراً بأيدي النصارى .

* * *

نعود إلى مسجد المرية الجامع الذي بدىء ببنائه في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر . والحكم هذا هو المجدد الأكبر لمسجد قرطبة العظيم وكان المسجد في بداية الأمر يتألف من خمس بلاطات ومحراب ، وهو مربع الشكل تعلوه قبة مفصصة ما تزال قائمة حتى يومنا هذا . وكان هذا البناء في أواخر القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي .

وفي عهد الحاجب المنصور أضاف والي المدينة «خيران العامري» بلاطين جديدين جانبيين ، وقام بزخرفة المحراب بالعقود المدببة الصماء في أقسامه الوسطى مقلداً بذلك محراب جامع قرطبة .

أما المساند فيلاحظ أن الزخارف فيها قد تطورت قليلاً عن زخارف الحكم والمنصور في مسجد قرطبة وتأثرت بعض الشيء بالفن الهندسي والزخرفي لقصر الجعفرية بسرقسطة .

وقد أخذ الجامع شكله النهائي في عهد المعتصم بن صمادح صاحب المرية أيام حكم ملوك الطوائف ٤٤٣ هـ . ولكن احتلال النصارى للمدينة ألحق بالمسجد أضراراً بالغة فأعاد الموحدون إصلاحه وترميمه وزخرفته بأشكال نرى ما يماثلها في الأبنية الموحدية في مراكش وغيرها . وكان في آخر شكل له مستطيل البناء بطول ٦٠ ـ ٧٠ متراً وعرض ٤٥ متراً وكان فيه مئات الثريات للإنارة ، ويقوم على خدمته خمسون رجلاً .

ومن المفيد جداً أن الرحالة الألماني منتزر كان قد زار المرية عام ٩٠٠ هـ ـ ١٤٩٤ م . أي بعد خروج المسلمين بعامين فقط وشاهد جامع المرية العظيم

فتحدث عنه بإعجاب وإسهاب . وذكر أن صحن الجامع كان مزروعاً بأشجار النارنج والليمون والبرتقال ، على غرار جامع قرطبة ، وأن أرضية الصحن مفروشة بالرخام الثمين وتتوسطها نافورة ماء للوضوء .

* * *

رابعاً ـ المسجد الأموي بأشبيلية:

تعتبر اشبيلية ثانية المدن الإسلامية من حيث الأهمية بعد قرطبة ، وقد كانت عاصمة بني عباد أشهر ملوك الطوائف ، ثم أصبحت العاصمة الاندلسية لدولة الموحدين . وأخيراً سقطت بيد فرناندو الثالث عام ٦٤٦ هـ ـ ١٢٤٨ م .

وفي خلافة عبد الرحمن الاوسط ، تولى القاضي عمر بن عديس بناء المسجد الجامع في اشبيلية بعد أن أمره عبد الرحمن بذلك .

وكان بيت الصلاة في ذلك المسجد يشتمل على إحدى عشرة بلاطة . تتجه عمودياً على جدار القبلة ، وكان البلاط الاوسط المقابل للمحراب أكثر ارتفاعاً . وهو في ذلك يشبه المسجد الجامع في قرطبة . وكان طول المسجد ٥٠ متراً وعرضه أقل من ذلك بقليل وفي صحنه كثير من الأشجار إلى درجة أنه كان يعرف بصحن البرتقال . ولا يزال هذا الاسم عالقاً بمنطقة الجامع حتى اليوم . وفي وسط الصحن حوض من الرخام فيه نافورة ماء .

أصيب المسجد ببعض التهدم نتيجة زلزال عام ٤٧٢ هـ ـ ١٠٧٩ م وقام المعتمد بن عباد بترميمه بسرعة بالغة . ونقش ذلك على لوحة من الحجر تم الكشف عنها في العصر الحديث في أسفل الجدار الجنوبي للمئذنة .

* * *

حينما بنى المنصور الموحدي جامع اشبيلية الكبير ، تحول الاهتمام عن الجامع الأموي فيها وبدأ يتضاءل بسبب الاهمال ، إلى أن أمر الخليفة بإصلاحه

وترميمه وتقوية بنـائه وأحضر لذلـك العمال المهـرة والمهندسـين البارعـين وتم العمل في جمادي الأول عالم ٥٩٢ هـ ـ ١١٩٥م .

وحينما سقطت أشبيلية بيد النصارى بعد هذا التاريخ بحوالي نصف قرن تحول المسجد إلى كنيسة سميت «كنيسة سـان سلفادور» وفي عـام ١٣٥٦ ضرب المدينة زلزال عنيف أدى إلى تهدم الجـزء العلوي من المئذنـة . تلك المئذنـة التي تضم درجاً حلزونياً بعرض ٨٠ سم وهي اسطوانية الشكل .

وفي عـام ١٦٧١م . هدم الاسبـان المسجد وبنـوا مكانـه كنيسة حـديثة ، ولكن برج الكنيسة احتفظ بقاعدة المئذنة الإسـلامية عـلى ارتفاع ٩,٥٠ مـتر . واستكمل بناء قاعدة النواقيس فوق القاعدة الإسلامية التي تـرجع إلى عهـد عبد الرحمن الأوسط .

القصور الأموية في الأندلس

يمتد عصر الولاة من بداية الفتح حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية الأموي وتأسيسه دولته الفتية في الاندلس .

وقد امتد هذا العصر قرابة نصف قرن إلا قليلاً ، كان الصراع خلاله على أشده والفوضى ضاربة أطنابها، لذلك لم يكن منتظراً أن تعرف البلاد نمواً فنياً وعمرانياً ولا ازدهاراً اقتصادياً .

***

انتهى عصر الولاة ، وقد انتهت قبله دولة بني أمية في الشرق عام ١٣٢ هـ واستطاع الشاب الأموي المغامر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، أن يهرب من ملاحقة الجند العباسي، ويجتاز المسافات الشاسعة من شاطىء الفرات شرقاً إلى بحر الزقاق غرباً، ويعبر الزقاق من المغرب إلى الأندلس في نفر قليل جداً من أصحابه فيعيد بناء دولة الأمويين في الأندلس، ويتخطى مصاعب كانت أكبر من القصور البشري، فيذلل الصعاب الداخلية ويقضي على النزاعات القبلية، وينتصر على جيش عباسي أرسله المنصور لمحاربته، ثم ينتصر على جيوش شارلكان الذي عبر جبال البرانس من فرنسا إلى اسبانيا.

***

حينما استقرت الأوضاع الداخلية لعبد الرحمن سياسياً واقتصادياً ، التفت إلى البناء والعمران فأمر ببناء جامع قرطبة العظيم الذي لا يزال حتى اليوم

شاهداً حيًا على روعة الفن الإسلامي الاندلسي ، ذلك الفن الذي غدا مدرسة قائمة بذاتها ألقت بظلالها الفنية الاخاذة على فن العمارة في اسبانيا واوربا فيما بعد .

وإلى جانب المسجد الجامع الكبير ، شرع عبد الرحمن ببناء قصر الإمارة بجانب المسجد الذي كان بمثابة دار الحكومة . وقد درج الامراء بعده على اتخاذ دار الإمارة بجانب المسجد الجامع في كل المدن .

وإلى جانب قصر الإمارة بنى عبد الرحمن الداخل قصراً للراحة والاستجمام شمال قرطبة سماه «منية الرصافة» تيمناً بقصر جده هشام على الفرات والذي كان يعرف بقصر الرصافة وكان أثيراً لدى هشام .

وفي منية الرصافة ، غرس عبد الرحمن أولى النخلات في أرض اسبانيا ليذكره منظر تلك النخلات بمرابع طفولته وصباه . وقد ناجى إحدى هذه النخلات مرة بأبياته المعروفة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهي في التغرب والنوى ... وطول ابتعادي عن بني وعن اهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي

ولا زالت بقايا قليلة من قصر منية الرصافة ماثلة حتى اليوم قرب قرطبة .

ومن قصور قرطبة الأموية التي حفظ لنا التاريخ اسمها ولم يحفظ آثارها : قصر الدمشق الذي يذكر المؤرخون أنه شيد بالصفاح والعمد وأبدع بناؤه ونمقت ساحاته وفناؤه ، وكان على غرار القصور الاموية في المشرق .

***

وفي عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م تولى عبد الرحمن الثالث إمارة قرطبة ، وقد

تلقب بألقاب الخلافة وسمى نفسه أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وأمر أن يخطب له على المنابر بهذا الاسم . وقد كان عهده الذي امتد خمسين سنة ذروة المجد الاندلسي سياسياً وعسكرياً وعمرانياً . وكان مولعاً بالبناء والعمارة إلى حد بعيد ، وهو القائل في هذا المجال :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم	ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم قدره	أضحى يدل على عظيم الشان

وكانت إحدى زوجات عبد الرحمن تدعى «الزهراء» وكانت محببة إلى نفسه . فأمر ببناء مدينة جديدة للخلافة بجانب قرطبة أطلق عليها اسم «الزهراء» إكراماً لزهرائه .

يطل على قرطبة من جهة الغرب جبل يدعى «جبل العروس» تنحدر سفوحه حتى مشارف المدينة ، وقد اختار الخليفة عبد الرحمن الناصر مكاناً على بعد ثمانية كيلومترات من المدينة لبناء مدينته الجديدة «الزهراء» .

استمر العمل في قصور الزهراء ومبانيها وحصونها حوالى أربعين سنة ، أكثرها في خلافة الناصر ، وبعضها في خلافة ابنه الحكم المستنصر بالله .

وللأسف البالغ فإن هذه المدينة الرائعة الأخاذة لم يقدر لها أن تعيش أطول من الفترة التي استغرقها بناؤها ، فقد هاجمها البربر يوم الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ٤٠١ هـ وهدموا كل شيء فيها عن آخره ونهبوا خزائنها وتحفها وذبحوا حاميتها . وتلك قصة طويلة تستحق العودة إليها في محطة أندلسية قادمة .

***

بعد عشرين سنة من تولي عبد الرحمن الإمارة ، أطلق على نفسه ألقاب

الخلافة وإمارة المؤمنين ، وبعد ذلك بخمس سنوات أي سنة ٣٢٥ هـ ـ ٩٣٦ م أمر الخليفة أن يشرع البناؤون بأعمالهم لتشييد الزهراء .

إن القارىء المتتبع لكتب التاريخ العربي وهي تصف مدينة الزهـراء يظن في الأمـر كثيراً من المبـالغات والميـل للروايات الاسـطورية ، ولكن الحفـريـات الحديثة أثبتت بشكل جازم صحة الروايات التي تقترب من حدود الأساطير .

يكفي أن نعلم أن الناصر وابنه المستنصر من بعده استمرا ينفقان على بناء هذه القصور ثلث ميزانية الـدولة مـدة أربعين سنـة ، علماً بأن الـدولة الأمـوية الاندلسية كانت آنذاك في أوج عظمتها وازدهارها .

ويمكننا أن نذكر بعض الأرقام التي أوردها المؤرخون ، كمثال على ما بذل من جهود جبارة في بناء تلك المدينة :

ـ كان يعمل في البناء يومياً عشرة آلاف عامل من العمال المهرة الحاذقين .
ـ كان هؤلاء ينجزون ستة آلاف صخرة منحوتة ومزخرفة يومياً .
ـ استخدم في النقل ثلاثة آلاف دابة .
ـ في المدينة خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد أو النحاس .
ـ كان عدد الخدم في القصر ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين رجلاً .
ـ كان عدد نساء القصر ووصيفاتهم ستة آلاف وأربعمائة وثلاث عشرة امرأة .
ـ أقيمت في الزهراء أربعة آلاف سارية .

* * *

ومن عجائب القصور التي ترويها كتب التـاريخ كـذلك (وبخـاصة نفـح الطيب للمقري) :

ـ بهو الخليفة في قصور الزهراء الذي شيدت جدرانه بالـرخام وطليت مـع سقفه بالذهب والزخارف الآسرة . وأقيمت في البهو فوارة فيها تمثال نادر وبـأعلاهـا

درة بـراقة وأقيم في وسط البهـو حوض مملوء بالزئبق إلى جـانب كـل ضلع من أضلاعه ثمـانية أبـواب من العاج المـرصع بـالجواهـر . وحينما تـدخل أشعـة الشمس من هذه الأبواب وتنعكس على الزئبق الرجراج تملأ أركان البهو بريقاً يأخذ العيون والألبـاب.

ـ مجلس الذهب القائم على سطح مشرف على الروضة .
ـ القبة الرائعة المعتمدة على أركان محاطة بالرخام المسنون والذهب .
ـ مجموعة كبرى من البرك والحياض كل منها بشكل مختلف وزخارف متميزة .
ـ الأثاث الخاص الذي صنع لتلك القصـور بشكل لم يسبق لـه مثيل من سجـاد وستائر وأرائك باذخة .
ـ الزجاج الملون المزخرف ، والخزف البراق المستخدم في الزخرفة .

* * *

استقبل عبد الرحمن الناصر في قصور الزهراء بعض الوفود الأجنبيـة التي جاءت للتهنئة أو عقد المعاهدات ، ومن هذه الوفود ملكـة «تافـار» الأسبانيـة ، التي أذهلها ما ترى ولم تصدق عيناها ما تقعان عليه .

كما استقبل رسل امبراطور القسطنطينية . ومن المفيد أن نورد هنا الرواية التاريخية لهذا الاستقبال :

«. . . . وبه جلس ليحيي رسل ملك الروم الذين بعثهم إلى حضـرته ، وقعـد للقائهم يـوم السبت لإحدى عشـرة ليلة خلت من ربيع الاول ٣٣٨ هـ ـ ٩٤٩ م . في بهو المجلس الزاهر مقعداً حسناً نبيلاً . وكـان قد أمـر كبار رجـال الدولة وقواد الجيش أن يعدوا لهذه المقابلة خير إعـداد وأفخمه ، وكان البهـو في أكمل زينة ، والعرض في وسطه يلمـع ذهبه، وتتـلألأ نفائس جـواهره ، ووقف إلى يساره أبناؤه ، فـالوزراء عـلى مراتبهم يميناً وشمالاً ، ثم الحجـاب من أهل الخدمة ، وأبناء الوزراء والموالي ورجال خاصة القصر وغيرهم.

ولقد فرش صحن الدار بعتاق البسط وكرام الدرانك (مفردها درنوك، وهو بساط ثمين). وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع السنور، فوصل رسل ملك الروم حائرين من بهجة المكان وفخامة السلطان، ثم تقدموا خطوات وقدموا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى: قسطنطين بن ليون، وهو في ورق سماوي اللون، كتب بالذهب بالخط الإغريقي.

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مقدره وعظيم سلطانه، ويصفوا ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكم، ابنه وولي عهده، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء وقام خطيب وأخذ يحاول التكلم، فهاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظه، وغشي عليه وسقط إلى الأرض، ثم قام آخر فحمد الله وأثنى عليه ثم انقطع به القول فوقف ساكتاً مبهوتاً».

***

يستنتج من البحوث الأثرية التي قام بها العلماء والمهندسون في العصر الحديث بعض الملامح المعمارية لتلك القصور، ويمكن إيجاز تلك الملامح في نوعين من البناء:

أولاً ـ نوع الدار القائمة على ساحة صحن مركزي تتوزع حوله غرف الدار كلها.

ثانياً ـ القصر المعتمد على بلاطات متوازية تفصلها أعمدة في أعلاها عقود على غرار المساجد الأندلسية وبخاصة مسجد قرطبة الكبير.

***

بعد وفاة الحكم المستنصر تولى السلطة الحاجب المنصور بن أبي عامر

كـوصي على هشـام بن الحكم، وقام المنصـور ببناء مـدينة «الـزاهـرة» عـلى نهر الـوادي الكبير بجـانب قرطبـة. وحاول المنصـور أن ينـافس بـالـزاهـرة قصـور الزهراء، فأمر بانصراف الناس إلى مدينته وبنى فيها قصراً سماه العامرية، يقال إنه كان على غرار قصـور الزهـراء الجميلة. وقد اكتمـل بناء الـزاهرة في عـامين فقط، ولم تكن فيها الدقة والزخرفة والروعة الموجودة في الزهراء.

حين دب الخلاف والضعف في أوسـاط البيت الأموي الحـاكم في قرطبـة استعـان أحد أفـراد هذا البيت بقـوات من البـربـر جـاء بهم من وراء المضيق، فـدخلوا قرطبـة العظيمـة يوم ٢٣ ربيـع الأول ٤٠١ هـ الموافق ٤ تشـرين الثاني (نوفمبر) ١٠١٠ م وهدموا كل ما صادفوه في طريقهم، وكان فيما دخلوه الزهراء والزاهرة فسووهما بالأرض تماماً وتركوهما قاعاً صفصفاً.

ومنذ ذلك اليـوم لم تعد قـرطبة العـاصمة المتـألقة المجيـدة، ونامت تلك القصور المتهدمة تحت التراب والركام تسعة قرون وأكثر حتى جاء المهنـدسون في العصر الحديث ينبشون في خرائبها.

خلال القرون التسعة الماضية كانت أنقاض الزهراء بمثابـة مقالـع أحجار جاهزة تؤخذ منها الأعمـدة والتيجان وقـطع الرخـام لتستخدم في بنـاء البيوت، وقد استخدمت تلك الأحجار في آلاف البيوت في قرطبة وأشبيلية وسواهمـا، إلى أن جاء المهندس الأثري «فيلاسكيث يوسكو» وقام بالحفريات في مدينة الزهراء وكشف عن أثار أحد القصور الذي ظنه قصر الخلافة، ثم تبين أن ما كشف عنه هو أحد قصور الحكم بدليل الكتابات على أحد تيجان الأعمدة.

وتابع مهندسون آخرون أعمال الحفر وفي طليعتهم «فيليث هرنـانذث» و«دون رافييل كـاستخون». فتمكن هـذا الأخير من الكشف عـلى أحد قصـور الناصر بدليل النقوش على الجدران وذكر اسم الناصر عليها.

وتقوم الحفريات التي ما تزال مستمرة على أساس إعادة البناء والزخارف بالأحجار نفسها والزخارف نفسها.

كما أسفر البحث الأثري عن تحديد موقع جامع الزهراء. ولا شك أن استمرار البحوث سيكشف المزيد يوماً بعد يوم.

زرياب ... في قرطبة

يروي أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني أن الخليفة المأمون خرج إلى الشام ومعه المغني «عَلُّويةُ» ولندع هذا يكمل روايته[1]:

(فدخلنا دمشق فطفنا فيها وجعل يطوف على قصور بني أمية ويتبع آثارهم، فدخل صحناً من صحونهم فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب إليها. وفي البركة سمك، وبين يديها بستان على أربع زواياه أربع سروات كأنها قصت بمقراض من التفافها، أحسن ما رأيت من السرو قط قدًّا وقدراً فاستحسن ذلك وعزم على الصبوح. وقال هاتوا لي الساعة طعاماً خفيفاً. وأقبل عليٌّ وقال «غنني ونشطني» فكأن الله عز وجل أنساني الغناء كله إلا هذا الصوت:

لو كان حولي بنو أمية لم	تنطق رجال أراهم نطقوا
من كل قرم محض ضرائبه	عن منكبيه القميص ينخرق

فنظر إلي مغضباً وقال: عليك وعلى بني أمية لعنة الله، ويلك، أقلت لك سؤني أو سرّني. ألم يكن لك وقت تذكر فيه بني أمية إلا هذا الوقت تعرض بي. فتحيّلت عليه وعلمت أني أخطأت، فقلت: أتلومني على أن أُذكر بني أمية هذا مولاكم زرياب عندهم يركب في مائتي غلام مملوك له، ويملك ثلاثمائة ألف دينار وهبوها له سوى الخيل والضياع والرقيق، وأنا عندكم أموت جوعا».

(١) الأغاني، الأصبهاني ج ١١ ص. ٣٥٦

ها هو زرياب إذاً في قرطبة الأموية وأخباره في بغداد العباسية تملأ الأسماع. وتلاحقه عيون الحاسدين والمعجبين وراء البحار.

زرياب هو علي بن نافع[1]، أبو الحسن، أحد موالي الخليفة العباسي المهدي. وقد تضاربت الآراء حول ولادته ووفاته. ويروي ليفي بروفنسال أن ولادة زرياب كانت في الجزيرة عام ١٧٢ هـ ـ ٧٨٨ م.

* * *

نشأ زرياب في بغداد إبَّان عصرها الذهبي. والخليفة فيها هرون الرشيد قمة العصر العباسي قوة ونفوذاً واستقراراً وازدهاراً.

كان الأدب قد بدأ يميل إلى طلاوة المدينة ويتجافى عن وعورة البادية وأسهم شعراء كبشار وأبي فراس وأبي تمام ثم البحتري في عملية التجديد هذه.

ونشطت حركة التأليف الموسيقي والغناء. ولمعت أسماء موسيقيين ومغنين ملأت بغداد وكل حواضر الخلافة. وعلى رأس هؤلاء جميعاً إبراهيم الموصلي الشاعر الأديب المغني الملحن، ثم ابنه إسحق من بعده. وقد عاشا زمن الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم.

وعلى يد إبراهيم وابنه إسحق تتلمذ عشرات الملحنين والمطربين والمطربات، تفرقوا في أنحاء بغداد والعراق وباقي الأمصار الإسلامية. ولكن التلميذ البارع الذي بذّ أستاذه هو زرياب.

أطلق اسم زرياب على أبي الحسن علي بن نافع نظراً لسمرته الشديدة وصوته الجميل، فكلمة زرياب في الأصل إسم لطائر أسود الريش رخيم

(١) الاعلام، الزركلي ج٥ ص. ٢٨

الصوت. وهذا ما تذكره أكثر المصادر. ويذهب بعضها إلى أن كلمة زرياب تعني ماء الذهب، معرباً عن الفارسية «زرآب»[1].

ظهرت أمارات النبوغ الفني على زرياب منذ صغره، وأحس أستاذه إسحق الموصلي بأن تلميذه قد يشكل خطراً عليه في المستقبل، لأن الرشيد استظرف مجلسه ومال إلى صوته وفنه مما أثار عليه حفيظة أُستاذه إسحق.

وقد بلغ الخلاف ذروته حينما اجتمع الأستاذ والتلميذ في مجلس للرشيد. فأنشد إسحق وعزف على عوده. ثم جاء الدور لزرياب فرفض استعمال عود أستاذه إسحق وأصر على استعمال عوده قائلاً إنه يختلف عن عود أُستاذه وإنه مطور. وقد أعجب الرشيد بشخصية زرياب وصوته وعزفه وفنه وأدبه وأظهر ذلك الإعجاب. فطفح الكيل لدى إسحق، وقال لزرياب: (إن بغداد تتسع لواحد منا فقط. فعليك بالرحيل، أو احتمل غضبي الذي قد يبلغ أقصى حدوده). وقدّر زرياب أن لا قبل له بمقارعة إسحق فعزم على الرحيل ويمم وجهه شطر المغرب حيث يتضاءل النفوذ العباسي.

***

كان المغرب الأقصى قد انفصل عن الدولة العباسية بقيام دولة الأدارسة سنة (١٧٣ هـ ٧٨٩ م) على يد إدريس بن عبد الله. ثم ابنه إدريس الثاني الذي بنى مدينة فاس. أما في المغرب الأدنى في تونس فقد اعترفت الخلافة العباسية لدولة الأغالبة بالبقاء وتوارث السلطة على الرغم من تبعية الأغالبة شكلياً لسلطة بغداد وخطبتهم لها. واتخذ الأغالبة من القيروان عاصمة لهم. وبقيت دولتهم حتى قضت عليها الدعوة الفاطمية كما قضت على دولة الادارسة.

---

(١) تاج العروس، الزبيدي ج١ ص. ٢٨٦

(٢) تاريخ الموسيقى العربية، هنري فارمر ص. ٢٠١

توجه زرياب إلى المغرب عام ٢٠٦ هـ، وحل في مدينة القيروان وكان أميرها يومئذ زيادة الله بن إبراهيم الأغلبي وهو أعظم أمراء الأغالبة وقد حكم بين (٢٠١ ـ ٢٢٣) هـ. وفي عهده فتح المسلمون جزيرة صقلية بقيادة أسد بن الفرات[1].

وكانت سمعة زرياب قد سبقته كأديب ومغن فاستقبل استقبالاً طيباً في القيروان وشهد مجالس الأمير. وفي أحد هذه المجالس أنشد زرياب أبياتاً لعنترة العبسي يقول فيها:

فإن تك أمي غرابية ... من أبناء حام بها عبتني
فإني لطيف ببيض الظبا ... وسمر العوالي إذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى ... لقدتك في الحرب أو قدتني

فغضب زيادة الله أشد الغضب وأمر أن يصفع قفا زرياب. وقال له:
إن وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك[2].

* * *

وعلى مبدأ «رب ضارة نافعة» كانت هذه الحادثة فاتحة خير لزرياب. فقد عبر المضيق إلى الأندلس في العام نفسه ٢٠٦هـ ونزل في الجزيرة الخضراء حيث كان رسل الأمير الأندلسي عبد الرحمن الأوسط ينتظرونه واستقبلوه أحسن استقبال.

كان عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل قد ولي الحكم بعد وفاة أبيه الحكم. وترى بعض المصادر أن زرياب قد وفد على الأندلس بدعوة من الحكم بن هشام[3]. ولكن الحكم توفي قبل وصول زرياب. فجدد عبد الرحمن الأوسط الدعوة لزرياب وكان عندئذ في القيروان عند الأغالبة.

---

(١) تاريخ المغرب الكبير، السيد عبد العزيز سالم ج٢ ص. ٣٨٠
(٢) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ج ٧ ص. ٣١
(٣) الأدب الأندلسي ، أحمد هيكل ص ١٢٠

وما يتفق عليه الرواة هو أن عبد الرحمن أمير الأندلس الأموي خرج بنفسه إلى ظاهر قرطبة لاستقبال زرياب وأظهر له من التكريم وحفاوة اللقاء ما أدهشه وأدخل بالغ السرور على نفسه(1).

عرف زرياب في قرطبة ما نسميه اليوم بالتفرغ الأدبي أو الفني، فقد أجرى له الأمير مرتباً شهرياً مغرياً، ومنحه اقطاعات ودوراً قدرت بأربعين ألفاً أو قدّر دخلها بذلك(2).

كانت قرطبة في ذلك العصر تمشي بخطوات واثقة نحو الازدهار الاقتصادي والنضوج الحضاري والثقافي والفني، وكانت تستعد في ذلك لمنافسة بغداد التي بلغت أوجها في عصر الرشيد وابنه المأمون.

ويرى ابن خلدون أن الاستقرار والازدهار الاقتصادي لا بد أن يليهما مظاهر الفرح والترف. وهو يقول حرفياً في مقدمته المشهورة: (فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطما منها بأشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بإفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها. وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها. وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلاّ وظيفة الفراغ والفرح، وهي أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه، والله أعلم) (3).

وهكذا تخلص زرياب من عملية الجري وراء الرزق واكتساب القوت اليومي، فقد جاءه ذلك سيلا غدقاً، مما جعله ينقطع لفنه وأدبه وموسيقاه فيبدع في ذلك أي إبداع.

---

(1) تاريخ العبر إبن، ابن خلدون ج ٧ ص. ٢٧٧
(2) نفح الطيب، المقري ج٤ ص. ١٢٠
(3) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص. ٧٦٦

دخل زرياب الأندلس ومعه أولاده الأربعة، وفي الأندلس رزق بأربعة آخرين منهم ابنتان هما حمدونة وعلية. يضاف إليهم تلميذته «مصابيح» وجاريته «متعة» وقد أصبح هؤلاء العشرة نواة العمل الفني والموسيقي لزرياب في الأندلس[1].

كان يتربع على سدة الغناء في قرطبة قبل مجيء زرياب مغنيان مشهوران هما علّون وزرقون. وكانا مقربين من الحكم بن هشام، إلى جانب مغن يهودي الأصل يدعى منصور. ولكن وصول زرياب طغى على هؤلاء جميعاً وأخمل ذكرهم تماماً، وأصبح زرياب مالىء الدنيا وشاغل الناس.

لم يكن زرياب موسيقياً فحسب، بل كان على غرار نوابغ عصره عالماً موسوعياً، يتقن دراسة الفلك والجغرافية «وكانت تسمى قسمة الأقاليم السبعة». كما كان يجيد الأدب والشعر، وكان حلو المعشر، نديماً من الطراز الأول، ظريف المجلس، عذب الحديث، غزير الثقافة، ويقول عنه المقري في النفح «لم يقم لا قبله ولا بعده رجل من صناعته أحب منه وأعجب».

ونظراً لتشعب التأثير الذي أحدثه زرياب في المجتمع الأندلسي فإننا سنتوقف عند كل جزء من ذلك التأثير بشيء من الإيجاز.

أولاً: طور زرياب آلة العود من ثلاث نواح:

أ ـ طور صناعة الجسم الخشبي للعود إلى شكل قريب من شكله الحالي.

ب ـ أضاف وتراً خامساً إلى العود الذي كان قبله من أربعة أوتار فقط. فساعد ذلك على استيعاب عدد أكبر من الأصوات.

جـ ـ استعمل الريشة المأخوذة من قوادم النسر للعزف على الأوتار بدلاً من الأداة الخشبية المستعملة سابقاً.

---

(١) نفح الطيب، المقري ج ٤ ص. ١٢٧.

ثانياً ـ في مجال دراسة الموسيقى:

قام زرياب بعمل جبار هو افتتاح معهد موسيقي في قرطبة يدّرس فيه التلحين والغناء والعزف.

ولم يكن لهذا المعهد من مثيل إلا معهد بغداد الذي أنشأه إسحق الموصلي أستاذ زرياب ومعاصره. وقد سبق معهد قرطبة معاهد أوربا المماثلة بعدة مئات من السنين. وإن المنهج الذي اتبعه زرياب في معهده يشبه إلى حد بعيد مناهج معاهد «الكونسرفاتوار» المعاصرة.

كان منهج زرياب يعتمد على ثلاث مراحل: **الأولى** هي الإيقاع والعروض وكلمات الصوت يعلمها للتلميذ بمراسلة آلة موسيقية. **والثانية** ضبط اللحن بأبسط أشكاله. **والثالثة** إتقان الزائدة الموسيقية.

ويصف المقري أسلوب زرياب في تعليم المبتدئين فيقول:

«كان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه، يأمره بالقعود على الوساد المدور المعروف «بالمسورة» وأن يشد صوته جداً إذا كان قوي الصوت، فإذا كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فإن ذلك مما يقوي الصوت، ولا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم، فإن كان ألصّ* الأضراس لا يقدر أن يفتح فاه، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاثة أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه. وكان إذا أراد أن يختبر مطبوع الصوت المراد تعليمه، من غير المطبوع، أمره أن يصيح بأعلى صوته (يا حجّام) أو يصيح (آه) ويمد بها صوته. فإن سمع صوته بهما صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتريه غنة ولا جبة ولا ضيق نفس عرف أنه سوف ينجُب وأشار بتعليمه، وإن وجده خلاف ذلك أبعده»[1].

(*) ألص الاضراس: متقاربها.

(١) نفح الطيب، المقري ج٢ ص. ٨٨ ـ ٨٩

وقد رافق القفزة الموسيقية التي قام بها زرياب استقدام عـدد من المغنيات من المدينة مثل «قلم، وفضل، وعلم» وأنشئت لهن دار ملحقة بالقصر في قرطبة دعيت «دار المدنيات» ويبدو أن زرياب قـد أعطى من وقتـه وخبرتـه لهذه الـدار وغنائها[1].

يروى أن زرياب قد ترك أكثر من عشرة آلاف لحن، وقـد يكون في ذلـك بعض المبالغة إلا أنه يدل على النشاط الواسع الذي قام به في هذا المجال. وكان كغيره من مغني عصره يزعم بأن الألحان تأتيه من مطارحة الجن له بُعيد منتصف الليل فيستدعي مغنيتيه المحبوبتين «غزالة وهندة» ويأمرهما بحفظ ما يحضـره من الحان. ويبدو أن حالة الإشراق والصحوة الذهنية كانت لا تأتيه إلا ليلاً.

ترك زرياب بعده مئات التلاميذ في مجال الأدب والشعر والغنـاء والألحان والعزف، وكان أولاده وجواريه الأساتذة المباشرين من بعده لمئات التلاميذ.

ثـالثاً ـ إلى جـانب النشـاط الأدبي والموسيقي أحـدث زريـاب ثـورة في المجتمـع الأندلسي بـالتقاليـد التي أدخلهـا فيـه. وإلى جـانب افتتـاحـه المعهـد الموسيقي فقد افتتح زرياب ما يمكن أن نسميه «معهد التجميل» في قرطبة. وقد كان يعلم فيه أصول الملابس ومناسبة الأزياء للفصول، فمـلابس الربيـع ملونة من الخزّ والدراريع وملابس الخريف مثلها إلا أنها مبـطنة أمّـا الصيف فملابسـه بيضـاء خفيفة، والشتـاء ملابسـه ثقيلة داكنـة. وفي حـال اشتـداد البـرد يلبس الفراء. كما حدد زرياب مواعيد معينة لتبديل أزياء الملابس.

ومن جانب آخر علم الناس كيفية تصفيف الشعر وفرقه من وسط الرأس وعقصه من الخلف بشكل يظهر معـه الجبين والأصـداغ. وكان هـو نفسه مثـالاً لـلأناقـة ونظافـة الملبس وتجديـده، وقد قلده النـاس على أوسـع نطاق وأصبـح

(١) الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة ص. ٨٧

مضرب مثل في الأندلس. وهذا مثال دور الأزياء في عالمنا المعاصر.

ومما أدخله زرياب في تقاليد المجتمع الأندلسي نظام الأطعمة الجديدة وطريقة استعمال التوابل وترتيب الموائد، وقد نصح باستعمال آنية الزجاج بدلاً من الذهب والفضة ولقيت نصيحته أذناً صاغية.

ويمكن أن نقول بحق ودقة إن زرياب كان المثل الأعلى للسلوك الاجتماعي في قرطبة والأندلس عموماً في عصره. وقد شاع ذكره وامتد تأثيره خارج حدود الأندلس.

لقد أحدث وصول زرياب إلى قرطبة انعطافاً كبيراً في حياتها الاجتماعية والثقافية والفنية ، وترك بصماته بوضوح على كل نواحي الحياة، ويبدو أن المجتمع الأندلسي في عصر عبد الرحمن الأوسط كان على استعداد لتقبل هذه الألوان من الترف نتيجة استقرار وازدهار الوضع الاقتصادي وميل الناس إلى مظاهر الحبور والمتعة والفن.

كانت وفاة زرياب في قرطبة في عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة (٢٤٣ هـ ٨٥٧م) كما يروي ليفي بروفنسال. وتذكر مصادر أخرى أن وفاته كانت سنة ٢٤٠ هـ في أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط أو مطلع حكم ابنه محمد.

لقد تجاوزت آثار زرياب الأندلس الإسلامي إلى أوربا النصرانية. وفي محطات أندلسية قادمة سوف نتحدث عن ذلك.

شاعرات الأندلس

الجزء الأول: (عصر الإمارات والخلافة)

«سئل بشار بن برد يوماً عن النساء الشواعر فقال: لم تقل امرأة شعراً إلاّ تبين الضعف فيه فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ فأجاب: تلك فوق الرجال»[1].

وفي الواقع فإن بشارًا متعصب في قوله هذا ضد المرأة رغم روائع الغزل التي قالها فيها. وبصورة عامة فإن رواة الشعر العربي الأقدمين لم يعيروا شعر المرأة الالتفات الذي يستحقه. ومن غير المعقول ألا يكون في الشعر العربي امرأة سوى الخنساء يعجب بشعرها بشار.

وإذا نحن ألقينا رحالنا في محطة الأندلس. وسرنا مع التقسيم التاريخي المألوف عصر الولاة.. عصر الإمارة.. عصر الخلافة.. الخ فإننا نجد أن عصر الولاة الذي عمر حوالي ٤٥ سنة لم يترك لنا أثراً أدبياً متميزاً، ولم تظهر فيه بالتالي شاعرة ولو على نطاق محدود.

وتبدأ انطلاقة الأدب النسوي ـ إذا جازت لنا التسمية ـ مع فترة إمارة الأمويين وخلافتهم فيما بعد.

الملاحظة الأولى التي تطالعنا في الأدب الأندلسي هي وفرة عدد الشاعرات قياساً على الشعر العربي في المشرق. ويمكننا تلمس أسباب ذلك في عاملين اثنين هما:

---

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، عبدالله عفيفي ج١ ص ٥٥.

أ ـ بيئة الأندلس الطبيعية بما فيها من سحر وجمال وخصوبة ومناخ معتدل.

ب ـ الجو الاجتماعي الذي بدأ يختلف ويتباعد عن جو المشرق شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت له خصوصيته. وتمتعت المرأة خلال ذلك بمقدار من الانطلاقة الاجتماعية أتاحت لها فرصة مجاراة الرجال في القول وفي مجالات الحياة ـ. وسيرة وَلّادة بنت المستكفي تنهض دليلاً واضحاً على ذلك[1].

ولم يقتصر نشاط المرأة الأندلسية على الشعر، بل إن النساء برعن في ميادين العلوم المختلفة، فكان منهن الطبيبات أمثال أخت الحفيدين زهر وابنتها، وكان منهن المدرسات أمثال مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري والشاعرة العروضية[2].

والملاحظة الثانية الجديرة بالاهتمام هي أن الحركة الأدبية والشعرية قامت على أكتاف الحرائر من النساء بينما اتجهت الأماء إلى الغناء والموسيقى وقطعن في ذلك أشواطاً واسعة. وليس معنى ذلك أن العكس لم يحصل على مدار التاريخ الأندلسي.

***

يمتد عصر الإمارة من عام ١٣٨ هـ حتى ٣١٦ هـ. وهو العام الذي أعلن فيه عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة في قرطبة. وبدأ بذلك الشق الثاني من العهد الأموي وهو فترة الخلافة التي امتدت حتى ٤٢٢هـ.

في فترة عصر الإمارة تحدثنا كتب التاريخ والأدب عن ثلاث شواعر، هن: الجارية العجفاء، وحسانة التميمية، وقمر البغدادية[3].

---

(١) الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة ص. ١١٨

(٢) الشعر النسوي في الأندلس، محمد المنتصر الريسوني ص. ٤١

(٣) نفح الطيب، المقري ج٣ ص ١٤٠

الجارية العجفاء:

وافدة من المشرق، لا يعرف لها اسم حقيقي، جارية رجل مغمور يدعى مسلم بن يحيى، وهو بدوره مولى لبني زهرة. كانت العجفاء، تقول الشعر وتغنيه وتعزف العود. ويظهر من الصفة التي أطلقت عليها أنها كانت نحيلة هزيلة دميمة الوجه، ولكنها كانت ساحرة البيان والصوت والعزف. وكسائر القيان كانت تقول الشعر الوجداني الغنائي في مجال الغزل والشكوى.

من شعرها قولها:

برح الخفاء، فأ يما بك تكتم	ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمن من عزيز قلبه	يا قلب إنك بالحسان لمغرم
يا ليت إنك يا حسام بأرضنا	تلقي المراسي طائعاً وتخيم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه	ونكون إخواناً، فماذا تنقم

ويروي المقري في نفح الطيب أن الأرقمي وأبا السائب شهدا مجلس شعر وغناء في دار سيدها جعلهما يفقدان صوابهما إعجاباً بشعرها وغنائها. وقد سمع بها عبد الرحمن الداخل، فأرسل واشتراها من سيدها[1].

ومما أنشدته أمام الأرقمي وأبي السائب قولها:

يا طول ليلي أعالج السقما	أدخل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً	فاليوم أمسى فراقكم عزما

حسانة التيمية:

تستحق هذه الشاعرة لقب أول شاعرة ظهرت في أرض الاندلس، على

---

(١) نفح الطيب، المقري ج٤ ص. ١٣٨.

الرغم من أسبقية العجفاء عليها . فحسانة كانت من الحرائر وليست من القيان ، وهي مولودة في الاندلس وليست وافدة ، كانت ولادتها في مدينة البيرة . ويروى أنها عاشت مائة سنة بين ١٥٤ و ٢٥٤ هـ[١] .

ولا تسهب الروايات في حياة حسّانة ، وتذكر أن والدها كان يقول الشعر ، وكان يدعى أبا الحسين أحد مادحي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن .

نلمس في شعر حسانة عزة النفس وإباء المرأة العربية وتماسكها ، فحسّانة لم تنغمس في حياة الترف الأندلسية شأن من لحقها من الشواعر . وموضوعات شعرها لا تختلف عن شعر المشرق .

ومن أجود شعر حسانة ما تناقلته الكتب من قصيدة لها في مديح الحكم ابن هشام تستعطفه وتشكو إليه فقد أبيها ومرارة العيش بعده . وهي قصيدة محكمة النسج تشبه روائع الشعر المشرقي . وقد لمّحت فيها حسانة إلى بعض قصائد المديح المشهورة القديمة التي قالها شعراء العصر الاموي في عبد الملك وأبنائه ، وهم أجداد الحكم أمير قرطبة في عصرها .

تقول حسانة تخاطب الحكم[٢] :

إني اليك أبا العاصي موجّعة ... أبا الحسين ، سقته الواكفَ الديمُ
قد كنت أرتع في نعماه عاكفة ... فاليوم آوي إلى نعماك يا حكم
أنت الإمام الذي انقاد الأنام له ... وملّكته مقاليد النهى الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفا ... آوي إليه ولا يعروني العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتدياً ... حتى تذل إليك العرب والعجم

إن هذه الأبيات تعود بنا إلى صدر الإسلام وإلى العصر الاموي في دمشق ، تعود بنا إلى الحطيئة يخاطب الخليفة عمر بن الخطاب :

---

(١) الشعر النسوي الاندلسي الريسوني ص ٥٠ .
(٢) نفح الطيب،المقري ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر

كما تعود بنا إلى قول جرير يمدح سليمان بن عبد الملك :

أنت الخليفة للرحمن يعرفه أهل الزبور وفي التوارة مكتوب

أو تعود بنا إلى جرير نفسه يمدح عبد الملك :

أنت الأمين أمين الله لا سرف فيما وليت ولا هيابة درع

وقد صاغت حسّانة قصيدتها على البحر نفسه وضمنتها معاني الحطيئة وجرير كأنها تذكر الحكم بعظمة أجداده في دمشق .

وقد استجاب الحكم لشكواها وأمر والي البيرة أن يرد إليها أموالها ويكرمها ويجرى لها مرتباً .

ثم يموت الأمير، فينكث عامل البيرة جابر بن لبيد بوعده ويحتجز أملاكها ويوقف مرتبها. فلا تستسلم الشاعرة بل تمضي إلى الأمير الجديد عبد الرحمن بن الحكم المعروف بعبد الرحمن الأوسط. ويؤذن لها فتنشد أمام الأمير رائيتها المشهورة التي هي نموذج فني رائع للمديح والشكوى والاستعطاف وجزالة الشعر العربي. أنشدت حسّانة[1] :

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي على شحطٍ تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعي إنه خير جابر ويمنعني من ذي الظلامة جابر
فإني وأيتامي بقبضة كفه كذي ريش اضحى في مخالب كاسر
جدير بذكري أن يقال مروعة لموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاه الحيا ، لو كان حيًّا لما اعتدى عليّ زمان باطش بطش قادر
ليمحو الذي خطته يمناه جابر لقد سام بالأملاك إحدى الكبائر

(١) نفح الطيب المقري ج ٢ ص ٤٣٨ .

وكما فعل الحكم ، فعل عبد الرحمن الأوسط ، استجاب لبراعة حسانة التي حركت فيه نخوته وذكرته بوالده ووعده إياها ، وأطلعته على رقعة بخط والده تنكر لها جابر . كما كانت في إشارتها إلى جابر وحملتها عليه إلى جانب إشارتها إلى عبد الرحمن كجابر لعثارها براعة ما بعدها براعة . لقد استشاط عبد الرحمن غضباً ولم يكتف بتوجيه لوم وتعنيف إلى جابر بل أمر بعزله فوراً من ولاية البيرة، وبرد أموالها وأملاكها إليها.

إن هذه الأبيات كسابقتها لا تخرج عن الاطار المشرقي التقليدي وليس فيها ملامح الادب الاندلسي الذي سنعرفه فيما بعد . وإن صورة أيتامها الضعاف في البيت الثالث تذكرنا بصورة الحطيئة يشكو إلى الخليفة عمر ما يلاقيه أطفاله في بعده عنهم :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم ... بين الاباطح تغشاهم بها القرر

أما حسّانة فتقول :

فإني وأيتامي بقبضة كفه ... كذي ريش اضحى في مخالب كاسر

وحينما عادت حسانة إلى بيتها وأملاكها وتخلصت من ظلم جابر ، لم تنسَ أن ترسل ثناءها لعبد الرحمن في صورة أبيات تقول فيها :

إبن الهشامين خير الناس مأثرة ... وخير منتجع يوما لرواد
إن هزّ يوم الوغى أثناء صعدته ... روى أنابيبها من صرف فرصاد*
قل للإمام أيا خير الورى نسباً ... مقابلاً بين آباءٍ وأجداد
جودت طبعي ولم ترض الظلامة لي ... فهاك فضل ثناءٍ رائح غاد
فإن أقمت ففي نعماك عاطفة ... وإن رحلت فقد زودتني زادي

* * *

* المقصود بالفرصاد: الدم

قمر البغدادية:

وافدة على الاندلس كالعجفاء ، إلا أنها ليست عجفاء ، كانت جميلة الوجه ظريفة الحديث ، رقيقة ، ذكية ، حافظة للشعر والأدب ، تقول الشعر على سجيتها . وقد جلبت من بغداد لإبراهيم بن الحجاج[1] المتوفى عام ٢٨٨ هـ . وقد كان إبراهيم هذا مستقلاً بأشبيلية في عهد إمارة عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط . وقد عاصرت قمر ابن عبد ربه الشاعر والأديب الاندلسي المشهور وصاحب «العقد الفريد» .

تقول قمر تمدح مولاها إبراهيم بن الحجاج[2] :

ما في المغارب من كريم يرتجى	إلا حليف الجود إبراهيم
إني حللت لديه منزل نعمة	كل المنازل ما عداه ذميم

وفي اشبيلية ، ورغم مباهج الحياة ، تتذكر قمر بغداد وإقامتها فيها فترة الطفولة والحداثة ، والحنين إلى مرابع الصبا شعور إنساني عميق نبيل في نفس كل إنسان ، ولطالما عبر عنه الشعراء بصدق وشفافية . وها هي قمر تحن إلى العراق وبغداد فتنشد :

آهاً على بغدادها وعراقها	وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه	تبدو أهلّتها على أطواقها
متبخرات في النعيم كأنما	خلق الهوى العذري من أخلاقها
نفسي الفداء لها فأي محاسن	في الدهر تشرق من سنا إشراقها

* * *

(١) أعمال الاعلام ابن الخطيب ص ٣٥ .

(٢) الشعر النسوي في الاندلس الريسوني ص ٥١ .

نأتي الآن إلى شواعر عصر الخلافة الذي هو امتداد واضح لعصر الإمارة في ملامحه لكنه أكثر التصاقاً بالسمات الأندلسية التي بدأت تتضح في الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية .

أدى الاستقرار السياسي والتطور الاقتصادي إلى جو من النضوج العلمي والثقافي ونحن نعلم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر استقدم من المشرق أبا علي القالي لينشر ثقافته في الأندلس ، وأن ابنه الحكم الثاني كان في مكتبته اربعمائة ألف مجلد حتى سماه «لين بون» (دودة كتب) .

أفرزت الحياة الجديدة اتجاهات في الشعر جديدة إلى جانب المحافظة على الاتجاه المحافظ . ولنستعرض معاً أسماء بعض شاعرات تلك المرحلة : مرحلة الخلافة الأموية في قرطبة :

عائشة القرطبية[1]:

من كبار الأسر العربية في قرطبة خلال النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة كانت وفاتها سنة ٤٠٠ هـ ، وقد رفضت بعنف كل من تقدم يطلب يدها وماتت من غير زواج وتقول في ذلك :

أنا لبوة لكنني لا أرتضي	نفسي مناخاً طول دهري من أحد
ولو انني أختار ذلك لم أجب	كلباً وكم أغلقت سمعي عن أسد

كانت عائشة صاحبة علم وفصاحة وعفة ، جريئة أديبة حسنة الخط ترتجل الشعر وتكتبه وتمدح الامراء .

من مدائحها المرتجلة قولها وقد دخلت على المظفر بن الحاجب المنصور وبين يديه أحد أبنائه ، فنظرت إلى الولد وقالت :

---

(١) نفح الطيب ، المقري ج٦ ص ٢٦ .

أراك الله فيه ما تريد ... ولا برحت معاليكم تزيد
فقد دلت مخايله على ما ... تؤمله ، وطالعه السعيد
تشوقت الجياد له وهزّ الحسـام هوى وأشرقت البنود
فسوف تراه بدراً في سماء ... من العليا كواكبه الجنود
وكيف يخيب شبل قد نمته ... إلى العليا ضراغمه أسود
فأنتم آل عامر خير آل ... زكا الابناء منكم والجدود
وليدكم لدى رأي كشيخ ... وشيخكم لدى حرب وليد

ولا شك أن في الأبيات صوراً مبالغاً من المديح شأن أكثر شعر المديح في تاريخ أدبنا العربي ، ولكنها أبيات قوية جميلة وبخاصة أنها مرتجلة .

* * *

حفصة بنت حمدون الحجارية[1]:

دعيت بذلك نسبة إلى مقامها في (وادي الحجارة) قرب مدريد . وهي شاعرة مكثرة عاشت في القرن الرابع للهجرة . وكانت ذات جاه ومكانة في بلدها ، وقد عنيت بالفخر ، وكانت أول أندلسية تقول الغزل ، وهي في غزلها لا تنسى أن تتيه بنفسها كامرأة تقول :

لي حبيب ولا ينثني لعتاب ... وإذا ما تركته زاد تيها
قال لي هل رأيت لي من شبيه ... قلت أيضاً وهل ترى لي شبيها

وتقول تشكو بلادة خدمها :

يا رب إني من عبيدي على ... جمر الغضا ، ما فيهم من نجيب
أما جهول أبله متعب ... أو فطن من كيده لا أخيب

* * *

(١) المغرب في حل المغرب، الحجاري ورفقاه ج٢ ص ٣٧ .

الغسانية البجانية[1]:

هكذا ورد اسمها ، وهي من بجانة قرب المرية ، عاشت بين القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولم يصل من شعرها إلا القليل، وفيه شكوى وغزل ومديح . قالت في مقدمة مديحها للأمير خيران العامري :

أتجزع إن قالوا سترحل أظعان ... وكيف تطيق الصبر ويحك إذ بانوا

فما بعدُ إلا الموت بعد رحيلهم ... وإلا فصبراً مثل صبر وأحزان

عهدتهم والعيش في ظل وصلهم ... أنيق وروض الوصل أخضر فينان

فيا ليت شعري والفراق يكون، هل ... يكونون من بعد الفراق كما كانوا

* * *

مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري[2]:

ولدت في مدينة (شلب) ونشأت وأقامت في أشبيلية ، وكانت تمارس تعليم النساء . من جميل شعرها قولها وقد بلغت السبعين وأخذت تستعين بالعصا في مشيها :

وما يرتجى من بنت سبعين حجة ... وسبع كنسج العنكبوت المهلهل

تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصا ... وتمشي بها مشي الأسير المكبل

وقد حفظت لنا كتب الادب مساجلة بينها وبين الأمير الأموي عبيد الله ابن محمد المهدي ، فقد أرسل لها يوماً بعض المال ومعه رقعة كتب فيها:

ما لي بشكر الذي أوليت من قِبَل ... لو أنني حزت نطق اللسن في الحلل

---

(١) الشعر النسوي ، الريسوني ص ٦٢.

(٢) نفح الطيب ، المقري ج ٦ ص ٢٥ .

يا فذة الظرف في هذا الزمان ويـا وحيدة العصر في الاخلاص في العمل

أشبهت مـريمـا العـــذراء في ورع وفقت خنسـاء في الاشعار والمثـل

فأجابته مريم :

من ذا يجاريك في قـول وفي عمل وقـد بـدرت إلى فضـل ولم تسـل

ما لي بشكر الذي نظمت في عنقي من اللآلي ومـا أوليت من قبـــل

حليتني بحـــلى أصبحـت زاهيـــة بها على كـل أنثى من حلى عُـطُل

لله أخـــلاقـك الغـــر التي سقيت مـاء الفرات فـرقت رقـة الغـزل

أشبهت مروان من غارت بدائعه وأنجدت وغدت من أحسن المثل

من كـان والده العضب المهنـد لم يلد من النسل غير البيض والأسل

* * *

الشاعر الطليق

أمير أموي أندلسي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي[1] .

اسمه الكامل : مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر الخليفة العظيم في قرطبة وأشهر الحكام في تاريخ الاندلس الإسلامي .

يرجّح أنه ولد عام ٣٥٢ هـ - ٩٦٣ م في مدينة قرطبة ، وهي عاصمة الخلافة العظيمة التي كانت في أوج رفعتها تنافس بغداد وتضاهيها .

تقسم حياة الأمير إلى ثلاثة أقسام متساوية ، كل منها ستة عشر عاماً . فقد دخل السجن وهو ابن ستة عشر عاماً ، وأطلق سراحه وهو ابن اثنين وثلاثين وتوفي وعمره ثمانية وأربعون عاماً .

أما دخوله السجن فلذلك قصة طريفة يرويها الضبي ، وخلاصتها أن مروان كان يعشق جارية نشأت معه . ورآها يوماً مع أبيه فثارت غيرته واستل سيفه في حالة غضب وتسرع فقتل أباه ، ونتيجة لذلك قدم للمحاكمة وحكم عليه بالسجن وذلك أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر .

* * *

وإذا كان للسجن من وجه إيجابي في حياة هذا الأمير الشاب فإنه تمثل في إقباله على قول الشعر بغزارة وعاطفة صادقة . وقد تعرف في سجنه على الشاعر

---

(١) بغية الملتمس ، الضبي المجلد ٣ الترجمة ١٣٤٣ .

«الغساني البجاني»[1] . الذي كان قد وفد على الحاجب المنصور في إحدى السفارات فاتهمه الفقهاء بما جعل المنصور يلقيه في السجن حيث التقى هناك الأمير الأموي حفيد الناصر . فأصبحا صديقين ، وأعجب الغساني البجاني بالأمير الشاب الوسيم الشاعر ، ومما قاله في سجنه مع الأمير :

غدوت في الجب خدناً لابن يعقوب ... وكنت أحسب هذا في التكاذيب

راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها ... فكان ذلك إدنائي وتقريبي

رامت عداتي تعذيبي وما شعرت ... أن الذي فعلوه ضد تعذيبي

لم يعلموا أن سجني - لا أبا لهم - ... قد كان غاية مأمولي ومرغوبي

والشاعر في قوله «ابن يعقوب» يشير إلى أن الأمير الاموي بوسامته يشبه وسامة النبي يوسف بن يعقوب ، المضروب بحسنه المثل .

* * *

مكث الأمير في سجنه ستة عشر عاماً قال خلالها كثيراً من الشعر ولكن أكثر هذا الشعر ضاع ولم يصل إلينا . ومن قوله يصف سجنه[2] :

في منزل كالليل اسود فاحم ... داجي النواحي مظلم الاقباح

يسود والزهراء تشرق حوله ... كالحبر أودع في دواة العاج

وهو يصف ما آل إليه حاله في السجن قائلاً :

أصبحت في الدهر كالمعقول مختفياً ... عن العيون وما تخفي مفاهمه

كأنما السحر صدري في تضمنه ... شخصي، وشخصي سري فهو كاتمه

كأنما الدهر يخشى منه لي فرجاً ... فمن قيودي على البلوى تمائمه

وفي السجن يتجلد الشاعر طوراً ويستعطف تارة . وهو يعبر عن صبره وعنفوانه بقوله :

---

(١) الذخيرة ، ابن بسام ج٢ ص ٧٩ .

(٢) التشبيهات ، ابن الكتاني ص ٢٨٨ .

فـلا تشمت الحسان شـدة حالتي فـإني جـواد لا يشـد عنـانـه
وما ألصقت بالأرض خدي إزالة ولكنني كـالـرمـح سن سنـانـه

أما حينما يمر به العيد ويحس وحدته وعزلته فإنه يصف ذلك قائلاً[1] :

لقد هيج الاضحى لنفسي جوى أسى كريه المنايا منه للنفس أروح
كـأن بعيني حلق كـل ذبيحـة به ، وبصدري قلبها حين تـذبح
فيا ليت شعري هل لمولاي عطفة يـداوي بهـا مـني فـؤاد مجـرح

* * *

وكانت قصة إطلاق سراح الشاعر أكثر إثارة من قصة سجنه . وتروى في ذلك حكايتان :

الأولى يرويها المقري نقلاً عن ابن صاحب الصلاة وخـلاصتها أن الـوزير الحاجب المنصور رأى النبي في منامه يأمره بإطلاق سراح مروان ، فـأطلقه[2] . أما الحكاية الثانية فهي أطرف من الأولى ويرويها عبد الواحد المراكشي في كتـابه «المعجب» ومفـادها أن الأمير مروان كتب رسـالة من سجنـه أرسلها للمنصـور يصف سـوء حالـه ويطلب العفـو عنه وأرسلت الـرسـالـة إلى ابن أبي عـامـر . فحملها مع مجموعة رقاع إلى داره . وفيما كـان جالسـاً في حديقـة الدار جـاءت نعامة فجعل المنصور يلقي إليهـا ببعض الرقـاع التي بين يـديه ، فتبتلع بعضهـا وتلقي بعضها ، وحينما ألقى إليها برقعة مروان ـ وهو لم يقرأها ـ أخذتهـا ودارت بها ثم ألقت بها في حجره ، فرماها إليهـا ثانيـة وثالثـة وهي في كل مـرة تعيدهـا إليه ، مما لفت انتباهه فأخذ الرقعة وقرأها ، وأمر فوراً باطلاق سـراحه . ولهـذا يدعى الأمير أحياناً «طليق النعامة» كما يدعى «الشريف الطليق»[3] .

---

(١) الحلة السيراء ، ابن الأبارج ١ ص ٢٢٢ .
(٢) نفح الطيب ، المقري ج٢ ص ١٣٣ .
(٣) المعجب ، المراكشي ص ١٥٣ .

استأنف مروان حياته العادية كواحد من بيت الاسرة الاموية ورزق بأولاد لا يذكر التاريخ منهم أحداً . غير أن واحداً من أحفاده كان شاعراً معاصراً للخليفة الموحدي عبد المؤمن ويدعى «الاصم المرواني» . وقد شارك في لقاء الخليفة الموحدي في جبل طارق حينما عبر بحر الزقاق إلى الاندلس .

وأنشده قصيدة مطولة يعارض فيها بائية أبي تمام في فتح عمورية . ومن قوله فيها :

ما للعدا جُنة أوقى من الهرب	أين المفر وخيل الله في الطلب
وأين يذهب من في رأس شاهقة	إذا رمته سماء الله بالشهب
حدث عن الروم في أرض بأندلس	والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

* * *

يرى ابن حزم أن الأمير الاموي مروان المعروف بالشاعر الشريف الطليق أشهر أهل الاندلس في زمانه . ويقول فيه : «أبو عبد الملك هذا في بني أمية ، كابن المعتز في بني العباس ملاحة شعر ، وحسن تشبيه» وكان ابن حزم معاصراً للطليق وعلى صلة شخصية به ، وقد روى عنه أنه يؤثر النساء الشقراوات .

لم يتناول الطليق في شعره فن المديح ولا فن الهجاء ، وليس من آثاره الشعرية أي ذكر لهذين اللونين من الشعر .

ويغلب على شعره الغزل والوصف ، إلى جانب بعض الفخر والزهد والتشاؤم وهو في غزله ينتمي إلى المدرسة التقليدية التي لامسها التجديد ، وهو يسير على منهج البحتري وابن المعتز العباسي . وتقليده البحتري وتأثره به واضح تماماً .

وإذا كان الشاعر الطليق يمثل النصف الثاني من القرن الرابع الهجري فإنه بلا شك قد تأثر تأثيراً بيناً فيمن جاء بعده من شعراء القرن الخامس كابن

زيدون وابن خفاجة . إنما كان ابن زيدون قد بلغ مرحلة النضج في مدرسة الشعر المقلد المجدد وغدا بحق يستحق لقب بحتري الاندلس .

إن شعر الشاعر الطليق قد ضاع أكثره في غمرة سقوط الدولة الاموية ونهوض ملوك الطوائف . وما بقي من شعره قليل جداً متناثر في كتب التاريخ والأدب . ولذا فإن الحكم على قيمته الفنية أمر مشوب بالحذر لأن ما وصلنا من شعره لا يمثل الشاعر حق التمثيل .

ولنقف الآن عند بعض المختارات من شعره موزعة حسب المعاني التي طرقها الشاعر :

١ ـ الغزل:

وهو الغالب على شعره ، وصوره فيه تشبه صور الشعر المشرقي ، إلا أنه يلح على الشقراوات ومن ذلك قوله :

غصن يهتز في دعص نقا	يجتني منه فؤادي حرقا
أطلع الحسن لنا من وجهه	قمراً ليس يرى ممحّقا
ورنا عن طرف ريم أحور	لحظه سهم لقلبي فوقا
باسم عن عقد در خلته	سلبته لثتاه العنقا
سال لام الصدغ في صفحته	سيلان التبر وافى الورقا
فتناهى الحسن منه إنما	يحسن الغصن إذا ما أورقا

ويروي المقري في نفح الطيب أبياتاً جميلة يمتزج فيها الغزل بوصف الطبيعة ، شأن ما سيفعله الشعراء الاندلسيون اللاحقون للشاعر الطليق ، فالشاعر في أبياته يتكىء على الطبيعة ليصور من خلالها محاسن محبوبته . وهذه الصور سنراها عند ابن زيدون ومن بعده من الشعراء . يقول الشاعر الطليق[١] .

(١) نفح الطيب، المقري ج ٥ ص ١٢٥ .

ودَّعت من أهــوى أصيــلاً ليتني ذقــت الحـمــام ولا أذوق نــواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده والـوُرق تـنـدب شجـوهـا بهـواه
وغــدا النسيم مبلّغـا مــا بيننــا فلذاك رق هـوى وطـاب شــذاه
ما الروض قـد مزجت بـه أنداؤه سحـرًا بـأطيب من شـذا ذكـراه
والـزهـر مبسمـة ونكهتـه الصبـا والــورد أخضله النـدى خــداه
فلذاك أولــع بـالــريــاض لأنها أبــداً تــذكــرني بمــن أهــواه

ومن جميل قوله في عيني محبوبته :[1]

كــأنمــا إنــســان أجــفــانها للخمــر من تحييــرهــا مــدمن
ولــيس إنــســانــاً ولــكــنــه هــاروت في مـقلتـهـا يسـكـن

وفي ثغر محبوبته[2]:

وأحــاول السلوان عن حبي لــه فـيـعــزني مــنــه أغرّ مفلج
كالأقحوان سقاه أري رضابه وجـلاه من صبغ السـواد بنفسج

(الأري : العسل)

ويورد ابن بسام في ذخيرته نصاً للشاعر الطليق يصف به محبوبته[3] :

قمــري الـوجــه أبـدى بضحى وجـهــه خط الغــوالي غـبـشــا
فــأراني مــســبــحــاً في ذهــب من عـذاريـه كـما اصفـر العشــا
وحــوت عـيـنــاه خمــراً لم يــرح صاحياً عن سكره صاحي الحشـا
فـكــأن الـصـبـح في وجـنـتــه قــد سقـاه طـرفــه حتى انتشى
جدّ في قــتــلى حــتى خــلـتــه أنــه فيــه من الــدهــر ارتشــا

---

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار ج١ ص ٢٢٥
(٢) التشبيهات، ابن الكتاني ص ١٣٨
(٣) الذخيرة، ابن بسام قسم ١ مجلدة ص ١٢

رشــأ إمــا مــشـى تحـسـبـه غصنـاً نـيط بهضـب فـانتشى

ثـقّـل الخصـر بـردف راجـح مثلما أثقلت بـالـدلـو الـرشـا

خمشـت ألحاظ عـيـني خـده مـثـلما بـالـلحظ قـلبـي خمشـا

أنت كـالبـدر يـرى الليـل بـه مؤنساً طوراً وطـوراً مـوحشـا

كن كـما شئت فقـد شـاء الهـوى إنـه يـنـفـذ فـيـنـا مـا يـشـا

ويصف الشاعر الطليق انتظاره للحب الذي جفا ولم يعد فيقول[1]:

وتجـافت جفـون عيني سـروراً حـين علمن من جفـاك الجفـاء

وكـأني مما تـنـاءت جفـوني لاحظ ورد وجـنـتيـك اجتنـاء

وكـأن الجفـون تـرقب وعـداً بـالـتلاقي فـلا تـروم التـقـاء

***

٢ ـ الوصف:

غلب عـلى وصف الشاعـر الطليق لـونـان همـا: وصف الخمـرة ووصف الطبيعة، وهو في اللون الأول مشرقي تقليدي يهتم كالعادة باللون الأشقـر، وفي الثاني مجدد إلى حد معقول. إنما ينقصه النضوج والتكامل اللذان سنلاحظهما في قصائد ابن زيـدون وابن خفاجة وابن حمديس في وصف الطبيعـة. فالشـاعر الطليق بادىء ومجرب أما الاخرون اللاحقون فأساتذة مجيدون.

يصف الـطليق ليلة ممطرة، من خـلال قصيدتـه القافيـة. التي هي أشهر قصائده وأوفرها تكاملاً. يقول في وصف تلك الليلة:

وغـمـام هـطل شـؤبـوبـه نـادم الـروض فـغـنى وسـقـى

خـلع الـبـرق عـلى أرجـائـه ثوب وشي مـنـه لمـا أبـرقـا

فـكـأن الأرض مـنـه مـطبـق وكـأن الهـضب جـانٍ أطبـقـا

(١) التشبيهات، ابن الكتاني ص ١٥٨

في ليـالٍ ضـل سـاري نجمهـا ... حـائـر لا يستبـين الـطرقـا
أوقـد الـبـرق لهـا مـصبـاحـه ... فـانثنى جنـح دجـاهـا مشـرقـا
وشـدا الـرعـد حنيناً فجـرت ... أكؤس المـزن عـليـه غـدقـا
وغـدت تحنـو لـه الشمس وقـد ... ألحفتـه مـن سنـاهـا نمـرقـا
فـكـأن الـورد يعـلوه الـنـدى ... وجنـة المحبـوب تنـدى عـرقـا
وكـأن الـقـطـر لمـا جـادهـا ... صـار في الأوراق منهـا زئبـقـا

وفي أبيات قريبة من ذلك المعنى يقول في وصف سحابة[1]:

فكـأن الغـمـام صب عـميـد ... إن بـالـرعـد حـرقـة واشتكـاء
وكـأن الـبـروق نـار جـواه ... والحيـا دمعـه يسيـل بـكـاء

ويصف الشاعر الطليق الليل.. وكأنه بذلك يعود إلى ليل امرىء القيس وليل النابغة، فيتحدث عن ليله الطويل الثقيل على نفسه[2]:

فما بال صبحي قد تقارب خـطوه ... فـأبطأ حتى ليس يـرجى قـدومـه
كـأن نجوم الليـل قيدهـا الدجى ... وأوقفهـا في موضـع لا تريمـه

ولكنه من جانب آخر يصف أمسية سعيدة غنم صفوها مع من يحب فقـال في ذلك[3]:

وعـشي كـأنـه صـبـح عـيـد ... جـامـع بـين بهجة وشحـوب
هـب فيـه الـنسيم مـثـل محب ... مستعيـراً شمـائـل المحبـوب
ظلت فيه ما بين شمسين: هذي ... في طـلوع وهـذه في غـروب
حين وجه السعود بالبشـر طلق ... لـيس فـيـه إمـارة لـلقـطوب
ضيـع الله مـن يضيـع وقتـاً ... قـد خـلا مـن مكـدر ورقـيب

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار ج١ ص ٢٢٤
(٢) نفسه، ج ١ ص ٢٢٥
(٣) نفح الطيب، المقري ج٥ ص ١٢٥

وفي حضن الطبيعة الأندلسية الجميلة يقف الشاعر متأملاً، ويمزج في وصفه محاسن الطبيعة بمحاسن المرأة(١):

وكأن الرياض حسناً حبيبٌ   عاطر سامه المحب لقاء
ضربت سحبه رواقاً عليه   وارتدينا من الغمام رداء
قد تحلى بزهره وتبدى   ماثلاً في غلالة خضراء
فأرتنا الرياض منها نجوماً   وأرانا سنا العقار ذكاء

ويلاحظ في الأبيات الإلحاح على ألفاظ الطبيعة: الرياض، سحب، الغمام، زهر، خضراء... وهذه سمة عامة في أدب الطبيعة الأندلسي.

وفي مجال الوصف نعثر في شعر الطليق على أبيات يصف فيها جيشاً وهو في تلك الأبيات يقف إلى جانب الشعراء العباسيين الذين وصفوا الجيش فكأننا نستمع إلى بشار أو أبي تمام. يقول الشاعر الطليق(٢):

له عسكر كالبحر بالبيض مزبد   وكالغيم عن برق السيوف قد افترّا
إذا ما تبدى فيه كل مدجج   بدا كعباب البحر أبيض مخضرّاً
فإن عصفت ريح الوغى بكماته   رأيت بها وجه الحمام قد اصفرّا

ولا ينسى الشاعر الطليق الأطلال، وهو الذي عاش في القصور الباذخة والطبيعة الساحرة في الأندلس، فتراه يقول(٣):

ربع تربصت النجوم لأهله   ورماهم ريب الزمان فقرطسا
وكأنه مما تقادم عهده   ربع امرىء القيس القديم بعسعسا

(١) التشبيهات، ابن الكتاني ص ٤٨
(٢) نفسه، ص ٢١٤
(٣) الحلة السيراء، ابن الأبار ج ١ ص٢٢٥

وفي المعنى نفسه يقول [1]:

فبقيت في العرصات وحدي بعدهم حيران بين معاهد ما تعهد
فكأنهن ديار ميّ إذ خلت وكأنني غيلان فيها ينشد

وفي معنى قريب يصف الطليق حجراً فيقول:

وصماء ملء الكف من يابس الصفا لها قلب محبوب وكف بخيل
رميت بها قرني فخرّ مصرّعاً كفعلي بماضي الشفرتين صقيل
إذا عدم الناس السلاح فإنني سلاحي موجود بكل سبيل

* * *

٣ ـ التأملات:

قد يكون في إطلاق كلمة التأمل بعض التجاوز بالنسبة لما وردنا من شعر الطليق. ولكن في ثنايا أبياته وقفات تأملية شتى في عدة ميادين يمكننا تتبعها على النحو التالي:

يقول حينما كان في السجن متشائماً زاهداً بالحياة [2]:

ألا إن دهراً هادماً كل ما بني سيبلي كما يبلي ويغني كما يغني
وما الفوز في الدنيا هو الفوز إنما يفوز الفتى بالربح فيها مع الغبن
ولا شك إن الحزن يجري لغاية ولكن نفس المرء سيئة الظن

ويقول في الصبر على تقلبات الدهر [3]:

تفرغ لي دهري فصيرني شغلا وعوضني من خصب روضتي المحلا
يطالب بالثأر النبيل كأنما يرى النبل منه بين أحشائه نبلا

(١) الحلة السيراء، ابن الآبار ج١ ص ٢٢٥
(٢) نفسه، ج١ ص ٢٢١
(٣) التشبيهات، ابن الكتاني ص ٢٦٧

وحينما يدب الشيب إلى رأسه يقول[1]:

وشّت يد الدهر رأسي بالمشيب أسى ... في غيهب بسنا المصباح موشيّ
فدب فيه دبيب النار في فحم ... ينفي دجاه بلون غير منفيّ
كأنه بمشيبي حينما كتّبها ... صحيفة كتبها كف أميّ

* * *

وعلى الرغم من ندرة الفخر في شعر الطليق فإنه لا ينسى أنه أمير أموي ويفخر بذلك في شعره فتراه يقول :

من فتى مثلي لبأس وندى ... ومقال وفعال وتقى
شرفي نفسي وحليي أدبي ... وحسامي مقولي عند اللقا
جدي الناصر للدين الذي ... فرقت كفاه عنه الفرقا
أشرف الأشراف نفساً وأبا ... حين يعلوه وأعلى مرتقى
أنا فخر العبشميين وبي ... جد من فخرهم ما أخلقا
أنا أكسو ما عفا من مجدهم ... بحلى رونق شعري رونقا

وفي قوله العبشميين إشارة إلى مجد أجداده الأمويين من بني عبد شمس.

* * *

ونختم الحديث عن الطليق بأبيات قالها في الوداع، نودع بها هذه المحطة الأندلسية الشعرية:

يا ظاعناً قلبي عليه هودج ... أنّى سلمت وناره تتأجج
سلكت به أيدي المطايا منهجاً ... فيه لطيف الحزن نحوي منهج
فكأنه بدر الدجى يجري على ... فلك الأفول له السباسب أبرُج

(١) التشبيهات ، ابن الكتاني ص ٢٦٩



ولّادة شاعرة قرطبية

مع إطلالة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عرف البيت الأموي الحاكم في قرطبة مولودة جديدة سميت ولّادة.

وأبوها هو محمد المستكفي بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الرحمن الناصر ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان.

فهي سليلة أسرة حاكمة في المغرب والمشرق. وأجدادها خلفاء وأمراء في قرطبة وقبلها في دمشق.

وقرطبة في القرن الخامس كانت زينة الدنيا اتساعاً وترفاً وعمراناً. وقد ربا عدد سكانها على المليون نسمة، ورغم التفكك السياسي فإن قرطبة كانت تشهد ازدهاراً حضارياً وثقافياً وأدبياً لم تعرف له البلاد مثيلاً.

ولي أبوها محمد المستكفي بالله الخلافة سنة ٤١٤ هـ وبقي فيها حوالي ١٧ شهراً كانت شؤماً على الأندلس نظراً لضعف شخصيته وانهماكه في لذاته[1].

وشهدت ولّادة وهي في عنفوان شبابها انهيار دولة بني أمية في قرطبة وقيام حكم بني جهور، واستقلال أكثر المدن الأندلسية تحت اسم ما يعرف بملوك الطوائف.

---

(١) الذخيرة، ابن بسام ١/١ ص ٣٨٣

لكي نرسم صورة لولّادة علينا أن نعـود إلى كتب المؤرخين ونـرى أقوالهم فيها من جهة، وأن نعود إلى شعر ابن زيدون الذي وصفها أدق وصف من جهة ثانية ولا يمكن في الحقيقة أن نفصل الحديث عن ولّادة وابن زيدون، فهما كل لا يتجزأ وشعر ابن زيدون أروعه وأعذبه ما قاله بها.

* * *

يقول ابن بسام في حديثه عن ولّادة [1]:

«وكانت من نساء أهـل زمانها، واحـدة أقرانها: حضـور شاهـد وحـرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر. وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهـل الأدب إلى ضياء غـرتها، ويتهـالك أفـراد الشعراء والكتـاب على حـلاوة عشـرتهـا، إلى سهـولـة حجابها، وكثرة منتابها تخلط ذلك بعُلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثـواب، على أنها ـ سمح الله لها وتغمد زللها ـ أطرحت التحصيـل وأوجدت إلى القـول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها».

وفي نفح الطيب يورد المقري نصـين لابن بشكوال وابن سعيـد يتحدثـان فيهما عن ولّادة. يقول ابن بشكوال[2]:

«كانت أديبة شاعرة جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعـراء وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء، وعمرت طويلاً ولم تتزوج قط».

أما ابن سعيد فيقول[3]: «إنها بالغرب كعلية أُخت الـرشيد في الشـرق، إلّا أن هذه، أي ولّادة ـ تزيد بمزية الحسن الفائق. وأما الأدب والشعر والنادرة وخفـة الروح فلم تكن تقصـر عنها، وكـان لها صنعـة في الغناء، وكـان مجلسها

(١) الذخيرة، ابن بسام ١/١ ص ٣٧٩
(٢) نفح الطيب، المقري ج٥ ص ٣٣٨
(٣) نفسه، ج٥ ص ٣٣٩

يغشاه شعراء قرطبة وظرفاؤها فيمرّ فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها».

وهناك اتفاق بين الرواة والمؤرخين على بيتين من الشعر كتبتهما ولّادة على عاتقي ثوبها تقول فيهما:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

وقد أثار هذا القول كثيراً من الضجيج حولها. ووصفت بالاستهتار ووقف منها المؤرخون مواقف مختلفة بين متهم ومدافع. وترى الكاتبة المعاصرة سلمى الحفار الكزبري أن هذا السلوك ليس إلا نزوة من نزوات الشباب[1]. أما المستشرق نيكل فيشبهها بالأديبة الفرنسية جورج صاند صاحبة الصالون الأدبي المشهور.

كانت ولّادة ممشوقة القد رشيقة سوداء العينين، ذهبية الشعر لها خال أسود في خدها، وفي وصفها يقول ابن زيدون:

- فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لي إن الحوار لمفهوم من الحَوَر
- مفضض الثغر له نقطة من عنبر في خده المُذهب
- يا ألين الناس أعطافاً وأفتنهم لحظاً وأعطر أنفاساً وأردانا
- يا فتيت المسك يا شمس الضحى يا قضيب البان يا ريم الفلا

هناك إشارات عابرة في بعض المصادر القديمة كالمغرب لابن سعيد، وبعض الدراسات الحديثة حول ولّادة كما في كتابات المستشرق الأسباني «غرسيا غومس».

وهذه الإشارات القديمة والتصريحات الحديثة تتحدث عن المثلية الجنسية عند ولّادة وعن الميول السادية لديها. ويتحدث ابن سعيد عن صلتها بالشاعرة

(١) في ظلال الأندلس، سلمى الحفار الكزبري ص ٢٦

القرطبية المعاصرة لها والمدعوة مهجة[1].

بين ابن زيدون وابن عبدوس:

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن زيدون ينتهي نسبه من أبيه إلى مخزوم كما ينتهي نسب أمه إلى قيس عيلان، فهو عربي صريح أباً وأماً. ولد في قرطبة (ضاحية الرصافة) عام ٣٩٤ هـ، وكانت أسرتا أبيه وأمه أسرتي علم وقضاء ومناصب.

وقد قال الشعر منذ حداثته ووصلنا شعره كاملاً غير منقوص. وكان ابن زيدون رجلاً طموحاً ذكياً بليغاً جيد التصوير في شعره. وقد ألهمه حبه ولّادة أروع قصائده بل أروع قصائد الشعر العربي التي تمزج حب الطبيعة بحب المرأة. وإذا كانت ولّادة قد ألهمت ابن زيدون روائع شعره فإن هذا الشعر بدوره حمل الشهرة إلى ولّادة وجعلها شغل الناس حتى يومنا هذا.

يقول المستشرق ليفي بروفنسال: «إن ابن زيدون هو المتغني بالحب الذي لا يبارى وإن حبه لولّادة أوحى إليه قصائد رائعة تمتاز بخلوها من البريق المبالغ به وبتنوع معانيها وجدتها وبعذوبة موسيقاها[2]».

تعرف ابن زيدون إلى ولّادة حينما كان وزيراً لبني جهور في قرطبة فقد دعاه أصدقاؤه لحضور ندوتها الأدبية في قصرها بقرطبة وكانت ولّادة في أوج تألقها شباباً وجمالاً وثقافة وذيوع صيت، وكان ابن زيدون في قمة مجده السياسي والأدبي وعنفوان شبابه لذا كان طبيعياً أن يعجب كل منهما بالآخر، ثم تحول هذا الإعجاب إلى حب جامح أصبح حديث الناس في قرطبة والأندلس. حديث فيه الإعجاب بالمحبوبين وفيه الحسد لهما وفيه الكيد والوشاية.

---

(١) المغرب، ابن سعيد ج١ ص. ١٤٣

(٢) في ظلال الأندلس، سلمى الحفار الكزبري ص ٣٠.

في تلك المرحلة يتبادل الشاعران العاشقان القصائد ويحرصان أن يكون ذلك في غفلة من عيون الناس ولكن التكتم لا يجدي في هذا المجال، وابن زيدون نفسه يقول:

فالصب تفضحه عيونه وتنم عن وجد شؤونه

ويؤكد حرصه على محبوبته من أذى الحساد:

أصونك من لحظات الظنون وأُعليك من خطرات الفكر
وأحذر من لحظات الرقيب وقد يستدام الهوى بالحذر

ويؤكد من جهة ثانية صدق مشاعره نحو ولّادة قائلاً:

أمّا منى نفسي فأنت جميعها يا ليتني أصبحت بعض مناك

وولادة من جهتها تبادله شعوراً بشعور، وشعراً بشعر. ومن شهير قولها ما أرسلته إليه مرة:

ترقب إذا جُن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يسر

ويجيبها ابن زيدون:

إن غبت لم ألق إنساناً يؤانسني وإن حضرت فكل الناس قد حضرا

ومن جميل قول ابن زيدون بعد أحد لقاءاتها:

ودّع الصبْر مُحِبٌّ ودَّعكْ ذائعٌ من سره ما استودعكْ
يقرَعُ السِّنَّ على أن لم يكن زادَ في تلك الخُطى إذ شَيَّعَكْ
يا أخا البدر سناءً وسَنا حفظ اللهُ زماناً أرجعَكْ
إن يُطِلْ بُعْدكَ لَيْلي فلكَمْ بِتُّ أشكو قِصَرَ الليْلِ معَكْ

لقد دام ربيع ولّادة وابن زيدون زمناً ليس بالقصير ثم بدأت عوامل الفرقة تتسلل إلى هذا الربيع وتتحدث المراجع عن أسباب شتى لهذه الفرقة منها :

أ ـ إن ابن زيدون كانُ يكثر من نقده لشعر ولّادة ويخرج هذا الشعر حتى لو كان موجهاً إليه ، من ذلك قولها[1] :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صَبٍّ بما لقي
وقد كنت أوقات التزاور في الشتا أبيت على جمرٍ من الشوق محرق
تمر الليالي لا أرى البين ينقضي ولا الصبر من رق التشوق معتقي
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

فأجابها ابن زيدون :

لحا الله يوماً لست فيه بملتق محياك من أجل النوى والتفرق

ولكن مع ذلك انتقد صدر البيت الأخير لولّادة قائلاً إن الدعوة بسقاية الأرض تصلح دعاء على المحبوب لا دعاء له :

ب ـ وفي الواقع فإن السبب السابق لا يشكل شيئاً هاماً. وتروي لنا كتب الأدب والتاريخ أن ابن زيدون كان يظهر بعض الاهتمام بجارية لولّادة تدعى «عتبة» [1]. وكانت عتبة حسنة الوجه والصوت وقد غنت يوماً وابن زيدون حاضر صوتاً قالت فيه :

أحبتنا إني بلغت مؤملي وساعدني دهري وواصلني حبي
وجاء يهنيني البشير بوصله فأعطيته نفسي وزدت له قلبي

وقد أظهر ابن زيدون استحسانه للغناء وطلب من الجارية إعادة الصوت

---

(١) نفح الطيب ، المقري ج ٤ ص. ٢٠٧
(٢) الذخيرة ، ابن بسام ج ١ ص ٣٧٨

مرة ثانية مخالفاً بذلك آداب المجلس ومتجاوزاً صاحبة القصر والندوة ولّادة ، مما أغضبها وحرك نار غيرتها من جاريتها عتبة إلى درجة أن ولّادة عنفت عتبة وضربتها وغادرت المجلس غاضبة .

وفي ذلك تقول ولّادة :

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا	لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غصناً مثمراً بجماله	وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما	لكن دهيت لشقوتي بالمشتري

ويعلق ابن زيدون على الحادثة بقوله :

وما ضربت عتبى لذنب أتت به	ولكنما ولادة تشتهي ضربي
فقامت تجر الذيل عاثرة به	وتمسح طل الدمع بالعنم الرطب

جـ ـ في إحدى لحظات الخلاف والشجار كان ابن زيدون يدافع عن نفسه مما تتهمه به ولادة ، ووصلت به الحد أنه صفع ولّادة ، ويبدو أن ذلك كان كالقشة التي تقصم ظهر البعير. فقد استاءت ولادة كل الاستياء، ولم تستمع إلى اعتذار ابن زيدون حينما قال معلناً ندمه :

إن تكن نالتك بالضرب يدي	وأصابتك بما لم أرد
فلقد كنت لعمري فادياً	لك بالمال وبعض الولد
فثقي مني بعهد ثابت	وضمير خالص المتقد
ولئن ساءك يوم فاعلمي	أن سيتلوه سرور في غد

د ـ يمكننا اعتبار الأسباب الثلاثة الفائتة أسباباً مباشرة وذرائع للقطيعة ويبدو أن السبب غير المباشر والعميق يكمن في الحملات المركزة التي كان يشنها الوشاة والحساد على ابن زيدون ويسعون بها لدى ولّادة متهمين محبوبها بالغرور والصلف والخيانة لها . وقد لقيت تلك الوشايات أذناً صاغية لدى

ولّادة إلى أن حصلت القطيعة والهجر. . وتألم الشاعر الرقيق لذلك أشد الألم فبدأ أولاً يعاتبها قائلاً:

ساء الوشاة مكاني فيك واتقدت   في صدر كل عدوٍّ جمرة الحسد

ويقول لها أيضاً:

لم تبق جارحة بالهجر من جسدي   إلا خلعت عليها بالضنى حللا

ويقول:

أيوحشني الزمان وأنت أنسي   ويظلم لي النهار وأنت شمسي
لقد جازيتِ عذراً عن وفائي   وبعتِ مودتي ظلماً ببخس

* * *

تحول ابن زيدون من اللوم والعتاب إلى الغضب والتحدي حينما علم بأنباء العلاقة بين ولّادة وبين الوزير أبي عامر بن عبدوس. وقد أوحى إليه ذلك رسالته الهزلية المعروفة التي كتبها على لِسان ولادة وأرسلها إلى ابن عبدوس فذاعت وانتشرت بين الناس مما أثار حفيظة ابن عبدوس وجعله يتحاشى لقاء ولّادة أو الظهور بين الناس (ولنا عودة إلى تلك الرسالة في محطة أندلسية قادمة).

ولكن ابن عبدوس لم يكن السهل الذي يستسلم بل انصرف للتآمر على ابن زيدون ولفق له تهمة اغتصابه أحد العقارات في قرطبة ورتب لذلك شاهداً ورفع الأمر لحاكم قرطبة ابن جهور الذي أمر بسجنه.

وهكذا دفع ابن زيدون ثمناً غالياً لعدائه لابن عبدوس. ويبدو أن ولّادة لم تقف إلى جانب ابن زيدون بل كانت ضده، وقد انزعجت من التشهير الذي لحق بها بعد انتشار الرسالة الهزلية وما فيها من ملاحظات تمسها. بل لقد بلغ الأمر بولّادة أن تهجو ابن زيدون هجاء مراً مقذعاً أفحشت فيه في بعض

الأحيان متناسية أن ابن زيدون كـان يحبها بصـدق وأنه قـال فيها أجمـل قصائـد الحب في الأدب الإنسـاني. وقد أطلقت عـلى ابن زيدون لقب «المسـدس» لأنها وصفته بست صفات سيئة[1] ومن أخف أهاجيها فيه قولها:

ولُـقبـتَ المسـدس وهــو نـعت ... تفـارقـك الحيـاة ولا يـفـارق
فـلوطـيٌ ومـأبـونٌ وزانٍ ... وديـوثٌ وقـرنـان وسـارق

مكث ابن زيدون عامين في سجنه في قرطبة، أرسل خلالها قصائد المدح والشكوى والاستعطاف لابن جهور أمير قرطبة مدافعاً عن نفسـه ومبيناً بـراءته. ومن قوله في ذلك:

أإنْ زعم الواشون ما ليس مزعـما ... تعـذّر في نصري وتعـذّر في خذلي
ومثـلي قد تهفـو بـه نشـوة الصبـا ... ومثلك من يعفو، وما لك من مثل

ومن السجن كتب رسـالتـه الجـديـة يستعـطف ابن جهـور ولكن دون جدوى.

اضطر ابن زيدون إلى الهـرب من سجنه بمسـاعدة ابن أمـير قرطبـة الذي كـان صديقـاً لـه. وقصـد إلى أشبيليـة حيث بنـو عبـاد الـذين استقبلوه أحسن استقبـال وعينوه وزيـراً. ولكنه يشتـد به الحنـين إلى قرطبـة وولّادة. ويكتب لها أجمل قصائده متناسياً ما هجتـه به من فـاحش الكلام. ومن أشبيليـة يرسـل لها رائعته الخالدة[2]:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينـا ... ونـاب عن طيب لقيـانـا تجـافينـا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا ... بـأن نغص فقـال الـدهـر آمينــا
بِنْتُمْ وبِنّا فـما ابتلّت جـوانحنـا ... شـوقـاً إليكم ولا جفّت مــآقينـا

(١) نفح الطيب، المقري ج٥ ص. ٣٤١
(٢) ديوان ابن زيدون، ص ٩ وما بعدها.

ليبق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
أبدي وفاءً وإن لم تبدِ لي صلة ... فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا

وهذه القصيدة باعتراف النقاد أروع ما قاله ابن زيدون وهي مترجمة إلى أكثر من لغة لأن المشاعر الإنسانية التي فيها تخرج من الدائرة الإقليمية المحلية إلى الدائرة العالمية لتخاطب كل الأذواق البشرية.

ومن أشبيلية يعود ابن زيدون متخفياً إلى ضاحية الزهراء قرب قرطبة يتذكر فيها مجالسه مع ولّادة ويستعطفها علها تحن وتعود إليه. ويرسل إليها من هناك رائعته الثانية[1]:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلقٌ ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنه رقّ لي فاعتل إشفاقاً
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما شققت عن اللبات أطواقاً
يوم كأيام لذّاتٍ لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سُرّاقاً

ولكن ولّادة لا تستجيب ويعود ابن زيدون خائباً إلى أشبيلية، يبكي همومه ولواعجه ومن هناك يرسل إلى ولّادة:

هل تذكرون غريباً عاده شجنٌ ... من ذكركم وجفا أجفانه الوسن
يخفي لواعجه والشوق يفضحه ... فقد تساوى لديه السرّ والعلن

* * *

في قرطبة يموت أميرها، ابن جهور ويخلفه ابنه صديق ابن زيدون، فيعود ابن زيدون إلى مدينته المحبوبة ويعود إلى التقرب من ولّادة. فتغير من موقفها قليلاً وتقترب منه اقتراب الصديق لا الحبيب. ويرسله ابن جهور الإبن سفيراً

(١) ديوان ابن زيدون، ص. ٤٦ وما بعدها

متجولاً في إمارات الأندلس ولكن الوشاة يكيدون له من جديد فيعزله الأمير ويقصد أشبيلية مجدداً ليصبح هنا ذا الوزارتين. ويعود إلى مراسلة ولّادة:

ما صحّ ودّي إلّا اعتل وُدّكِ لي   ولا اطّلعتك إلّا ازددت عصياناً

وفي أشبيلية يموت أميرها المعتضد ليخلفه ابنه المعتمد الشاعر المعروف وصديق ابن زيدون ويقرر المعتمد ضم قرطبة إلى ملك بني عباد فيدخلها ابن زيدون مع الجيش الفاتح ليضمها إلى ملك صديقه المعتمد ولكن الأقدار لم تسمح له بالهناء في بلده فلقد ثارت فتنة في أشبيلية وذهب ابن زيدون لإخمادها رغم مرضه. وهناك وافاه الأجل عام ٤٦٣ هـ.

عاشت ولّادة طويلاً بعد وفاة ابن زيدون وتذكر المراجع أن ابن عبدوس استمر في وده لها ومساعدتها على عناء الحياة وقد تقدم بها العمر فتجاوزت الثمانين عاماً.

* * *

تجمع كتب الأدب والتاريخ على أن ولّادة كانت شاعرة رقيقة بارعة وناقدة ذواقة وسيدة ندوة أدبية، قوية الشخصية إلى درجة مفرطة جعلتها ترفض الزواج لأنه يجعلها تفقد قدراً من قوة شخصيتها. ومن شعر ابن زيدون ما فيه وصف لهذا الجانب من شخصيتها فهو يقول:

أهيم بجبار يعزّ، وأخضع
شذا المسك من أردانه يتضوع
إذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع
فما أنا في شيء من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منامُ

وفي مكان آخر يقول:

ما ضر إن لم نكن أكفاءه شرفا   وفي المودة كافٍ من تكافينا

أما ولّادة فأجمل ما قالته أيام الود واللقاء:

أغــار عـليــك من عـيني ومـني ... ومنــك ومن زمـانــك والمكــان
ولــو أني خـبـأتــك في عيــوني ... إلى يــوم القيــامــة مــا كفــاني

* * *

يبقى أن نشير إلى الشاعرة مهجة بنت التياتي القرطبية صديقة ولّادة، وقد تبادلتا شعر مودة وشعر هجاء لا يتسع المجال لذكره. ومن أجمل شعر مهجة قولها:

لئن قد حمى عن ثغرها كل حائم ... فما زال يحمي عن مطالبه الثغر
فذلك تحميه القواضب والقنا ... وهذا حماه من لواحظها السحر

الحدائق في الشعر الأندلسي

إذا كان الأدب ابن البيئة التي يعيش فيها ويتفاعل معها ، فإن أدب الطبيعة في الاندلس شاهد حي على صدق ذلك .

لقد بدأ الادب الاندلسي في أول مرة ينسج على منوال المشارقة في معانيهم وأخيلتهم وأساليبهم . ثم بدأ بعد ذلك يتخذ لنفسه طريقاً متميزاً يحاول من خلاله تأكيد خصوصيته وترسيخ استقلاليته ضمن أُطُر أندلسية بحتة .

واستغرقت هذه الرحلة في التميز والتمحور حول شخصية أدبية مستقلة عدة قرون حتى استوت ناهضة على يد شعراء كبار يقف في طليعتهم ابن خفاجة . وابن حمديس وسواهما من عمالقة الاندلس .

* * *

الاندلس بلاد ذات طبيعة جميلة توفرت لها عناصر الخصب من مياه كثيرة وأنهار ومناخ معتدل وأرض معطاء إلى جانب اليد الماهرة الصناع التي عرفت كيف تتعامل مع الطبيعة الجميلة فتنسقها في حدائق ورياض وبرك ماء ونوافير وأزهار مختلفة .

ثم جاء الشاعر ففتن بتلك الطبيعة الخلابة ، سواء أكانت طبيعة طبيعية أم طبيعة اصطناعية وأطلق لخياله العنان مع الطيور المغردة والأريج المنتشر

والشذى الفواح وخرير المياه وحفيف الاغصان فتولدت لديه الصور والتشبيهات والاخيلة ، وانطلق يغزل من الكلمات وشياً وحللاً لم يعـرف الادب العربي لها مثيلاً من قبل .

* * *

في المشرق كان شعر الطبيعة قد بدأت ملامحه لدى ابن الـرومي في القرن الثالث للهجرة ، ثم بلغ ذروته في بلاط سيف الدولة الحمـداني في مدينـة حلب خلال القرن الرابع للهجرة . ذلك البلاط الذي شهد قمة الشعر العربي متمثلة بـأبي الطيب المتنبي وقمـة شعر الـطبيعة المشـرقي متمثلة بالشـاعر الصنـوبـري المبدع .

ومما لاشك فيـه أن شعر الـطبيعة في حلب قـد ترك بصمـاته عـلى الادب الاندلسي في مبدأ الامر إلى أن تمكن الاندلسيون من التمايز شيئاً فشيئاً . ونحن نرى في شعر الطبيعة لدى شعراء حلب خلال القرن الرابع الهجري وقفات على مشاهد مختلفة مثل الروضيات والزهريات والثلجيات والمائيات وسواها . ونجد بعد قرن من ذلـك الوقفـات نفسها لـدى شعراء الانـدلس إنما في سيـاق يحاول الاستقلال بنفسه قدر الإمكان .

* * *

ألفنا في صور الشعر الغزلي النسيب تشبيه محاسن المرأة بمحاسن الطبيعة فالوجه الجميل بـدر ، والقامـة غصن البان ، والخـدود ورود ، وتتعدد الصـور والتشبيهـات لتصل إلى الكثيب والغـزال والليل والـلآلىء وقطرات النـدى وغير ذلك من الصور المألوفة التي تعرض في ثياب جديدة وقوالب مبتكرة .

أما شعر الطبيعة فهو ينظر إلى الطبيعة كامرأة جميلة ومن هنا يشبه محـاسن الطبيعة بمحاسن المرأة :

أدرهـا فـالسـماء بـدت عـروسـا   مضخمـة المـلابس بـالغـوالي

ونـدّ الـروض حمّـره أصيـل وجفن النهـر كحـل بـالـظلال
وجيد الغـصن يشرق من لآل تـضيء بهـن أكـنـاف الـليـالي

هـذه الأبيات للشـاعر أبي جعفـر بن طلحة من شعـراء القـرن الخـامس للهجرة ، ورغم أنها لا تتعدى الأبيات الثلاثة ، فهي حافلة بنقل صور الطبيعة للمرأة : السماء عروس ، ونجومها جواهـر تزين مـلابس العروس ، وللروض خـد محمـر ، وجفن كحيـل ، وللغصن عنق يـزدان بـالـلآلىء . إنـه تشخيص الطبيعة وجعلها امرأة جميلة تفتن بسحرها أعين الناظرين .

أما الشاعـر عبد الله بن سمـاك فيرى في الـطبيعة صـوراً تذكـره بالمفـاتن الانثوية فالشجرة المثقلة بأغصانها وأزهارها ، إنما هي عنده امرأة تزدان بالجواهر المختلفة والطيور المغنية على الأغصان كأن تغريدها عزف القيان على أوتار العُود والماء العذب كأنه ريق سلسال :

الـروض مخـضـر الـربى للنـاظـرين بـأجمـل الألـوان
وكـأنمـا بسـطت هنـاك شـرارهـا خـود زهت بقـلائـد العقيـان
وكـأنمـا فتقت هنـاك نـوافـج من مسكـةٍ عجنت بصرف البـان
والطير تسجع في الغصـون كأنمـا نقـر القيـان حنت عـلى العيـدان
والمـاء مـطّرد يسيـل لـعـابـه كسـلاسـل من فضـة وجمـان
بهجـات حسن أكملت فكـأنها حسن اليقـين وبهجـة الإيمـان

* * *

يصف الشـاعر أبـو الحسن بن زنباع حـديقة ، ويشخصهـا على طـريقـة شعـراء الـطبيعـة الانـدلسيـين ، فيجعلهـا تضحـك وتبكي وتشب وتشيب ، وترتدي فاخر الملابس ، وهو في ذلك يكثر من البديع بشكل يلفت النظر إلا أنه لا يبلغ فيه مبلغ شعراء عصور الدول المتتابعة :

وتـطلعت في عنفـوان شبـابهـا من بعـد مـا بلغت عتيّ مشيبهـا

وقفت عليها السحب وقفة راحم | فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للأزهار كيف تضاحكت | ببكائها وتبشرت بقطوبها
وتسربلت حللاً تجر ذيولها | من لونها فيها وشق جيوبها
وعلى سماء الياسمين كواكب | أبدت ذكاء العجز عن تغييبها

* * *

ومن شعراء القرن الخامس الهجري أبو الصلت الاشبيلي الذي زار مصر والمغرب وأنحاء الاندلس . قال يصف روضاً ويرى في جماله جمال المرأة :

أو ما رأيت النور يشرق بالندى | والفجر ينصل من نضاب الحندس
والروض يبرز في قلائد لؤلؤ | والأرض ترفل في غلائل سندس
لا تعدم الألحاظ كيف تصرفت | وجنات ورد أو لواحظ نرجس

إن الصورة في البيت الاول فيها ابتكار في قالب العرض وجمال يستوقف الانظار فالنور يشرق بقطرات الندى والصبح ينسل من ثياب الليل السوداء .

وللشاعر أبي الصلت وقفات كثيرة يناجي فيها الرياض ويغازل أغصانها وزهورها ويتفنن أحياناً باستخدام المحسنات البديعية . قال يصف حديقة :

خضر خمائلها ، زرق جداولها | فالحسن مؤتلف فيها ومختلف
دوح وظل يلذ العيش بينهما | هذا يرفّ كما تهوى وذا يرف
يجري النسيم على أرجائها دنفا | وملؤه أرجٌ يشفي به الدنف
غريرة من بنات الارض ناعية | يثني معاطفها في السندس الترف
تندي أصائلها، صفراً غلائلها | كأن ماء نضار فوقها يكف

* * *

تبلغ صورة الحدائق ذروة إبداعها عند ابن خفاجة سيد شعر الطبيعة في الشعر الاندلسي :

وصقيلة الأنوار تلوي عطفها | ريح تلف فروعها معطار

والنـور عقد والغصـون سـوالف | والجـذع زنـد والخليـج سـوار
بحـديقـة ظـل اللمى ظـلاً بهـا | وتـطلعـت شيئـا بهـا الأنـوار
غنّاء ألحف عطفها الورق النـدي | والـتف في جـنبـاتهـا الـنـوار
فتـطلعت في كـل مـوقـع لحـظة | من كـل غصن صفحـة وعـذار

إن ابن خفـاجة رغم أنـاقته في اختيـار الالفـاظ ، لا يهمـل المعنى المنتقى ببراعة الفنان ذي العين النفاذة والذوق الرفيع .

فهـو من حيث البدايـة يرى الحـديقة فتـاة بارعـة الجمـال تتلفت فتـوزع عطرها الباهر مع النسمات . وهـو يرى نـور الضحى في الحديقـة كأنـه عقد في صـدر الفتاة وأغصـان الأشجار سـوالفهـا ، والجـذع زنـدهـا ، وجـداول المـاء سـوارها . أمـا ظل الحـديقة فتخـاله لمى الثغـر والضياء بجـانبه بـريق الأسنان الناصعة .

إننا نقرأ الصورة الجميلة لابن خفاجة فلا نـدري أهو يتحـدث عن امرأة يشبهها بالحديقة ، أم عن حديقة يشبهها بالمرأة .

وفي عصر ابن خفاجة برز ابن أخته الشاعر ابن الزقّاق ونسج على منوالـه في وصف الطبيعة والتغني بحدائقها .

يتحدث ابن الزقاق عن زيارته لحديقة وإعجابه بها فيقول :

تـأرج مـطلول الـروابي فزرتها | وأمثال هاتيك الربى يقتضي الزورا
وأتحفني منهـا الـربيـع بـورده | عبيراً به الانفـاس إذ فتق النورا
حكت نفحةً ممن هويتُ ، ووجنةً | فـأنشقهـا طـوراً وألثمهـا طـورا

***

ولا يتـوقف ابن خفاجـة عند الحـديقـة بـل يـدخلهـا ويخص واحـدة من أشجارها بوصفه الساحر المبدع :

سقياً ليوم قد أنخت بسرحة ... ريّا تلاعبها الشمال فتلعب
سكرى يغنيها الحمام فتنثني ... طرباً ويسقيها الغمام فتطرب
والروض وجه أزهر ، والظل ... فرع أسود ، والماء ثغر أشنب
في حيث أطرَبَنا الحمام عشية ... فشدا يغنينا الحمام المطرب
واهتز عطف الغصن في طرب بنا ... وافتر عن ثغر الهلال المغرب
فكأنه والحسن مقترن به ... طوق على برد الغمامة مذهب

ويرى ابن خفاجة شجرة تفتق زهرها فيعجب بها أيما إعجاب ، وينطلق لسانه يصف ما رأى :

يا رُبَّ مائسة المعاطف تزدهي ... من كل غصن خافق بوشاح
مهتزة يرتج من أعطافها ... ما شئت من كفل يموج رداح
نفضت ذوائبها الرياح عشية ... فتملكتها هزة المرتاح
حط الربيع قناعها عن مفرق ... شمط كما ترتد كأس الراح
لفّاء حاك لها الغمام ملاءة ... لبست بها حسنا قميص صباح
نضح الندى نوارها فكأنما ... نسجت معاطفها يمين سماح
ولوى الخليج هناك صفحة معرض ... لثمت سوالفها ثغور أقاح

أهي شجرة أم غادة .. تلك التي يصفها ابن خفاجة . . . ؟ مائسة المعاطف ، ترتدي وشاحها ، ترتج فيرتج خلفها كفل كما تشاء ، كأن الشتاء قد قنعها فجاء الربيع ونزع قناعها . وكأن الغمام عباءة تلتف حول قامتها اللفاء التي هي أشبه بالصباح .

ومن أبدع ما وصف ابن خفاجة قوله في شجرة أراك :

وكأنها وكأن جدول مائها ... حسناء شُدّ بخصرها زنّار
زف الربيع بها عروس مدامة ... تجلى ونوار الغصون نثار
في روضة جنح الدجى ظل بها ... وتجسمت نوراً بها الأنوار

قام الغناء بها وقد نضح الندى	وجه الثرى واستيقظ النوار
والماء من حلي الحياء مقلّد	زرت عليه جيوبها الاشجار

هل هناك أجمل من الصورة التي في البيت الاول ؟ الشجرة بقامتها المشوقة كأنها غادة حسناء وجدول الماء حولها كأنه زناد شد على خصر الغادة الحسناء .

ويوغل ابن خفاجة أكثر في الشجرة ، فيتأملها ويستمع إلى صداح الطيور فوقها هديل الحمائم ، فيستوقفه الهديل المحبب إلى نفسه ويثير في قلبه ذكريات كامنة :

ونشوان غنّته حمامة أيكة	على حين طرف النجم قد هم أن يكرى
فهب وريح الفجر عاطرة الجنى	لطيفة من البرد طيبة المسرى
وطاف بها والليل قد رث برده	وللصبح في أخرى الدجى منكب يعرى
وأصغى إلى لحن فصيح فهزه	كما هزّ نشر الريح ريحانة سكرى
تهش إليه النفس حتى كأنه	على كبد نعمى وفي أذن بشرى

* * *

ومن أجل ما قيل في حمائم الأشجار قصيدة أبي الحسن بن حصن شاعر غربي الأندلس في تلك المرحلة :

وما هاجني إلا ابن ورقاء هاتف	على فنن بين الجزيرة والنهر
مفستق طوق لازورديّ كلكل	موشى الطلى أحوى القوادم والظهر
أدار على الياقوت أجفان لؤلؤ	وصاغ من العقيان طوقاً على الثغر
حديد شبا المنقار داج كأنه	شبا قلم من فضة مدّ في حبر
توسد من فرع الأراك أريكة	ومال على طي الجناح مع البحر
ولما رأى دمعي مراقاً أرابه	بكائي فاستولى على الغصن النضر
وحث جناحيه وصفق طائراً	وطار بقلبي حيث طار ولا أدري

إن الأبيات السابقة طائرة الذكر ، وهي مشهورة أكثر من شهرة صاحبها ، ولعلها أبدع ما قيل في مجالها . فالشاعر يقدم صورة دقيقة لذكر الحمام ويصف جسمه بتفاصيل غاية في الرقة مستخدماً في ذلك الحركة واللون ، إلى جانب مناجاته الطائر وإسباغه نفسه الشجية عليه .

ونختم الحديث عن طيور الحدائق بأبيات للشاعر أبي الحسن بن الحاج :

يا رب أعجم صامت لقنته   طرف الحديث فصار أفصح ناطق
جون الإهاب ، أعير فوه صفرة   كالليل طرزه وميض البارق
حكم من التدبير أعجزت الورى   ورأى بها المخلوق لطف الخالق

* * *

إن الجولة على فنون الشعر الاندلسي في وصف الحدائق تتطلب صفحات وصفحات ، وليس هناك ما هو أغنى من شعر الطبيعة في الأدب الاندلسي ، وإذا كان حديثنا اليوم عن الحدائق عموماً ، فإننا سنقف على بعض أجزائها الدقيقة في محطات قادمة . . عند جداول المياه ، والأزهار وكل ما وصفه شعر الطبيعة من مفاتن .

ابن حزم الأندلسي « مؤرخا »

ولد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في مدينة قرطبة آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٤ هـ (٧ ـ ١١ ـ ٩٩٤ م) . في قصر أبيه قرب مدينة الزاهرة مركز الحاجب المنصور حاكم الأندلس في ذلك الوقت.

وحول نسب ابن حزم يثور خلاف حاد بين المؤرخين يمكن حصره في إطارين :

أ ـ جمهرة واسعة من المؤرخين ترى أن ابن حزم فارسي الأصل[١] ، وأن جده الأقصى في الإسلام (يزيد) كان أحد موالي يزيد بن أبي سفيان أحد قادة فتوح الشام أيام أبي بكر وعمر . وابن حزم نفسه يؤكد هذا النسب ، وهو الرجل الثقة العالم الذي كتب في الأنساب . أما أول من دخل الأندلس من أسرته فهو خلف بن معدان أحد أجداده، وقيل دخلها مع الفتح أو مع عبد الرحمن الداخل.

ب ـ ويعتمد آخرون[٢] على نصح لمؤرخ واحد معاصر لابن حزم هو (ابن حيان) يذكر أن أسرة ابن حزم أسبانية نصرانية، وأن جده حزم أول من اعتنق الإسلام. وهذا الرأي يعجب جمهرة المستشرقين وعدداً من الكتاب المعاصرين الذين تناولوا دراسة ابن حزم. علماً بأن المؤرخين الآخرين المعاصرين لابن حزم كالحميدي وصاعد لم يشككا في أصله الفارسي

---

(١) جذوة المقتبس ، الحميدي ص ٣٠٨.

(٢) ابن حزم الاندلسي ، عبد الحليم عويس ص ٥٢.

ودخول اسرته إلى الاندلس قادمة من المشرق .

كانت أسرة ابن حزم قد استقرت في قرية قرب (لبلة) غـربي الاندلس[1] ولم يعرف لهذه الاسرة شأن يذكر إلا زمن أبيـه أحمد بن سعيـد الذي كـان وزيراً للحـاجب المنصور . ويشهـد لـه المؤرخـون بفضله وقـوة شخصيتـه واحتـرامـه لنفسه .

نشأ ابن حزم في قصر أبيه نشأة مترفـة ، وأخذ تعليمـه الأول على أيـدي نساء القصر كما يذكر ذلك بنفسه[2] .

وقد صحبه أبـوه إلى مجلس المظفـر بن المنصور وهـو ابن اثنتي عشرة سنـة ومع مطالع القرن الخامس للهجرة تبـدأ المتاعب في حيـاة ابن حزم ، فلقـد زال نفوذ الأسرة العامريـة ، وبالتـالي لوحق أنصـارها واعتبـرت أسرة ابن حـزم من هؤلاء الأنصار ، وتوفي أبوه حزناً «وكمداً» . واضطر ابن حزم إلى مغادرة قرطبة قاصداً (المرية) بعـد أن توفيت زوجتـه وحزن عليهـا أشد الحـزن . ومن المريـة أخرج إلى بلنسية وبعـد عامـين عاد إلى قـرطبة . وخـلال ذلك كـان يعمل مـع أنصار الامويين والراغبين في إعادة الخلافة الاموية المنهارة إلى قرطبة كرمز لوحدة الاندلس . وفي نطاق ذلك تولى ابن حزم الوزارة لعبد الرحمن الرابع بن هشـام ثم لهشـام الثـالث واستمـر حتى عـام ٤٢٤ هـ في عمله حتى السقـوط النهـائي للامويين في قرطبة . وبعد ذلك تفرغ للتأليف والمطالعـة والدراسـة والرحـلات عبر المدن الاندلسية يتعلم ويعلم ، كما زار جزيرة ميورقة[3] .

كان ابن حزم عنيفاً «في آرائه ، جريئاً في مواقفه وجدله إلى حد أثار عليـه بعض معاصريه . وكان شديد التدين تقيا ورعاً صادقـاً» مع نفسـه ومع النـاس شديد الوفاء . وكان واسع المعرفة متنـوع الثقافـة غزيـر الانتاج ، كتب في علم

---

(١) طبقات الامم، صاعد الأندلسي ص ١٠١ .

(٢) طوق الحمامة، ابن حزم ص ٧٩ .

(٣) الذخيرة، ابن بسام ١/١ ص ١٤١ .

الكلام والفقه وأصول الفقه والتفسير والحديث واللغة والادب والشعر والتاريخ والفلسفة . . . الخ .

ويروي صاعد تلميذ ابن حزم نقلاً عن ابنه أن مؤلفات ابن حزم المختلفة بلغت نحو أربعمائة مجلد تضم ما يقارب ثمانين ألف ورقة [1] .

من المؤسف أن القسم الأكبر من هذه المؤلفات لم يصلنا ـ على غرار أكثر الكتب الأندلسية ـ وذلك لما تعرض له الاندلس من فتن داخلية وحروب خارجية ثم إخراج المسلمين أخيراً على يد الاسبان النصارى .

ويمكن تقسيم مؤلفات ابن حزم حسب وصولها إلينا إلى ثلاثة أقسام :

أ ـ قسم لم يصل إلينا ولم نعرف حتى عناوين مؤلفاته فضاع تماماً.
ب ـ قسم نعرف عناوين مؤلفاته ولم يصل إلينا ، وقد عدد كتاب «ابن حزم الاندلسي» لعبد الحليم عويس تسعة وثمانين مؤلفاً لا نعرف إلا أسماءها ولم يصلنا شيء منها .
ج ـ ما وصلنا من كتب ابن حزم بين مخطوط ومطبوع ويعدد المصدر السابق ثلاثة وخمسين مؤلفاً موزعة على أبواب المعارف المتنوعة [2] .

* * *

نترك الحديث عن جوانب ابن حزم المتنوعة ونقصر حديثنا الآن على الجانب التاريخي في مؤلفاته. على أن نعود إلى جوانبه الأخرى في محطات أندلسية تالية.

يطلق ابن حزم على التاريخ تسمية «علم الاخبار» . ويعتمد فيه منهجاً قريباً من علم الحديث قوامه النقل والاثر وما يتصل بهما من جرح وتعديل . وهذا المنهج نقلة هامة في أسلوب دراسة التاريخ سوف يطورها فيما بعد المؤرخ

---

(1) طبقات الامم ، صاعد ص ١٠٢ .
(2) ابن حزم الاندلسي ، عبد الحليم عويس ص ١١١ وما بعدها .

العظيم عبد الرحمن بن خلدون .

ويقسم ابن حزم علم الأخبار «التاريخ» إلى أقسام : منها ما يتصل بالممالك ومنها ما يتصل بالسنين ، أو تاريخ البلاد ، أو طبقات الناس ، أو تاريخ منثور يضم أشتاتاً مختلفة ، أو علم النسب ، أو تاريخ الأديان ، والمعارف والعلوم ، أو التاريخ الاقتصادي والاجتماعي [1] .

وهو من ناحية ثانية يقسم الاخبار حسب الامم : تاريخ الملة الإسلامية ، بني اسرائيل ، الروم ، الترك ، السودان ، الهند والصين ، الفرس ، القبط . . . الخ [1] .

* * *

يرى ابن حزم أن كل أمة تمتاز عن الامم الأخرى بثلاثة علوم هي : الشريعة والتاريخ واللغة ، بينما تشترك الامم في علوم النجوم والعدد والطب والفلسفة . وهو لذلك يرى أن التاريخ أحد الاسس الثلاثة التي تحدد شخصية الامة . ويلح على دور التاريخ في التعليم وخطورة مناهجه ودقتها .

وأدرك ابن حزم ـ بشكل مبدئي ـ أن هناك عوامل تحرك أحداث التاريخ وأشار إلى ذلك في سياق أخباره . وهذه الإشارات أوضحها ابن خلدون فيما بعد بما تعارفنا على تسميته «فلسفة التاريخ» .

يستند ابن حزم إلى ثلاثة أسس في تفسيره لتغيّرات التاريخ لدى الأمم وهذه الأسس هي : العقائد والتعليم والأخلاق . وهذه الأسس الثلاثة يمكننا دمجها اليوم فيما ندعوه (مقومات الحضارة) . وعلى ضوء هذه الأسس فسر ابن حزم حوادث التاريخ وبخاصة في عصره .

---

(١) مراقب العلم (رسائل ابن حزم) ، ابن حزم ص ٨٧ .

(٢) الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ابن حزم جزء ٣ ص ٥١ .

وقد كانت لغة الكتابة التاريخية لدى ابن حزم يغلب عليها الطابع الأدبي أكثر من غلبة السرد الموضوعي، كما أنه عمد إلى نظم قصيدة يسرد فيها بعض حوادث التاريخ وتقع في مائة وسبعة أبيات. إلى جانب مقطوعات شعرية أخرى في التاريخ. ومطلع قصيدته التاريخية :[1].

من المحتمي بالله رب العوالم ودين رسول الله من آل هاشم
محمد الهادي إلى الله بالتقى وبالرشد والإسلام أفضل قائم

* * *

تعددت المصادر التي نهل منها ابن حزم ثقافته التاريخية، فيأتي في طليعة هذه المصادر القرآن والحديث وكتب السيرة النبوية وكتب التاريخ الإسلامي التي كانت قبله، وكتب الأدب والرحلات الشخصية والمشاهدات المباشرة في عصره.

لم يحدد لنا ابن حزم منهجاً تاريخياً بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة ولكننا نلاحظ تأثير المدرسة الظاهرية[2] التي ينتمي إليها ابن حزم في تفسيره وكتابته للتاريخ. وتعتمد المدرسة الظاهرية الأثر والنقل وفهم النصوص على ظاهر معناها كما نلاحظ تأثر ابن حزم بالطبري وابن إسحق وغيرهما في أسلوب التوثيق التاريخي[3] والرواية المتصلة. وأضاف ابن حزم إلى ذلك نقده العقلي لبعض حوادث التاريخ كما أضاف النقد التاريخي الذي كان تمهيداً لفكر ابن خلدون فيما بعد. وعني عناية فائقة بالاحصاءات الدقيقة.

* * *

---

(١) البداية والنهاية، ابن الأثير ج ١١ ص ٢٤٧ وما بعدها
(٢) الفصل، ابن حزم ج٢ ص ١١
(٣) ظهر الاسلام، أحمد أمين ج ٣ ص ٢٧٤.

تتوزع اتجاهات الكتابة التاريخية لدى ابن حزم على الأبواب التالية:

١ ـ **الأنساب**: وفي هذا الباب يتفق أكثر المؤرخين على أن ابن حزم إمام النسابين.

ويقف كتاب ابن حزم الهام «جمهرة أنساب العرب» واحداً من أهم المؤلفات في هذا المجال إن لم يكن أهمها. وقد اتبع فيه ابن حزم منهج الدراسة التاريخية الموثقة، وذكر أن من الأنساب ما هو فرض عين كمعرفة النسب الشخصي لكل إنسان ومعرفة نسب الرسول. ومنها ما هو فرض كفاية كسوى ذلك من الأنساب.[1].

ومن خلال حديث ابن حزم عن الأنساب يمكننا التقاط خيوط التاريخ السياسي والحضاري للفترة التي يتكلم عنها. وهو يفيض ويسترسل بشكل لم يألفه النسابون السابقون.

تكتفي كتب النسب السابقة لابن حزم بذكر أسماء الاشخاص حتى منتهاها في النسب. أما ابن حزم فيشير إلى مذاهب الأشخاص وأعمالهم وآثارهم ووفاتهم وأوضاع أسرهم وما يتصل بهم من حوادث هامة. مما يجعل من الكتاب موسوعة تاريخية أكثر منه كتاب أنساب. ويركز الكتاب تركيزاً واضحاً على الأندلس وأمرائها وحكامها وأسرها المشهورة ورجالها المعروفين.

٢ ـ **التراجم والطبقات**: وكان ابن حزم متشدداً في تراجمه للرجال عنيفاً في تجريح من لا يراهم ثقة. وأبرز هذه التراجم إنما وردت في كتابه الموسوعي «المحلّى» الذي يضم ترجمة لأكثر من خمسمائة عالم، يجرح بعضهم ويوثق أكثرهم. ومن أشهر شخصيات تراجمه «عمر بن الخطاب، والحسن البصري، وعطاء، وعبدالله بن عباس، وعلي بن أبي طالب، والشعبي... الخ».

---

(١) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم ص ١٦

ولابن حزم في ميدان التراجم «رسالة أسماء الصحابة» وفضائل الأندلس وأهلها، وفي الرسالة الأخيرة ذكر لمشاهير الأندلس من علماء دين ومؤرخين وأطباء وغيرهم . . . .

٣ ـ الترجمة الذاتية: ونلاحظ في آثار ابن حزم كتابات متناثرة يتحدث فيها عن نفسه وشيوخه ورحلاته وأعماله. ولكننا نتوقف عند كتابين يعتبران بحق نموذجاً للسيرة الذاتية بالمفهوم الحديث للكلمة وهما: طوق الحمامة في الألفة والألاف، و«رسالة في مداواة النفوس».

في مقدمة كتاب «طوق الحمامة» يصرح ابن حزم بأنه يكتب سيرة حياته[١]. والكتاب عبارة عن فيض من الذكريات الخاصة والعلاقات مع الأصدقاء والمحبوبين وشيوخ العلم. يكتب ذلك بمقدار كبير من الشجاعة والجرأة الأدبية والصدق الموضوعي، ذاكراً كيف انهدم مجد أسرته وكيف غدر به بعض أصحابه وكيف تنقل في البلاد، كما تحدث عن تجاربه في الحب وذكرياته عن تلك التجارب وهو يؤكد أنه صادق في أحاديثه واعترافاته[٢]، وهو يرى أن الكذب كبيرة الكبائر ويذكر حرفياً: «كل ذنب يتوب عنه صاحبه، وكل ذام فقط يمكن الاستتار به والتوبة منه، حاشا الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه، ولا إلى كتمانه، وما رأيت قط كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه. ولا بدأت بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على كذب»[٣].

٤ ـ التاريخ الموضوعي:

يمكن تقسيم كتابات ابن حزم التاريخية في هذا المضمار إلى الأقسام التالية:
أ ـ السيرة النبوية: ومن كتبه فيها (جوامع السيرة[٤]) وهو مطبوع من تحقيق

(١) طوق الحمامة، ابن حزم ص ١٦
(٢) نفسه، ص ٩٣
(٣) نفسه، ص ١٦٥
(٤) طبع دار المعارف بمصر

إحسان عباس وناصر الدين الأسد ويقع في ٢٧٠ صفحة كبيرة. ومن كتب السيرة له (حجة الوداع)[1] وهو مطبوع من تحقيق ممدوح حقي ويقع في ٣٣٥ صفحة كبيرة.

وإلى جانب هذين الكتابين المستقلين، فإن لابن حزم كتابات متفرقة حول السيرة النبوية أبرزها رده على ادعاءات اليهود والنصارى، وقد ورد ذلك في الجزء الرابع من كتابه الكبير «الفصل في الملل والأهواء والنحل» معتمداً في رده المنهج العقلي.[6].

ب ـ تاريخ المشرق العربي: ومن أبرز كتابات ابن حزم فيه:
(نقط العروس في تواريخ الخلفاء). وهي رسالة في ٤٢ صفحة طبعت بتحقيق شوقي ضيف. وتتناول الرسالة رغم إيجازها خمساً وعشرين قضية تتصل بتاريخ الخلفاء وله أيضاً (جمل فتوح الاسلام بعد الرسول) وهي مطبوعة ملحقة بجوامع السيرة.
وله (رسالة أسماء الخلفاء والولاة وذكر عددهم) وعددهم الى عصر ابن حزم ٣٩ خليفة وله (رسالة اسماء الصحابة الرواة ولكل واحد من العدد) وهي كذلك ملحقة بجوامع السيرة.

وله (رسالة أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا) ومجموع من ذكرهم فيها ١٦٢ مفتياً.
وله (رسالة جمل من التاريخ) وهي صغيرة ويبدو أنها كتبت لصغار المتعلمين. ومجمل القول في آراء ابن حزم حول تاريخ الشرق انه كان ينظر بتقديس كبير إلى عصر الصحابة، وكان يظهر تعاطفاً مع العصر الأموي، ويرى أن الدولة الأموية عربية، بينما الدولة العباسية قربت العجم. وفي ذلك يقول:

---

(١) طبع دار اليقظة ببيروت

«وانقطعت دولة بني أمية وكانت دولة عربية، لم يتخذوا قاعدة، إنما كان سكن كل امرىء منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة ولا أكثروا جمع الأموال ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا التسديد ولا تقبيل الأرض ولا يد ولا رجل وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد»[١]

«وانتقل الأمر إلى بني العباس وكانت دولتهم أعجمية سقطت فيها دواوين العرب وغلب عجم خراسان على الأمر. . . إلا أنهم لم يعلنوا سب أحد من الصحابة. . ». [٢]

ج ـ تاريخ الأندلس: وله في هذا المجال أربعة كتب ورسائل هي: (فضائل الأندلس وأهلها) وهي مطبوعة من تحقيق صلاح الدين المنجد وتقع في ٢١ صفحة متوسطة. وفيها رد على المشارقة الذين يعيبون بعض الأمور على الأندلسيين. والثانية (ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس). وهذه الرسالة مخطوطة لم تعرف بعد، وورد تلخيص لمحتواها عند الحميدي في «جذوة المقتبس».

والثالثة (رسالة التلخيص لوجه التخليص) وهي مطبوعة بتحقيق إحسان عباس وتقع في ٤٥ صفحة . وتتحدث الرسالة عن الفتنة الاندلسية وانقسام الأندلس إلى دويلات وانهيار الدولة الأموية . وما رافق ذلك من أوضاع اجتماعية.

وأخيراً يأتي كتاب طوق الحمامة بما فيه من حوادث تاريخية معاصرة لابن حزم[٣].

---

(١) رسالة أسماء الخلفاء (محققة بجوامع السيرة)، ابن حزم ص ٣٦٥

(٢) نقط العروس، ابن حزم ص ٨٨

(٣) كتاب طوق الحمامة، مطبوع بالعربية أكثر من عشرين مرة. ومترجم إلى عدد من اللغات الحية

يعتبر تاريخ ابن حزم عن الأندلس نموذجاً حياً للصدق والجرأة والشجاعة وهو لم يكتف بمجرد سرد الحوادث وإنما تناولها بالنقد والتحليل والتعليق وكان له الفضل الكبير في التعريف بكثير من بيوت الأندلس وعلماء عصره وكتبهم في المجالات المختلفة.

ولعل أبرز ما يميز موقف ابن حزم من تاريخ بلاده كتابته الجريئة عن أمراء دويلات الطوائف في عصره. فلقد رفض ابن حزم أن يبيع نفسه وقلمه لأحد منهم، واعتبرهم جميعاً عوامل تقسيم وفتنة وتفرقة. وكان حديثه عنهم غاية في الدقة والموضوعية والحياد والنظرة البعيدة التي تتوخى الحق ومصلحة البلاد ولا شيء سوى ذلك. فهو يسخر مثلاً من قيام أربعة خلفاء في ثلاثة أيام كل منهم يسمي نفسه أمير المؤمنين في أشبيلية ومالقة وبشتر. (١)

وهو يوضح كيف اختلط الحلال بالحرام وكيف ضاعت حقوق الناس واشتد قمع دويلات الطوائف للناس. (٢)

لقد دمغ ابن حزم عصر ملوك الطوائف ووصل به الأمر إلى وصفهم بالخيانة في قوله:

«لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لبادروا اليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى، فيمكنونهم من حرم المسلمين وابنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم. وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه». (٣)

لقد أسهم فكر ابن حزم وآراؤه التاريخية الناقدة في قيام دولة الموحدين

---

(١) نقط العروس، ابن حزم ص ٨٣

(٢) نفسه، ص ٨٦

(٣) نفسه، ص ١٧٧

التي تـأثر منـظورها تـأثراً واضحـاً بكتابـات ابن حزم. وحينـما استـرد المنصـور الموحدي منطقة شابر من أيدي النصارى، وقف فيهـا على قبـر ابن حزم متـرحماً وقال:

«عجباً لهذا الموضع يضم رفـاة مثل هذا العالم... كل العلماء عيال على ابن حزم». (١)

* * *

تـوفي ابن حزم ليلة ٢٨ شعبـان ٤٥٦ هـ في قريتـه (منت ليشم) بعـد أن انقطع فيها عشرين عاماً للمطالعـة والكتابـة واستقبال التـلاميذ. تـوفي مغموراً منسياً من معاصريه، ولكنـه ترك دويـاً في تاريـخ البشريـة لا يمكن أن يزول مـا دامت الأيام.

وقبل نيف وعشر سنـين احتفلت اسبانيـا بذكـرى هذا العـالم الموسـوعي العظيم وحضر الاحتفال رئيس الجمهورية (فرانكـو) تدليـلاً على المقـام الرفيـع الذي يحتله ابن حزم في تاريخ الفكر الإسلامي والبشري.

---

(١) نفح الطيب، المقري ج٤ ص ٢٢٢

شاعرات الأندلس

الجزء الثاني: (عصر ملوك الطوائف)

أطل القرن الخامس الهجري والخلافة الأموية في الأندلس تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد فترات ذهبية أيام عبد الرحمن الناصر، والحاجب المنصور.

وكان ضعف الخلافة الأموية واضمحلال هيبتها من أبرز أسباب التفكك السياسي الذي شهدته البلاد خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وأدى إلى سقوط الخلافة في قرطبة على يد الوزير أبي الحزم بن جهور عام ٤٢٢ هـ . علماً بأن بعض الإمارات كانت قد استقلت فعلاً عن سلطة قرطبة قبل هذا التاريخ كما هو حال إمارة بلنسية التي انفصلت عن السلطة المركزية منذ ٤٠٠ هـ وقد تجاوز عدد الدويلات العشرين مما أتاح فرصة كبرى للنصارى الأسبان المتربصين في الشمال الغربي أن يوجهوا ضرباتهم إلى كل دويلة على حدة.

والحديث في الأوضاع السياسية أيام ملوك الطوائف في الأندلس حديث طويل وذو شجون، وسيكون لنا رجوع إليه في محطات قادمة.

وعلى الرغم من التفرق والتشرذم الذي شهدته الرقعة الجغرافية للأندلس. فإن القرن الخامس للهجرة شهد انتعاش الحياة الفكرية والأدبية ويمكن رد ذلك إلى اعتبارين أساسيين:

أولها أن تلك المرحلة كانت حصيلة المخاض الطويل للقرون السابقة وقد آن لها أن تؤتي أكلها.

ثانيهما: أن ملوك دويلات الطوائف بدافع من المنافسة والغيرة قربوا الشعراء والأدباء والمفكرين وأغدقوا عليهم الأموال. واتخذوا منهم الوزراء كما هو شأن ابن زيدون مع بني جهور في قرطبة، وبني عباد في أشبيلية.

* * *

شهد هذا القرن فيضاً هائلاً من الشواعر عمّ كل المدن الأندلسية ولم يعد أمر الشعر مقصوراً على العاصمة قرطبة. وتنوعت موضوعات الشعر وبدأت تتخذ طابعها الأندلسي المتميز.

لا شك أن أولى شاعرات تلك المرحلة هي ولّادة بنت المستكفي الأميرة الأموية. بل هي من أبرز وجوه الأدب والشعر النسوي في الأندلس قاطبة زماناً ومكاناً. وقد تحدثنا عنها في محطة سابقة.

تتحدث كتب الأدب عن ثلاث شواعر عرفتهن مدينة «المرية» خلال القرن الخامس ومدينة المرية تقع على الساحل الجنوبي للمتوسط جنوب شرقي غرناطة.

وقد استمرت المرية دويلة مستقلة منذ ٤٠٥ حتى ٤٨٤ حينما ضمّها المرابطون إلى ملكهم والشواعر الثلاث يلاحظ إنهن من منابت اجتماعية متباينة فإحداهن أميرة بنت ملك المرية والثانية من عامة الشعب والثالثة من القيان.

* * *

أولى شاعرات المرية «أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح»[١] ولا تروي لنا المصادر تاريخ ولادتها ووفاتها. وإنما تتحدث الأخبار عنها كفتاة نشأت في بيت الملك وتلقت العلم والثقافة والأدب، وكانت ذكية جميلة. وقد أسهمت في

---

(١) نفح الطيب، المقري ج ٤ ص. ١٧٠

كتابة الموشحات[1] وأبرز أخبارها ما تتحدث به كتب الأدب عن حبها لشاب يدعى «السمار» من مدينة دانية التي تقع على الساحل الشرقي للأندلس قرب مدينة شاطبة. وقد ذاعت عنها أبيات تذكر فيها محبوبها قائلة:

يا معشر الناس ألا فاعجبوا ... مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل ببدر الدجى ... من أفقه العلوي للترب
حسبي بمن أهواه لو انه ... فارقني تابعه قلبي

ويبدو أن والدها المعتصم بن صمادح لم يرق له ذلك كما يذكر ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» فاختفى الفتى المدعو السمار، إما تـوارياً منه عن الأنظار، أو أن المعتصم قتله تخلصاً منه[2].

* * *

والشاعرة الثانية هي «زينب المرية» وقد ورد ذكرها في المغرب لابن سعيد، وفي النفح للمقري. من غير ذكر لولادتها أو وفاتها. ويروي عنها المقري إنها ابنة أحد مشاهير العرب وكانت ذات حسن وجمال وبهاء وكمال وأدب وظرف وتهذيب ولطف، رقيقة المعاني، جزلة الألفاظ... الخ[3].

ومن جميل شعرها قولها:

يا أيها الراكب الغادي بطيته ... عرج أنبئك عن بعض الذي أجد
ما عالج الناس من وجد تضمنهم ... إلاّ ووجدي بهم فوق الذي وجدوا
حسبي رضاه وإني في مسرته ... ووده آخر الأيام أجتهد

* * *

وثالثة شواعر المرية هي غاية المنى وهي قينة كما يظهر من اسمها. وقد

---

(١) الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة ص. ١٤٨.

(٢) المغرب، ج٢ ص. ٢٠٣

(٣) نفح الطيب، المقري ج٦ ص. ٢٢

جيء بها إلى المعتصم بن صمادح ملك المرية وكان يبحث عن قينة شاعرة[1] فأراد أن يمتحنها، فقال لها: أجيزي:

اسألوا غاية المنى

فأجابت على الفور:

من كسا جسمي الضنى

وأراني مولها سيقول الهوى أنا

وفي الواقع فإن أمثال هذه الجارية كن كثيرات في المجتمع الأندلسي، ولكن كتب الأدب لم تحفظ لنا كثيراً من أخبارهن ونوادرهن وأشعارهن، ولا نقع في هذه الكتب على أخبار أخرى لغاية المنى هذه.

* * *

وفي أشبيلية المدينة الباذخة المترفة، تظهر شاعرتان في بني عباد هما اعتماد زوجة المعتمد وبثينة ابنته.

ينقل المقري في وصف مدينة أشبيلية[2]:

«إنها من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة، وانتهاز فرص الزمان الساعة بعد الساعة، ويعينهم على ذلك واديها الفَرِجُ وناديها البَهِجُ، شرفها (إحدى ضواحيها) غابة بلا أسد، ونهرها نيل بلا تمساح».

والنهر الذي يمر بأشبيلية هو نهر الوادي الكبير المحتفظ باسمه حتى اليوم وهذا النهر كان سبباً في تعرف المعتمد على زوجته اعتماد.

ركب المعتمد يوماً ومعه صديقه الشاعر ابن عمار زورقاً للنزهة في الوادي الكبير وكان الجو جميلاً رائعاً، فنظر المعتمد إلى صفحة الماء وقال لابن عمار، أجز:

---

(١) نفح الطيب، المقري ج ٥ ص. ٢٢

(٢) نفسه، ج١ ص. ١٤٩

صنع الريح من الماء زرد

فـارتج عـلى ابن عمار ولم يستـطع إجـازة البيت في الحـال، وإذا صـوت عذب يأتي من ضفة النهر يقول:

أي درع لقتال لو جمد

وعندما سمع المعتمد ذلك لم يتمالك نفسه من الدهشة فأسرع بزورقه إلى الشاطىء ليتعرف إلى صاحبة الصوت، وإذا هو أمـام جاريـة جميلة كانت ملكـاً لشخص يدعى رميك بن حجاج وتدعى اعتماد الرميكية.

أُعجب المعتمـد بالجـارية الجميلة أيما إعجـاب واشتـراهـا من مـولاهـا وتزوجها وأنجبت له أكثر أولاده ورافقته في شتى مراحـل حياتـه، وقاسمتـه أيام الهناء وأيام الأسى حينما ذهبت معه إلى منفاه في أغمات بـالمغرب وتـوفيت هناك إلى جانب زوجها بعد أن بقيت وفية له طيلة حياتها.

ويـروي بعض المؤرخين أن المعتمـد أطلق على نفسـه هـذا الاسم تشبهـا باسمها وتيمناً به وكان يدعى من قبل: محمد الظافر المؤيد. فأصبح يدعى محمد المعتمد بعد تعرفه إلى اعتماد[1].

وحكاية اعتماد معه معـروفة يـوم نظرت من شـرفة قصـرها فـرأت نسوة يطأن بأقدامهن في الطين، فتمنت عـلى المعتمد أن تفعـل مثلهن فما كـان منه إلاّ أن أمر بمزج تراب الحديقة بالمسك والكافـور ونفائس الـطيب لكي تطأه اعتمـاد وجواريها. وفي ذلك يقول وهو في منفاه في أغمات وقد رأى اعتماد وبناته يمشين حافيات:

يـطأن في الطين والأقـدام حافيـة ... كـأنها لم تـطأ مسكاً وكـافـورا

* * *

من المعتمـد واعتماد ولـدت بثينة بنت ملك شـاعر أديب وأمهـا شـاعـرة

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار ج٢ ص. ٦٢

رقيقة. وقصة بثينة مع الشعر والأسر والسبي من القصص المؤلمة في تاريخ الأندلس.

قرر أمير المرابطين يوسف بن تاشفين أن يلحق الأندلس بمملكته في الشمال الإفريقي بعد أن جاز المضيق عدة مرات وسحق جيوش النصارى في معركة الزلاقة المشهورة قرب طليطلة وقد أسرت جيوش المرابطين المعتمد ملك أشبيلية وأرسل بالأغلال مع زوجته اعتماد إلى أغمات في المغرب. وانتهب قصره في أشبيلية وحمل ما فيه.

كانت بثينة في قصر أبيها حينما اقتحمه المهاجمون وقد اقتيدت مع السبي وبيعت مع جواري القصر ونسائه. واشتراها تاجر من أشبيلية وهو لا يعلم من هي.

أهداها التاجر لابنه الشاب كما تهدى جارية مشتراة، ولكن بثينة رفضت أن يقترب الشاب منها إلّا بعد عقد زواج يوافق عليه أبوها، وأعلمت الشاب من تكون واقترحت أن تكتب لأبيها بعد أن علمت بمكان منفاه.

وافق الشاب وأبوه بعد أن أقنعتهما بثينة، وكتبت لأبيها المعتمد وأمها اعتماد رسالة من أرق الرسائل وأشدها تأثيراً في النفوس.

وكانت الرسالة قصيدة قصصية أو قصة شعرية ترويها الأميرة العبادية الصغيرة بعد وقوعها في السبي وهي التي شهدت العز والجاه وداست المسك والكافور في حديقة قصر أبيها.

قالت بثينة في رسالتها[1]:

إسمع كلامي واستمع لمقالتي	فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا إني سبيت وإنني	بنت لملك من بني عباد

(١) نفح الطيب، المقري ج ٦ ص. ٢٠

ملك عظيم قد تولى عصره | وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد الله فرقة شملنا | وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبي في ملكه | فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني امرؤ | لم يأت في إعجاله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني | من صانني إلاّ من الأنكاد
وأرادني لزواج نجل طاهر | حسن الخلائق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا | ولأنت تنظر في طريق رشادي
فعساك يا أبتي تعرفني به | إن كان ممن يرتجي لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها | تدعو لنا باليمن والإسعاد

ووصلت الرسالة إلى المعتمد واعتماد وهما في منفاهما بأغمات. فكان سرورهما فوق الوصف والتقدير لأنهما كانا يظنان أن بثينة في عداد الأموات.

وقد فهم المعتمد من بين السطور أن ابنته راغبة بموافقته على ذلك الزواج فكتب إليها موافقاً وقال في جوابه:

بنيتي كوني به برة | فقد قضى الدهر بإسعافه

* * *

وإذا نحن بلغنا في جولتنا على مدن الأندلس «غرناطة» لرأينا الطبيعة الجميلة تترك أثرها الواضح في التراث الشعري لشواعر المدينة وشعرائها. فغرناطة تسميها كتب التاريخ والأدب «دمشق الأندلس» ففي وسطها يجري نهر «شنيل» ويطل عليها جبل شامخ تكسوه الثلوج وحولها رياض وبساتين كغوطة دمشق وقد قال عنها ابن بطوطة خلال رحلته المشهورة: «. . . قاعدة الأندلس وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في الدنيا». من أبرز شواعر غرناطة في القرن الخامس للهجرة: «نزهون الغرناطية» واسمها الكامل نزهون بنت القلاعي ـ واسمها أندلسي بحت لأن وزن فعلون من ابتكارات الأندلس مثل زيدون وعبدون وخلدون.

كانت نزهون صورة للحياة المدنية وللقيم التي تفرزها المدينة المترفة. كانت جريئة حاضرة الجواب سريعة البديهة لا تتحرج في أجوبتها. تحضر مجالس الأدب والشعر وتساجل الشعراء وتهاجيهم.

وقد وصفها صاحب المغرب بأنها «شاعرة ماجنة كثيرة النوادر[1]:

بينما ورد في النفح إنها كانت تتصف بخفة الروح والانطباع الزائد والحلاوة وحفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال مع جمال فائق وحسن رائق[2].

ومن طرائف حكايات نزهون ومساجلاتها ما ورد في كتب الأدب والتاريخ وبخاصة في نفح الطيب للمقري. وهذه المساجلات تأخذ أحياناً طابعاً جاداً مشرقاً مهذباً شأن مساجلتها مع الوزير أبي بكر بن سعيد وزير بني مناد في غرناطة.

ومن هذه المساجلات ما كان عنيفاً يخرج أحياناً عن حدود الأدب المألوف ويفحش في القول وذلك كمساجلاتها مع الأعمى المخزومي الشاعر، ومع ابن قزمان الوشاحَ الزجال المعروف.

أ ـ نزهون والوزير أبو بكر[3]:

أبو بكر هو عبد الملك بن سعيد من أسرة مجد وأدب وعلم وثقافة، وهو صاحب كتاب التاريخ المشهور «المغرب في حلى المغرب» وكانت لأبي بكر مجالس أدب ونقد ومناقشات ومساجلات وكانت نزهون تحضر مجالسه تلك وتساهم بما يدور فيها من مناقشات.

---

(١) المغرب، ابن سعيد ج٢ ص. ١٢١

(٢) نفح الطيب، المقري ج٦ ص. ٣١

(٣) نفسه ج ٦ ص. ٣١

في أحد هذه المجالس أسمعها الوزير أبو بكر بيتين يدلان على غيرته من كثرة المعجبين بالشاعرة نزهون، قال فيهما:

يا من له ألف خِل — من عاشق وصديق
أراك خليت للناس — منزلاً في الطريق

فأجابته نزهون فوراً:

حللت أبا بكر محلاً منعته — سواك، وهل غير الحبيب له صدري
وإن كان لي كم من حبيب فإنما — يقدم أهل الحق حب أبي بكر

وتلاحظ التورية البارعة في آخر البيت الثاني وهي من الأجوبة السريعة الذكية لنزهون.

ب ـ نزهون والشاعر الأعمى المخزومي[1]:

كان الأعمى المخزومي واسمه أيضاً أبو بكر معروفاً بهجائه المقذع وميله للشر ولذا كان يسمى «بشار الأندلس». وقد حضر يوماً مجلس الوزير أبي بكر وفيه نزهون وهو لا يعرفها فأنشد أبياتاً ختمها بقوله:

هذا النعيم الذي كنا نحدثه — ولا سبيل له إلاّ بآذان

فيلتقط الوزير هذا المعنى ويعلق على عاهة العمى عند الشاعر فيقول: وإلى الآن لا سبيل إلاّ بآذان. مشيراً إلى أن المخزومي يسمع ولا يرى. ولكن الشاعر المخزومي لا يستسلم بسهولة فيجادل الوزير ويفحمه ويسكته. وهنا تنبري نزهون بما عرف عنها من روح تحرش وعدوانية فتهاجم الشاعر الأعمى أعنف هجوم قائلة «وتراك يا أستاذ قديم النعمة بِمَجْمَر نَدّ وغناء وشراب فتعجب من تأتّيه وتقول: ما كان يعلم إلاّ بالسماع، ولكن من يجيء من حضن

(١) نفح الطيب، المقري ج٦ ص. ٣١ ـ ٣٢

المدور - (بلد المخزومي) وينشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة بمجالس النعيم».

غضب الأعمى المخزومي أشد الغضب ولكنه كبح جماح نفسه وسأل سافراً: من هذه الفاضلة؟ فأجابت هي ساخرة: عجوز في مقام أمك.

فلم يعد المخزومي يحتمل وهي قد تناولت آفة العمى عنده فزعمت أنها عجوز وصوتها يبين إنها شابّة، وفي كلامها ما فيه من التعريض. فأجابها جواباً مقذعاً. وهنا تدخل الوزير وقال له: هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأديبة. فأجابه المخزومي: سمعت بها لا أسمعها الله خيراً... وتنبري نزهون فتجيبه جواباً قاسياً. فينشد المخزومي لتوه بيتين من الشعر في هجائها متكئاً فيهما على بيت للمتنبي فيقول:

على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصد نزهون توارك غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأجابته نزهون ارتجالاً:

قل للوضيع مقالاً ... يتلى إلى حين يحشر
جاويت هجواً بهجو ... فقل لُعنتَ من أشعر
إن كنتُ في الخلق أنثى ... فإن شعري مذكر

ويتدخل الوزير بعد أن يفحش الشاعران في تبادل الهجاء ويسترضي المخزومي بأعطية ليسكت.

وقد تحولت العداوة بين الشاعرة والشاعر إلى ود وأضحت نزهون تلميذة للأعمى المخزومي[1]. ويروى أن الكتندي دخل على المخزومي ونزهون تقرأ عليه بعض الأوراق فقال الكتندي للمخزومي: أجز:

(١) المغرب، إبن سعيد ج ٢ ص. ١٢١

لو كنت تبصـر من تكلمـه

فتلعثم المخزومي ولم يجب، فأجابت عنه نزهون قائلة

لغدوت أخرس من خلاخله
البـدر يـطلع مـن أزرتـه والغصن يمرح في غلائله

ج ـ نزهون وابن قزمان

في مجلس أبي بكر الوزير ـ كالعـادة ـ التأم شمـل الأدباء والشعـراء وفيهم نزهون. . . وقام ابن قزمان يرتجل بعض أزجاله الجميلة وقد ارتدى حلة صفراء والـوزير والأدبـاء يثنون عليـه ويغدقـون كلمات الإعجـاب بشعره فـما كان من نزهون إلا أن علقت على ملابسه الصفراء فقالت: أحسنت، إنك اليوم كبقرة بني إسرائيل صفراء فاقع لونها، ولكنك لا تسر الناظرين. فغضب ابن قزمان وانهال عليها شتماً مقذعاً وهم أن يضربها ولكن الحـاضرين دفعـوه عنها فسقط في بـركة الحديقة بثيابه وخرج مبللاً يلعن ويشتم. . . ثم هدأ واتجه إلى الوزير وأنشد:

إيــه أبا بـكر ولا حـول لي بــدفــع أعــيان وأنـذال
غـرقّتني في المـاء يا سـيـدي كـفّـره بــالـتـغريـق بـالمال

ويستجيب الوزير ويسترضي ابن قزمان بالمال طالباً منه أن يكف عن نزهون

* * *

(١) نفح الطيب، المقري ج ٦ ص. ٣٢

الألبيري ... الفقيه الشاعر

« إلبيرة » كورة [1] في جنـوب الأندلس، أرضهـا كثيرة الأنهار، من أهم مدنها غرناطة وقسطيلية [2] أما مدينة البيرة نفسهـا فقد تهـدَّمت وانتقل الـوزن السكاني والسياسي إلى غرناطة منذ القرن الخـامس الهجري [3] (الحـادي عشر الميلادي).

وحينـما تقسمت الدولـة الأمويـة استولى بنـو «زيـري» عـلى كـورة إلبيـرة وعاصمتها غرناطة وقد استمر حكمهم لغرنـاطة ومـا حولهـا حتى استولى عليهـا المرابطون عام٤٨٣ هـ (١٠٩٠) م ونفوا أميرها الأخـير عبد الله إلى أغمـات في صحراء المغرب مع المعتمد ملك أشبيلية.

وكانت دولة بني زيـري مختلفة عن بقيـة دويلات الـطوائف الأندلسيـة في القرن الخامس للهجرة. فقد كانت بربرية محصّنة بعيدة عن الجـو العربي المحيط بها ولم تول عنـاية معينة لمظاهـر البناء والعمـران كما فعلت جـاراتها الـدويلات الأخرى ولم يشجع بلاطها حركة الأدب والتأليف التي نشطت في أماكن أخرى.

ولكن أسوأ ما في الأمر ذلك النفوذ الكبير الذي تمتع به اليهود في دولة بني زيري من خلال أسرة بني «نغرلة» اليهودية التي أصبح منهـا الوزراء والمتنفـذون بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ الأندلسي.

---

(١) كورة: منطقة أو ولاية

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي ج١ ص ٢٤٤

(٣) مع شعراء الأندلس، اميليو غومث ص ٩٠

وهذا ما يفسر لنا غياب كبار شعراء الأندلس عن غـرناطـة في تلك الفترة ابتعاداً منهم عن التماس مديح اليهود المتنفذين، ولأن بني زيري عرفوا بالبخل بين بقية الأمراء. بل حدث العكس وهو نـزوح الشعراء عن غـرناطـة إلى باقي مدن الأندلس.

ومن هؤلاء الشعـراء «السميسر» الـذي هجا حكـام غرنـاطة قبـل رحيله بقوله:

رأيت آدم في نومي فقلت له:	أبا البريّة إن الناس قد حكموا
إن البرابر نسل منك، قال: إذاً	حوّاء طالقة إن صح ما زعموا

في هذا الجو المشحون بالعداء للشعر العربي والنفوذ العربي نشأ شاعرنـا، واسمه الكامل «أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد» وهو من قبيلة «تجيب» العربية وكانت ولادته أواخر القرن الرابع الهجـري (العاشـر الميلادي في مـدينة البيرة) وقد لقب بالألبيـري نسبة إلى مدينته. . .

وأبـرز مشايـخ «أبي إسحاق الإلبيري» هـو «ابن زمنـين»[1] الـذي كـان قاضي إلبيرة واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى إلى جانب أساتذة ومشايخ آخرين لا يذكر الرواة أسماءهم.

بعد تهدم إلبيـرة في مطلع القـرن الخامس ينتقـل أبو إسحـاق إلى غرناطة حيث يعمل كاتباً لدى قاضيها آنئذ «علي بن توبة»[2] في عهد إمارة «بـاديس بن حبوس» ويبدو أن أبـا إسحق قد لـزم عليا القـاضي زمناً غـير قصير وصحبـه في رحلاته كما فعل في رحلة إلى المـرية عـام ٤٢٩ حينما رحـل مع القـاضي لزيـارة الوزير أبي جعفر الأنصاري.

---

(١) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان ج١ ص. ١٩١
(٢) صلة الصلة، ابن الزبير ص. ٧٨

ويبدو أن ابن توبة كان أكثر من قاضٍ بل كان يباشر عملاً أشبه بعمل الوزير، فلقد أنشأ منبر جامع غرناطة، وأطلق اسمه على جسر في المدينة يحمل اسم «قنطرة الوادي» لا تزال أطلاله ماثلة إلى اليوم.

لذا لم يكن غريباً أن نرى في شعر أبي إسحاق عدة مدائح لهذا القاضي. وإلى جانب عمله في الكتابة للقاضي ابن توبة، كان أبو إسحاق يمارس التدريس ورواية الشعر، وكان له تلاميذ منهم أبو العباس القيسي، وعبد الواحد ابن عيسى وابن القبلال.

استمر أبو إسحاق في عمله حتى وفاة القاضي علي بن توبة. وقد حدث أن توفي الوزير اليهودي المدعو «صمويل بن نغرل» فخلفه ابنه يوسف في الوزارة عام ٤٤٨. وبدأ شاعرنا أبو إسحاق يظهر مشاعره المكبوتة ويعبر عن تضايقه من النفوذ اليهودي المتزايد في البلاط الغرناطي مما أدى إلى نفيه من غرناطة من قبل باديس بن حبوس تحت ضغط وزيره اليهودي.

استقر أبو إسحاق في ضاحية من ضواحي «إلبيرة» المتهدمة تدعى «رابطة العقاب» ويعبر في إحدى قصائده عن سبب مجيئه إليها بقوله:

ألفت «العقاب» حذار العقاب   وعفت الموارد خوف الذائب

ويقول في قصيدة ثانية:

وكم ذئب يجاوره ولكن   رأيت الذئب أسلم من فقيه

ويبدو أنه يشير إلى زملائه الفقهاء الذين تخلوا عنه في محنته وآثروا صحبة ذوي النفوذ والسلطان.

وتتلاحق الأحداث في غرناطة ويزداد طغيان الوزير اليهودي يوسف بن صمويل فيزداد بالتالي غليان الناس من عرب وبربر وترتفع الأصوات

بـالشكوى. وفي تلك الفتـرة يكتب أبو إسحـاق قصيدتـه المشهورة ضـد اليهود يدعو فيها إلى الثورة ضد نفوذهم ويعدد مثالبهم وينبه الصنهاجيين إلى خطرهم وضرورة التخلص منهم.

ومن قوله في تلك القصيدة:

ألا قــل لـصنهــاجــة أجمـعــين	بــدور النّدى وأُسْـد العــرين
لــقــد زل ســيــدكــم زلّــة	تـقرُّ بهـا أعينُ الـشـامـتـين
تخـــير كـــاتـبــه كـــافــرا	ولــو شاء كــان من المسلمــين
فـعــز اليـهــود بــه وانتـخــوا	وتـاهــوا وكــانــوا من الأرذلــين
فـكم مـسلم فــاضــل قــانــت	لأرذل قــرد مـــن المـشــركــين
ومــا كــان ذلــك من سعيهــم	ولــكــنّ مــنــا يـقــوم المـعــين

* * *

أبــاديس أنــت امــرؤ حــاذق	تصيب بــظنــك نفس اليـقــين
فكيف اختفت عـنــك أعيـانهم	وفي الأرض تضرب منها القـرون
وكـيـف يـتـم لــك المـرتــقـى	إذا كنت تبني وهــم يهــدمــون
وقــد أنــزل الله في وحـيــه	يحــذر من صحبة الفــاسقــين
فــلا تـتـخــذ منـهـم خــادمــاً	وذرهــم إلى لعنــة الــلاعــنــين

* * *

وإني احــتــللت بــغــرنــاطــة	فـكنت أراهــم بهــا عــابـثــين
وقــد قـسمــوهــا وأعــمــالهــا	فـمنهــم بكــل مـكــان لـعــين
وهــم أمــنـــاء عــلى ســركــم	وكـيــف يـكــون خؤون أمــين
ورخّـــم قـــردهــمْ داره	وأجـــرى إليهـــا نمــير الـعيــون
فـصــارت حــوائجنــا عنــده	ونحن عــلى بــابــه قــائـمــون

ويضحك منا ومن ديننا فإنّا إلى ربنا راجعون
فبادر إلى ذبحه قربة وضحّ به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عداهم وخذ مالهم فأنت أحق بما يجمعون
وقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين
فلا ترض فينا بأفعالهم فأنت رهين بما يفعلون

ويبدو أن تلك القصيدة كانت كالنار التي ينتظرها الهشيم، فأحدثت فعلها السريع في تحريك النفوس وازدياد النقمة على نفوذ اليهود في غرناطة بني زيري. كانت النفوس معبأة والاستياء عاماً، وكان اليهود ـ شأنهم حيثما حلوا يمارسون أسلوباً يجعلهم مكروهين ممن يحيط بهم. فهم يعمدون إلى الابتزاز والإثراء الفاحش غير المشروع من غير اعتبار للقيم والأخلاق، ويرفضون الاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه وينغلقون على أنفسهم داخل أحياء معينة فيما اصطلح على تسميته فيما بعد «الغيتو» اليهودي.

وقبل ذلك كله هناك السبب البعيد وهو عداؤهم المبدئي للمسلمين ومجاهرتهم بهذا العداء.

ولهذا فحينما جاءت قصيدة أبي إسحاق الألبيري كانت الزيت الذي صب على النار فالتهب أوارها واستعر لظاها. ولم يكن أمام الأمير باديس الزيري إلّا أن يأمر باعتقال وزيره اليهودي يوسف بن صمويل فاعتقل وقتل وصفي نفوذ أسرته كما صفي النفوذ اليهودي دفعة واحدة في غرناطة. وكان ذلك في شهر صفر عام ٤٥٩ هـ[1].

ونحن نعلم دور الشعر الكبير الذي كان يؤديه ـ إعلامياً ـ والصحفي المعاصر ليس إلّا صورة مصغرة عن الشاعر في تلك الفترة. وقصيدة سهلة

(١) تاريخ مسلمي أسبانيا، دوزي ج٣ ص. ٧٠

حساسة كهذه. . . سرعان ما تتناقلها الألسن وبخاصة أن موضوعها يمس قضية يهتم بها عامة الناس.

وليست هذه القصيدة هي التي رفعت أبا إسحاق إلى مصاف الشهرة فهو شاعر مجيد قبل ذلك. وهذه القصيدة قالها في أواخر أيامه. وإنما قيمة القصيدة من مناسبتها الخاصة ومن براعة أبي إسحاق في مخاطبة باديس من غير أن يهاجمه - فهو لا يقوى على ذلك - وبراعته في إثارة بربر صنهاجة وهم جند بني زيري وفهمهم للعربية محدود. لذا اختار وزناً سهلاً هو المتقارب وعبارات قصيرة مباشرة كأنها الخطبة الحماسية معتمداً على إثارة الشعور الديني من جهة، وتحقير اليهود من جهة ثانية. وعلى المقارنة بين أمجاد صنهاجة ودناءة اليهود وذلك زيادة في الإثارة. ثم المقارنة بين إثراء اليهود الفاحش وبؤس عامة الناس.

وهذه القصيدة ببساطتها ومشاعرها المشبوبة لون فريد من الشعر الاندلسي خلال قرونه الثمانية .

* * *

قام المستشرق الأسباني « أميليو غرسيه غومث» بتحقيق ديوان أبي إسحاق الإلبيري ونشره وطبعه في مدريد .

ويلاحظ في الديوان وفرة القصائد الزهدية ، ولعل مرد ذلك إلى أن أبا إسحاق كان فقيهاً متديناً صادق المشاعر غزير العلم .

وقد تحدث عن شعره بعض مؤرخي الاندلس . ومن أقوالهم فيه ما قاله ابن الأبّار : « وشعره مدون وكله في الحكم والمواعظ والإزهاد » . علماً بأن القرن الخامس الهجري في الاندلس لم يكن ميدان شعر زهد كما نعلم وإنما كان عصر ترف خلّف لوناً مغايراً تماماً من الشعر . ولذا فإن أبا اسحاق واحد من القلائل جداً الذين تناولوا شعر الزهد والتصوف إلى جانب ابن حزم القرطبي المعاصر له .

أما لسان الدين بن الخطيب فيقول عنه «وأما شعره فلا تجد حـادي جنازة ولا مذكر مأدبة ، ولا واعظاً إلا وهو مكثر منه» .[1]

ويذكر يوسف البلوي [2] أن شيخه عبدالله بن سورة كـان يرغم طـلابه على حفظ قصيدة زهدية لأبي إسحاق الألبيري .

وقصائده متناثرة في كتب التاريخ الاندلسي كالنفح والإحاطـة والذخيـرة والصلة وصلة الصلة والـروض المعـطار . . وغيـرهـا من أمهـات كتب تـاريـخ الاندلس .

عثر على مخطوطة الديوان في المكتبة الملكية «بالاسكوريال» قرب مدريـد . وقد وردت في فهارس المكتبة المختلفة مثل فهرس «هـ . درنبورج» H. Derenbourg وعنوانه «مخطوطات الأسكـوريال العـربية» . Les Manuscrits arabes de l'Escorial .Paris1884 . ورقم الديوان في هـذا الفهرس «٤٠٢» في الجـزء الأول من الفهـارس ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ وهـو مكتـوب بخط مغـربي في ٨٦ ورقـة وناسخه يدعى حكم بن يوسف البلنسي كتبه في ثغر منـورقة (من جـزر البليار) في ذي الحجة ٦٧٦ هـ ـ .

* * *

يقع ديوان أبي إسحاق في /٣٥/ قصيدة . يغلب على أكثرها طابع الزهد والتصوف على أنها تضم قصيدتين في المديح إحداهما في مديح القاضي ابن توبة الذي كان أبو إسحاق كاتباً له . والثانية في مديح شخص يدعى أبـا الحسن بن سلمان .

---

(١) أبحاث ، دوزي ج١ ص ٢٨٥ .
(٢) ألف باء، يوسف البلوي بن الشيخ ص، ١٣ .

ومعاني المديح فيها لا تخرج عن مألوف الشعر العربي إلا أنه استعاض عن مقدمة النسيب بمقدمة في الزهد .

وهناك قصيدتا رثاء . أولاهما في رثاء مدينة إلبيرة التي تهدمت من غير أن يشير إلى حوادث تاريخية معينة ، بل بمواقف الزهد والتأمل .

والثانية في رثاء زوجته . وفي القصيدتين كذلك إلحاح على جوانب الزهد والتصوف .

يقول أبو إسحاق في مديح القاضي ابن توبة : [1] .

فليس الزهد في الدنيا خمولا ... لأنت بها الأمير إذا زهدتا
ولو فوق الأمير تكون فيها ... سمواً وافتخاراً كنت أنت

وفي الديوان قصائد مناسبات مختلفة تلقي الضوء على شخصية أبي إسحاق التي تشبه إلى حد ما شخصية معاصره ابن حزم . فهو فقيه متشدد في موقفه عنيف في آرائه ثائر بطبعه . وهو يفتخر بشعره ومقدرته فيه .

فيقول [2] :

فأنا مفحم على أن خيلي ... لا تجارى في حلبة الشعراء

ويقول [3] :

لو انني أدعو الكلام أجابني ... كإجابة المأسور دعوة آسر
لكن رأيت نبينا قد عابه ... من كل ثرثار واشدق شاعر
فصمتُّ إلا عن تقىً ولربما ... قذفت بحار قريحتي بجواهر

* * *

(١) ديوان الألبيري ، القصيدة رقم ١ .
(٢) نفسه القصيدة رقم ٢٢ .
(٣) نفسه ، القصيدة رقم ٢١

في زهديات أبي اسحاق نلاحظ المعاني المألوفة لدى شعراء الزهد السابقين كأبي العتاهية . وأبو اسحاق يقول مثلاً :

لا عيش يصفو للملوك وإنما تصفو وتحمد عيشة النساك[1]

ويقول :

تمر لداتي واحداً بعد واحد وأعلم أني بعدهم غير خالد[2]

ويقول في اعتبار الماضي :

أين الجبابرة الألى ورياشهم قد باشروا بعد الحرير تراك[3]

ويتحدث عنه الصبي قائلاً «إنه كثير الشعر في ذم الدنيا» .

ومن شعره في ذلك قوله :

لولا شتاء ونفح قيظٍ وخوف لص وحفظ قوت
ونسوة يبتغين ستراً بنيت بنيان عنكبوت[4]

* * *

وفي ديوان أبي إسحاق الالبيري قصيدة هجاء تحمل الرقم ٣١ في ترتيب القصائد . وهو يهجو بها شاعراً يدعى أبا بكر بن الحاج كان قد هجا القاضي ابن توبة . فأمر به القاضي فضرب ضرباً موجعاً وشهر به في الأسواق وقد قال أبو اسحاق قصيدته هذه تقرباً لولي نعمته ابن توبة وفيها حملة شنيعة على الشاعر المهجو تصل حد المبالغة أحياناً ومن قوله فيها :

السوط أبلغ من قالٍ ومن قيل ومن نباحٍ سفيه بالاباطيل

---

(١) ديوان الألبيري، القصيدة رقم ٤ .
(٢) نفسه، القصيدة رقم ٢٨ .
(٣) نفسه، القصيدة رقم ٤ .
(٤) نفسه، القصيدة رقم ١٣ .

وقـــد هجـاه بهجـوٍ مؤلمٍ وجعٍ لا يشبه الشعر في نـظم وتفصيل
فقـل له إن جـرى هجو بخـاطره اذكـر قيامـك محلول الســراويـل
واذكـر عقـوبـة مـا زوّرته سفهـا في السـادة القادة الشم البهـاليـل
إن ابن تـوبـة فيهم رافـع علما من القضـاء وممتـاز بـإكـليـل

وتـلاحظ في القصيدة روح التشفي والقسـوة والفرح بمـا أصاب الشـاعر الآخر من تنكيل .

* * *

إن شاعرنا أبا اسحاق الالبيري نموذج في فكره وسلوكـه وشعره الـزهدي لفقهاء عصره بل هو في الطبقة الاولى من هذا الشعر الزهدي .

وتقف قصيدته الحماسية في ذم اليهود في طليعة شعره .

الشاعر ابن الزقّاق

كان القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي ، يؤذن بالأفول ، حين ولد ابن الزقّاق ، واسمه : أبو الحسن علي بن عطية الله بن مطرف بن سلمة .

واختلف في شأن مكان مولده ، أهو مرسية أم بلنسية ، فهو يدعى أحياناً المرسي ، ولكن الشيء المؤكد أنه عاش أكثر حياته في مدينة بلنسية ، كبرى مدن الشرق الاندلسي والمدينة التي شهدت صراعات دامية بين المسلمين والنصارى ، واستردها المرابطون من يد السيد القنبيطور .

وكان ألفونسو السادس قد أمر بإحراق بلنسية وتدميرها عن آخرها حينما اضطرت جيوشه لمغادرتها تحت ضغط المرابطين .

وتنسب بعض المصادر ابن الزقاق إلى قبيلة لخم العربية من جهة أبيه ، بينما هو من جهة امه قريب لابن خفاجة الشاعر الكبير ، فابن خفاجة خاله المباشر .

* * *

كانت دويلات الطوائف قد اختفت من الميدان أمام الوجود المرابطي بعد أن قام يوسف بن تاشفين بضم الاندلس إلى دولته المغربية القوية ، وبقيت في الشمال فقط دولة بني هود في سرقسطة لأنهم كانوا حلفاء أقوياء للمرابطين وأبلوا بلاء حسنا في حروب النصارى .

فابن الزقّاق فتح عينيه على الحياة ، والمرابطون هم أصحاب الكلمة في المغرب والأندلس وكان ـ كمايروي المقري في نفح الطيب ـ من أسرة فقيرة الحال، فقد شكا منه والده يوماً أنه يطيل السهر فيسرف بذلك في زيت الإنارة، والاسرة لا تتحمل كثرة الانفاق.

وفي اليوم التالي أحضر ابن الزقاق لأبيه ثلاثمائة دينار وقال له : اذهب واشتر بها زيتاً، ولما سأله أبوه من أين جاء بها أخبره أنه قصد أمير بلنسية وأنشده قصيدة أجازه عليها بثلاثمائة دينار، ومن أبيات هذه القصيدة قوله :

ناشدتك الله نسيم الصبا	أنى استقرت بعدنا زينب
لم نسر إلا بشذا عرفها	أولا ، فماذا النفس الطيب ؟!
إيهٍ وإن عذبني حبها	فمن عذاب النفس ما يعذُب

من جهة أخرى تذكر بعض المراجع أن ابن الزقاق كان ميسور الحال وأنه عاش مع أسرة خاله ابن خفاجة، وكان ابن خفاجة ميسوراً وإن لم يكن شديد الغنى.

لم يعش ابن الزقاق طويلاً فقد توفي قبل أن يبلغ الأربعين وكانت وفاته عام ٥٢٨ هـ ـ ١١٣٣ م .

* * *

درس ابن الزقاق على عدد من أساتذة بلنسية في عصره كان من أبرزهم في مجال الأدب خاله العظيم ابن خفاجة . وفي مجال علوم الدين تتلمذ على يد السيد البطليوسي وأبي بكر بن رزق الله .

ومنذ نعومة أظفاره استهواه الادب واستماله الشعر ، وسار في الشعر على طريق خاله فبرع في شعر الطبيعة في المقام الأول ، ولم يندفع وراء التكسب بالشعر والارتزاق به على غير هدى . وإذا هو مدح ففي مناسبات تستحق المديح ويستحقه رجالها العظام .

ويبدو من شعر ابن الزقاق أنه كان هانئاً بعيشه إلى حد كبير وقد أوصى أن تكتب هذه الأبيات على قبره حين يموت :

أإخواننا، والموت قد حال دوننا ... وللموتِ حكم نافذ في الخلائق
سبقتكُم للموت ، والعمر طية ... وأعلم أن الكل لا بد لاحقي
بعيشكم أو باضطجاعي في الثرى ... ألمْ نَكُ في صفو من العيش رائق
فمن مرّ بي فليمضِ بي مترحما ... ولا يك منسياً وفاء الأصادق

ترك ابن الزقاق مجموعة كبيرة من القصائد جمعت في ديوان ، مما يدل على ذيوع صيته منذ صغره . وفي كتب التاريخ الاندلسي مجموعات متناثرة من شعره . وقد اختلط الأمر على بعض المستشرقين بين ابن الزقاق وابن الرقاق فظنوا الرجلين واحداً . حتى كارل بروكلمان أخطأ في حديثه عن ابن الزقاق فجلعه مصرياً وليس أندلسياً.

***

تعرف لديوان ابن الزقاق أربع مخطوطات موجودة على النحو التالي :

١ ـ مخطوطة برلين ، ورقمها ٧٦٨١ في فهرس أهلوارد.
٢ ـ مخطوطة المكتبة الظاهرية في دمشق .
٣ ـ مخطوطة دار الكتب المصرية ورقمها ٤٦٤٦ أدب.
٤ ـ مخطوطة المكتبة التيمورية ، وتاريخ نسخها ١٢/١١/١٠٠٢ هـ .

وقد نشر الديوان محققاً عام ١٩٦٤ م وقامت بالتحقيق عفيفة محمود ديراني .
كما قام المستشرق الاسباني اميليو غرسيه غومث بنشر عدد من قصائده.

***

يكاد شعر ابن الزقاق يرقى إلى مرتبة الشعر الغنائي عند ابن خفاجة .

وهما يتشابهان منبتاً وبيئة وثقافة ، وكان ابن الزقاق تلميذاً نجيباً بارعاً لابن خفاجة وكانت بيئتهما شرقي الاندلس في بلنسية المنطقة الخصبة الوافرة الغلال الجميلة الطبيعة.

عاشت بلنسية أيام السلطة الاموية التي امتدت ثلاثة قرون منطقة مستقرة هادئة تتمتع بما يشبه الاستقلال الذاتي. ولم تبرز خلال تلك الفترة ثقافياً أو أدبياً شأن مثيلاتها من مدن الاندلس التي تألقت.

وحينما سقطت الخلافة الاموية عصفت الانقسامات بالاندلس وهبت رياح تلك الانقسامات على بلنسية .

ففي بداية عصر ملوك الطوائف ، اعتصم الصقالبة العامريون بمدينة بلنسية ، ثم ألحقت بمملكة طليطلة التي يحكمها بنو ذي النون .

وحينما ظهر المغامر الاسباني المعروف باسم السيد الكنبيطور ، اتخذ من بلنسية ومنطقتها مسرحاً لنشاطه ضد المسلمين، وتمكن من احتلال المدينة فترة من الزمن حتى تمكن المرابطون من استردادها بعد تضحيات كبرى، وقبل أن يغادرها السيد الاسباني وجيوشه هدموها وأحرقوها فأعاد المرابطون بناءها .

وعلى الرغم من سقوط طليطلة المبكر في أيدي النصارى عام ١٠٨٥ م إلا أن بلنسية بقيت في يد المسلمين أكثر من قرن ونصف بعد ذلك حتى عام ١٢٣٨ .

* * *

كانت بلنسية قد تعربت بسرعة وعمق فتغلغلت اللغة العربية وثقافتها بين السكان ، وجاءها الاستقرار الاموي والازدهار الاقتصادي والطبيعة الجميلة فأعطت ثمارها الأدبية طيبة وإن كانت متأخرة .

صحيح أن بلنسية لم تشهد نشاطاً أدبياً متطوراً إلا في عصر ملوك الطوائف والمرابطين ولكن هذا النشاط كان قوياً راسخاً ويكفي أنها عرفت

شاعراً عملاقاً كابن خفاجـة زعيم الوصف في الشعـر الاندلسي وشـاعر طبيعـة ممتازاً كابن الزقاق .

وليس بدعاً أن يطلق النقاد كلمة «الجنّان» على ابن خفاجة لإبـداعه في وصف الحدائق والرياض والأنهار . وكان ابن الـزقاق متـابعاً لخـاله العـظيم في موضوعاته وصوره الشعرية .

تكمن بـراعـة ابن الـزقـاق في تـلاعبـه الـرائـع بـالصـور من تشبيهــات واستعارات . وبعض هذه الصور قديم تقليدي ألبسه ابن الزقاق ثوباً جديداً ، وبعضه الآخر أندلسي النشأة أبدعه خيال الشعراء في بيئتهم الجديدة .

لقد أَلِف الشعر العربي تصوير الخدود بالورد واللحظ بـالسيف أو السهم والشعر الأسود بالليل والأسنان بالبرد والثغر بـزهرة الاقحـوان والدمـوع باللؤلؤ والخصـر بالغصن . ولكن هـذه الصور تتبـاين في مدى استخـدام الشعـراء لهـا وبراعتهم في تقديمها .

وفي الشعر الاندلسي نجد صور الطبيعة الجميلة : صفحة الماء كالزرد ، لـون الماء كـالفضة ، النسيم كـأنفاس الحبيبـة . . . وأبدع الشعـراء وتفننـوا في تصـوير دقـائق الطبيعـة ومظاهـرها وبخـاصة ابن خفـاجـة وابن حمـديس وابن الزقاق .

وفي الواقع فإن كثيراً من هذه الصور نلاحظه في الأدب الأسبـاني والآداب العالمية الأخرى لأن صور الطبيعة واحدة لدى الإنســان . ومحاسن المرأة واحدة بغض النـظر عن الجنسيات والبيئـات . ولكن هذه الصـور تكتسب بسـاطـة أو تعقيداً في أسلوب عرضها وفي اللغة التي تؤدى بها مما يجعلها تختلف من أدب إلى آخر ، ومن شاعر إلى سواه.

* * *

استـطاع ابن الزقـاق أن يتصرف بصـوره على نحـو مبدع متـطور ، وإن

كانت نقطة البداية في تلك الصور تقليدية . . لنستمع إليه في هذه الأبيات :

وريـاض من الشقـائق أضحى ... يتهـادى فيهـا نسيم الـريـاح
زرتهـا والـغـمـام يجلد منهـا ... زهـرات تـروق لـون الـراح
قيـل : مـا ذنبهـا ، فقلت مجيباً ... سـرقت حمرة الخـدود المـلاح

نـواة الصورة في هـذه الابيات : الخـدود بحمرتهـا تشبه شقـائق النعمان ولكن عرض الصورة جاء مبدعاً وبديعاً وقد أخـذ هذا العـرض طابعـاً قصصياً ومسـرحياً ، فشقـائق النعمان سـرقت لون الخـدود ، ومعاقبـة لها بدأ الغمـام يجلدها .

وأمثال هذه الصورة الممسرحة نجده كثيراً في شعر ابن الزقاق . لقد ألفنا تشبه الثغر بالأقحوانة ، ولنستمع إلى ابن الزقاق يقدم لنا تلك الصورة في قالب قصصي جميل :

وأغيدٍ طـاف بـالكؤوس ضحى ... فحثّهـا والصباح قـد وضحـا
والـروض يبدي لنـا شقـائقـه ... وآسـه العنبـري قـد نفـحـا
قلنـا : وأين الأقاح ؟ قـال لنا : ... أودعته ثغـر من سقى القـدحـا
فـظل سـاقي المـدام يجحـد مـا ... قـال ، فـلما تبسـم افتـضـحـا

* * *

يمكننا أن نضع لشعر ابن الزقاق إطاراً عـاماً هـو الوصف ، ويتفـرع عن هذا الإطار تفصيلات تقترب تـارة وتبتعد أخـرى : ويمكننا إيجـازها عـلى النحو التالي :

أولاً: وصف المرأة والتغزل بها:

تلوح في المعاني التي طرقها ابن الزقاق حول محاسن المرأة الصفات المثاليـة التي تناولها الشعر العربي في المرأة . . إلى جانب خصوصيات المرأة الاندلسيـة .

فالمرأة في شعر ابن الزقاق جمالها المثالي في كونها بيضاء البشرة ، منعمة، لا تمارس الأعمال اليدوية (نؤوم الضحى عند امرىء القيس) . هيفاء الخصر ، رواح مرتجة ، تمشي الهوينى متمايلة نشوى، ناعسة العنيين فاترة اللحظ فاتكته ، جذابة الثغر ، قد تندفع بنفسها إلى لقاء الحبيب إذا هو لم يأت إليها .

ولنتتبع هذه المعاني ضمن النصوص الشعرية التالية لابن الزقاق .

قال يصف محبوبته :

أرق نسيم الصبا عرفه ... وراق قضيب النقا عطفه

ومرّ بنا يتهادى وقد ... نضا سيف أجفانه طرفه

ومد لبسمه راحة ... فخلت الأقاحي دنا قطفه

أشار لتقبيلها بالسلام ... فقال فمي : ليتني كفه

ويشير ابن الزقاق في الأبيات السابقة إلى الطريقة العربية المستعملة أحياناً في التحية وهي التلويح باليد بعد أن يقوم الإنسان بتقبيل كفه .

أما سهام العيون فلها عنده ذكريات تثير الشجون :

ومقلة شادن أودت بنفسي ... كأن السقم لي ولها لباس

يسل اللحظ منها مشرفيا ... لقتلي ثم يغمده النعاس

ويجمع الشاعر في أبيات قليلة عدة صوراً لمحاسن المرأة ويركز على درّ ثغرها قائلاً :

ومرتجة الأعطاف مخطفة الحشا ... تميل كما مال النزيف من السكر

بذلت لها من أدمع العين جوهرًا ... وقُدماً حكى ما في الصيانة والستر

فقالت وأبدت مثله إذ تبسمت ... غنيت بهذا الدر عن ذلك الدرّ

ويصف ابن الزقاق هيف الخصر إلى درجة يمكن معها للسوار أن يحل به بدلاً من المعصم :

أسائلها :أين الوشاح، وقد غدت معــطلة منـه ، معــطرة النشــر
فقـالت ، وأومت للسوار ،نقلتـه إلى معصمي لما تقلقل في خصري

ويكرر الصورة التقليدية في الشعر العربي حينما يصف قوام المرأة :

ومـرتجـة الأرداف أمــا قـوامهــا فَلَدْن ، وأمــا رفـدهــا فــرداح

وهي لذلك تتمايل في مشيها:

أقبلت تمشي لنــا مشي الحُبــاب ظبيــة تفـتر عن مثــل الحَبــاب
كـلما مــال بهــا سكــر الـصبــا مــال بي سكــر هــواهـا والتصــابي

(والحُبـاب بضم الحاء هـو الثعبان ، يشـير بذلـك إلى ليونـة قدهـا . أما الحباب بفتح الحاء فهي فقاقيع الماء ، يشـير بذلـك إلى عذوبـة ثغرهـا وأسنانها النقية) .

ثانياً: وصف الطبيعة

يعـرض ابن الزقـاق في هـذا المجـال صـوراً بـارعـة الجمـال، وفيهـا من الابتكار أكثر مما في غزلياته . قال يصف ورداً في غدير ماء :

نـثر الورد بـالغـديـر وقـد درّجـه بــالهــبـوب مــرُّ الــريــاح
مثـل درع الكميّ مزقهـا الـطعنُ فـســالـت بــه دمــاء الجــراح

إنها حقاً صورة رائعة مبتكرة. وابن الزقاق مفتون بأمثال هذه التشبيهات القائمة على التمثيل المتشابك الواسع المتعدّد الجوانب.

وفي إحدى صوره الرائعة يصف شروق الشمس على صفحة البحر :

كــأن البحــر إذ طـلعت ذكــاء ولاح بمـتـنــه مـنهــا شعــاع
جيـوش في الســوابـع قـد تبـدى لـبيض الهـنــد بينهم الـتـمــاع

وفي صورة مقابلة يصف الأصيل بدلاً من الشروق فيقول:

وعشيـة لبست رداء شقيـق | تـزهـو بلون للخـدود أنيـق
أبقت بهـا الشمس المنيـرة مثلما | أبقى الحيـاء بـوجنـة المعشوق
لـو أستطيـع شـربتهـا كلفاً بهـا | وعـدلت فيهـا عن كؤوس رحيق
تسـري بكـل فـتى كـأن رداءه | خضـلاً بـأدمعـه رداء غـريق

ورأى زهرة جلنار فوق صفحة ماء صافية فأوحى له المشهد بهذه الصورة الفنية الرائعة:

وقرارة زرقاء رقّ صـفـاؤهـا | قـد ضم زهـر الجلنـار رداءهـا
فـاعجب لراح كـأسها من فضـة | مـا أن تسيل وقـد يسيل إناؤهـا

ويصف يوماً ممطراً فيوحي له بهذه الصور:

مـدمـع من أعـين المـزن سفـحْ | وحَمـام بذرى الأيـك صـدحْ
فـاجتـن اللذةَ في روض المـنى | بـين ريحـان وراح تـصـطبـح
وسـماء نـضحـت خـدّ الثـرى | بـدمـوع أسبلتهـا فـانتضـح
وكـأن الـبـرق في أرجـائـهـا | أرسلت نقـطا بـه قـوس قـزح

* * *

ثالثاً: وصف متنوع

لم يقف ابن الزقاق عند حدود وصف الطبيعة، بل نراه يصف الرماح وأسنتها في أيدي الفرسان، وصفاً فيه روح التقليد للمشرق وفيه براعة التجديد الأندلسي:

متسـربـلي قمص الحـديـد كـأنها | غـدران مـاء قـد مـلأن بـطاحـا
شبُّوا ذبال الـزرق في يوم الـوغى | فـأنـار كـل مـذرّب مصبـاحـا
سرج ترى الأرواح تطفىء حرها | عبثـاً وهـذي تـطفىء الأرواحـا
هبهـا تبدّت في الـظلام كـواكبـا | لِمْ لا تغـور مـع النجـوم صبـاحـا

هزّت متون صعادها فاستيقنت　　كأساً وضرّجت الجسوم جراحا
وجنى الكماة النصر من أطرافها　　لما انثنت بأكفها أدواحا
لاغرو أن راحت نشاوى واغتدت　　فلقد شربن دم الفوارس راحا

ويصف ابن الزقاق حمّاما، وفي ذلك دليل على القيمة الاجتماعية للحّمام كرمز للنظافة العامة، ودليل على اهتمام ابن الزقاق بكل ما يلفت انتباهه وتدل صورة الحّمام عنده على مدى تعلقه به وكأنه عاشق. . .

ربّ حمّام تلظّى　　كتلظي كل وامق
ثم أغرى عبرات　　صوبها بالوجد ناطق
فغدا مني ومنه　　عاشق في جوف عاشق

وفي قصائد ابن الزقاق وقفات كثيرة على مجالس الراح ووصف الساقي، وهو بذلك يقترب من أبي نواس في بعض صوره:

أديراها على الروض المندى　　فحكم الصبح في الظلماء ماضي
وما غربت نجوم الأفق لكن　　نقلن من السماء إلى الرياض

وحينما يصف الساقي يقول:

سقاني بها صرف الحميّا عشيّة　　وثنّى بأخرى من رحيق جفونه
هضيم الحشا ذو وجنة عند مية　　تريك قطاف الورد في غير حينه

ومن طريف قوله في الساقي:

سقتني بيمناها وفيها فلم أزل　　يجاذبني من ذاك أو هذه سكر
ترشفت فاها إذ ترشفت كأسها　　فلا والهوى لم أدر أيهما الخمر

* * *

على الرغم من العناية الفائقة لابن الزقاق بالوصف فإنه مرّ ببعض المعاني الأخرى، وهذه إحدى مراثيه يبكي بها محارباً سقط في المعركة:

ألا جزعت بيض السيوف على فتى | أعـزّ إذا مـا جـاز بـالسفــر غيّب
رمته المنـايا عندمـا عشي الوغى | وقــد جـعلت نـيــرانها تتـلهـب
وقالوا: لسـان السمهري أصـابه | بنجـلاء، لا حدّ الحسـام المذرب
فـوا عجبـاً للبحـر أودتـه نقــطة | وللقمـر الوضّـاح أوداه كـوكب

قصور ملوك الطوائف

في مطلع القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، تلاشى النفوذ الأموي الذي دام قرابة ثلاثة قرون، وتقسم الأندلس إلى دويلات حكمت كل منها مدينة وبلغ عدد تلك الدويلات أكثر من عشرين دويلة. وكان من أشهرها دولة بني عباد في اشبيلية، وبني جمهور في قرطبة، وبني ذي النون في طليطلة وبني الأفطس في بطليوس . . . الخ.

وقد رافق تلك المرحلة تمزق سياسي وضعف وانقسام استفاد منه النصارى الأسبان فانطلقوا يقتنصون المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، مما اضطر ملوك الطوائف إلى دفع الجزية للنصارى اتقاء لخطرهم الداهم.

واستمرت تلك المرحلة حتى دخل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين الأندلس وسحق جيوش الفونسو السادس ملك قشتالة في معركة الزلاقة المشهورة عام ٤٧٩هـ ـ ١٠٨٦م ويدأ بذلك عصر المرابطين.

* * *

ولعل الوجه الإيجابي الوحيد لعصر ملوك الطوائف يتمثل في التنافس الثقافي والأدبي والفني والعمراني، مما جعل تلك الفترة تشهد عدداً من كبار الشعراء والأدباء كابن زيدون وابن عمار وابن حمديس وغيرهم.

شهدت تلك المرحلة تسابقاً في بناء القصور وإغداق الأموال عليها

والاستقامة إلى الراحة والدعة والترف. وكأن العدو لا يتربص بالمدن الإسلامية ويتحين الفرصة للانقضاض عليها..

إن القصور الجميلة التي بناها ملوك الطوائف لم يقدر لبعضها أن يسكنها أصحابها إلا سنوات قليلة محدودة، ثم سقطت مدنهم بأيدي النصارى، كما حدث في طليطلة عاصمة بني ذي النون، التي سقطت بيد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥م.

* * *

أولاً: قصر المأمون بن ذي النون بطليطلة:

كانت طليطلة العاصمة القديمة لأسبانيا أيام حكم القوط قبل الفتح الإسلامي. ولموقعها أهمية بالغة ومركز معنوي كبير.

وحينما انهارت الدولة الأموية في قرطبة، انفرد بنو ذي النون بحكم طليطلة. وقام المأمون بن ذي النون ببناء قصر عظيم باذخ فيها عام ٤٥٥ هـ - ١٠٦٣م. أي قبل سقوط المدينة بيد النصارى بأقل من ربع قرن.

وقد أنفق عليه أموالاً طائلة ودارت حوله كثير من القصص التي تشبه الأساطير.

فمن ذلك أن بحيرة أنشئت وسط القصر وشيد في وسط تلك البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب. وأحكم المهندسون جلب الماء إلى أعلى القبة، ثم ينزل على جوانبها محيطاً بها، فكانت القبة محاطة بغلالة لا تتوقف عن الجري.

وكان في داخل القبة مجلس يقعد فيه المأمون من غير أن يمسّه الماء. وفي الليل توقد الشموع في القبة فيتحول منظرها إلى شعلة عجيبة.

وقد أورد ابن بسام في كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) وصفاً لبعض أجزاء هذا القصر نقلاً عن ابن حيان، الذي نقله بدوره عن ابن جابر الذي رأى القصر ووصفه بقوله:

«وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ـ مجلس المكرم ـ وأغرب ما قيد لحظي من بهي زخرفة كاد يحبس عيني عن الترقي عنه إلى ما فوقه ازاره الرائع الدائر بأسّه حيث دار، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون، الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة ونصاعة التلوين، قد خرمت في جثمانه صور البهائم وأطيار ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أفنان أشجار، وأشكال الثمر ما بين جاد وعابث، كما تعلق بعضها ببعض بين مُلاعب ومثاقف ترنو إلى من تأملها بألحاظ عاطف، كأنها مقبلة عليه أو مشيرة إليه. وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها، متميزة من شكلها، تكاد تقيد البصر عن التعلي إلى ما فوقها، قد فصل هذا الازار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير، محزم محفور، دائر بالمجلس الجليل من داخله، قد خطه المنقار أبين من خط التزوير، قائم الحروف بديع الشكل، مستبين على البعد مرقوم كله بأشعار حسان قد تخيرت من أماديح (المأمون) .

وفوق هذا الكتاب الفاصل في هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الأبريز، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار وصور أنعام وأشجار تذهل الألباب وتقيد الأبصار.

وأرض هذه البحار مدحوة من أوراق الذهب الأبريز، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير وأبدع تقدير.

ولهذه الدار بحيرتان قد نصبت على أركانها صور أسود مصوغة من الذهب الأبريز أحكم صياغة، تتخيل لمتأملها كالحة الوجوه، فاغرة الشدوق، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماءُ هَوْناً. وقد وضع في مقر كل بحيرة منها

حوض بديع يسمى المذبح ، محفور من بديع المرمر، كبير الجرم غريب الشكل بديع النقش، قد أبرزت من جنباته صور حيوان وأطيار وأشجار، وينحصر منها في شجرتي فضة عاليتي الأصلين غريبتي الشكل محكمتي الصنعة قد غرزت كل شجرة منها وسط كل مذبح بأدق صناعة، يترقى فيها الماء من المذبحين فينصبّ من أعالي أفنانها انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية، فتحدث لمخرجه نغمات تصبي النفوس، ويرتفع بذروتها عمود من الماء ضخم منضغط الاندفاع، ينساب من أفواهها ويبلل أشخاص أطيارها وثمارها بألسنة كالمبارد الصقيلة، يقيد حسنها الألحاظ الثاقبة ويدع الأذهان الحادة كليلة . »

يتضح من هذا الوصف مدى عناية مهندسي القصر بالبحيرات ونوافير المياه والزجاج الملون وخطوط الذهب، مما يعبر عن ترف كبير وبذخ ما فوقه بذخ .

استخدمت في بناء القصر صفوف متناوبة من الحجارة والآجر على غرار فن العمارة الأندلسي وكانت قبوات القصر متعارضة والعقود نصف دائرية، والزخارف مدجنة .

اندثر هذا القصر فيما اندثر، ويبدو أن بقايا منه لا زالت حتى اليوم في فحص نهر تاجه بطليطلة، ويدعوها الاسبان (قصر جاليانا) .

وجاليانا هذه فتاة اسطورية نسجها خيال القصص الأسباني وكانت الأسطورة تقول أن جاليانا هذه فتاة مسلمة كانت تعيش في القصر وقد تزوجها الأمبراطور شارلمان بعد مغامرات عجيبة .

* * *

ثانيا : قصر بني حمود بمالقة:

ينتهي نسب بني حمود إلى إدريس بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فهم أسرة عربية خالصة .

وقد عبر بنو حمود بحر الزقاق إلى الأندلس في مطلع القرن الخامس الهجري وساهموا بحظ وافر في إسقاط الدولة الأموية. وتلقب أحدهم وهو علي بن حمود بالخليفة الناصر وحكم لمدة عامين. وتبعه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ولكن ابن أخيه يحيى بن علي نازعه السلطة وزحف على قرطبة واستولى عليها وأطلق على نفسه اسم الخليفة المعتلي وقد تمكن من توسيع رقعة مملكته بسرعة واستمر في الحكم حتى عام ٤٢٨ هـ . ثم خلفه أخوه إدريس فوسع دولته أكثر وجاء بعده ابنه يحيى.

في تلك الفترة كان بنو عباد ملوك اشبيلية قد أخذوا يتوسعون على حساب الدويلات الأخرى فتمكنوا من انتزاع أكثر المناطق من يد بني حمود ثم جاء المرابطون فأنهوا حكم بني حمود.

* * *

على الرغم من انغماس بني حمود بالفتن والصراعات الداخلية فيما بينهم فإن يحيى بن علي قد أنشأ قصراً في مالقة، وأضاف بنو الأحمر بعض الإضافات على هذا القصر حينما حكموا جنوب الأندلس.

وكالعادة اندثر هذا القصر مع الزمن، ولم يظهر منه شيء إلى الوجود إلا عام ١٩٣٦م عندما كشفت الحفريات التي أجريت في مالقة عن قاعة من قاعات هذا القصر طولها ٧,٥م وعرضها ٣م. تطل بشرفة على البحر.

والجدران الداخلية للقاعة مزخرفة بأسلوب يماثل فن العمارة الأندلسي في القرن الخامس الهجري، بينما تقف جدرانها الخارجية فقيرة الزخارف.

ومدخل القاعة تزينه ثلاثة عقود، مكسوة بزخارف رائعة. وتظهر بجانبها بقايا رواق بناه بنو الأحمر.

وإلى الغرب من القاعة بناء مربع ضلعه ٢,٥م في كل واجهة منه عقدان

متقاطعان يعلوهما عقد ثالث من الجص الأملس.

وتشبه عقود القاعة وزخارفها إلى حد كبير زيادة الحكم المستنصر في مسجد قرطبة الجامع. أما عقود الشرفة المطلة على البحر فهي من الجص المتعدد الألوان، وتعتمد زخارفها على التوريقات النخيلية.

لقد كان كشف هذه القاعة من قصر بني حمود حدثاً أثرياً بالغ الأهمية لأنه أعاد إلى الوجود أثراً عمره يقترب من ألف سنة.

* * *

ثالثا: قصر الجعفرية بسرقسطة:

كان بنو هود من الأسر البارزة التي استقلت بالحكم أيام ملوك الطوائف بعد انهيار الدولة الأموية في قرطبة، واتخذوا من مدينة سرقسطة في أقصى الشمال عاصمة لهم. وشجعوا العلوم والآداب مما جعل الأدباء يسارعون إلى بلاطهم.

وحينما جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وضم دويلاتها إلى دولة المرابطين ترك لبني هود حرية ممارسة حكمهم في مناطق الشمال تقديراً لمواقفهم المشرفة في حروبهم ضد النصارى ودفاعهم عن الثغور الشمالية وكانت دولتهم أطول دول الطوائف عمرا.

ومن أبرز ملوك بني هود في سرقسطة أحمد المقتدر بالله ثم ابنه يوسف المؤتمن بالله وابن يوسف أحمد المستعين بالله الذي بلغت سرقسطة على يديه ذروة مجدها.

حكم المقتدر بالله أربعة وثلاثين عاماً. وخلال ذلك قام ببناء قصر

الجعفرية، وقد سمي بذلك نسبة إلى المقتـدر الملقب بأبي جعفـر وأطلق هو عـلى قصره اسم مجلس الذهب. ويروي المقري في نفح الطيب بيتين قالهـا المقتدر في القصر وهما:

قصـر السـرور ومجلس الـذهب بـكـما بـلـغـت نهايـة الأرب
لـو لم يحـز مـلكي خـلافـكـما كـانت لـدي كفـايـة الـطلب

وكبقية المباني الفاخرة الجميلة في عهد ملوك الطوائف، لم يقـدر لمن بنوهـا أن يتمتعـوا بها طـويلاً. فقـد سقطت سـرقسطة بيـد النصـارى عـام ٥١٣هـ ـ ١١١٩م.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح القصر ديراً نصرانياً. ثم حوله ملوك أرغون إلى قلعة حصينة مما جعل كثيراً من الزيادات العمرانية تضاف إليه وقد غير هذا شيئاً فشيئاً من معالمه السابقة.

وفي عام ٨٩٨ هـ ـ ١٤٩٢ م وهو عام سقوط غرناطـة وخروج المسلمـين منها. أُضيفت إلى القصر الحصن قاعة العرش، وكانت جميلة بديعة.

إن الذي يلفت النظر في كـل تلك الإضافـات التي حدثت حتى الآن أنها كانت إسلامية الطابـع أندلسيـة الطراز، لأن الفن المعمـاري الإسلامي الـرفيع فرض نفسه عـلى الأسبان في تلك المـراحل فـاستمروا يقلدونـه وينسجون عـلى منواله.

كـانت الضربـة الكبرى التي نـزلت بالقصـر هي تحويله إلى مقـر لإحدى محاكم التفتيش الرهيبة، فحفرت فيه الأقبية والسجون وأُقيمت حوله الخنادق.

وكانت الضربة الأعنف في عهد إيزابيلا الثانية عام ١٨٦٦ م حينما أمـرت الملكة بتحويله إلى معسكر اعتقال، وهدمت فيه مقصورته الكبرى بما فيهـا من جميل الزخارف الإسلامية. وبذلـك العمل الهمجي أُزيلت من الـوجود واحـدة

من أبرز ملامح الحضارة الإسلامية في الأندلس وتألم لذلك المفكـرون والمهتمون بالتراث الأندلسي.

ووصف المستشـرق جوميث مـورينو ذلـك بأنـه (عمل بـربري ينـدي له الجبين، من أشد النقط سواداً في تاريخ أسبانيا).

إن بقايا هذا القصر متناثرة الآن في متحفي سرقسطة ومـدريد عـلى شكل تيجان أعمدة وعقود جصية.

وإذا كان القصر قد تهدم وزال من الـوجود، فـإن هناك تصميـماً قد رسم لذلك القصر عام ١٧٥٧ م. ولا يزال هذا التصميم موجوداً، وفي ضـوئه يمكن تشكيل فكرة عن هذا القصر الرائع.

* * *

تقـع مدينـة سرقسـطة على نهر «أبرة» ويدعى بـالأسبانيـة «Ebro» الذي ينحدر من الجبال الشمالية ويصب في المتوسط.

وقد بني قصر الجعفرية على ضفة هذا النهر خارج مدينة سرقسطة.

يتألف السور الخارجي للقصر من مستطيل، طوله ٨٠ م وعرضه ٦٨ م بني عليه تسعة عشر برجاً أسطوانياً. يضاف إليها برج التكريم المربع الشكل.

وفي وسط هـذا السور صحن مستـطيل حـوله أروقـة جانبيـة تطل عليهـا مجموعتان من الغرف تتوسط كلًّا منهما قاعة.

أما القاعة الكبرى بجانب برج التكريم، فأغلب الظن أنها مجلس الذهب الذي كان محبباً إلى نفس المقتدر.

يتصل بهذه القاعة من أحد جوانبها مسجد مثمن الشكـل يقع محـرابه في الجزء الجنوبي الشرقي، وقبته قوقعية الشكل، ويشبه مدخله عقد مدخل جـامع قرطبة.

والجـدران الباقيـة في المسجد حـول المحراب مـزينة بعقـود صماء تحملهـا أعمدة ملتصقة بالجدران مزخرفة في أعاليها.

وزخـارف هـذا المسجـد الصغـير من أروع مـا أنتج الفن الإسـلامي في الأنـدلس، ولا زالت بعض الزخـارف مـوجـودة في متحف سـرقسـطة ومتحف مدريد.

ويقابل المسجد في الجانب الآخر من القاعـة الكبرى قـاعة أصغـر تدعى «قاعة الرخام» وقد سميت بذلـك نظراً لكثـرة ما فيهـا من الأعمدة الـرخاميـة. وزخارف هذه القاعة شاهد على المغالاة في الزخارف المعقـدة التي اتجه إليهـا فن العمارة الأندلسي في تلك المرحلة، واستمرت قائمة فيـها بعد في قصـور الحمراء في غرناطة.

كانت قاعة الرخام قد اختفت حينما بنى الأسبان أمـامها مقصـورة سميت مقصورة «سان جورج» وحينما تم هدم جزء من هذه المقصورة برزت من جديـد الزخارف الرائعة لقاعة الرخام التي تعتبـر مع المسجـد المقابـل لها آيـة من آيات الفن المعماري الأندلسي.

* * *

إن عصر ملوك الطوائف الذي كان انحـداراً سياسيـاً وعسكريـاً في تارخ الأندلس الإسلامي، كان من جهة ثانية يمثل نضوج المظاهر الحضـارية من أدب وشعر وثقافة وفن، وقدم كثيراً من أعلام الفكر والعمارة في التاريخ الإسلامي.

مسجد القصبة في إشبيلية «الجيرالدا»

اتخذ الموحدون مدينة «أشبيلية» عاصمة لهم في الأندلس. ومنذ البداية عملوا على توسيعها وتشييد المباني الفخمة فيها لكي تنافس قرطبة العاصمة الأموية العظيمة التي وقفت على قدم المساواة مع بغداد أيام عظمتها العباسية.

والآثار العمرانية للموحدين في أشبيلية والمدن الأندلسية أكثر من أن تحصى.

ظهرت فكرة بناء مسجد جامع في أشبيلية أيام الخليفة الموحدي الثاني يوسف بن عبد المؤمن يوازي وينافس جامع قرطبة الكبير. ولهذا كان جامع قرطبة مثالاً اقتدى به المهندسون الذين صمموا جامع أشبيلية.

كان الأمويون قد بنوا مسجداً في أشبيلية يطلق عليه إسم «مسجد عمر ابن عدبس» وذلك نسبة للذي أشرف على بناء ذلك المسجد، ولكن يوسف بن عبد المؤمن رأى أن هذا الجامع لم يعد يفي بحاجات أشبيلية، العاصمة المحببة إلى نفسه، والتي ولد فيها وعاش فيها طفولته وتأثر برقتها وطبيعتها الجميلة.

* * *

في شهر رمضان من عام ٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م، أمر الخليفة الموحدي أن يبدأ العمل ببناء المسجد، فتم لذلك تملّك الأبنية الواقعة في المكان المختار لبناء المسجد، وهدمت تلك الأبنية داخل حي القصبة وعوض أصحابها.

احتشد جميع العرفاء المشهورين في المغرب والأندلس وكان كبيرهم يدعى «أحمد بن باسة» وهو من مدينة أشبيلية. وتم الاستعداد الكامل للبناء من تهيئة

العمـال وتجهيـز المـواد الـلازمــة التي جلبت من المغـرب ومن مــدن الأنـدلس المختلفة.

كان الفن المعماري الموحدي يعتمد البساطة أساساً في كل عمـل، ولكن الاحتكاك بحضارة الأندلس جعل ذلك الفن مزيجاً من البساطة والزخرفة. وقـد كـانت الزخـرفة السمـة الأولى لفن العمارة الأنـدلسي، ذلك الفن الـذي يعتبر جامع قرطبة نمـوذجه الأكبـر والأول. بني المسجد بـطول /١٥٠/ متراً وعـرض /١١٠/ أمتار. ويضم بيت الصلاة ١٧ بلاطاً تتجه من الشمال إلى الجنـوب في اتجاه القبلة، مقلدة في ذلك مسجد قرطبة الكبير. وكالعادة كـان البلاط الأوسط أوسـع البـلاطـات /٧,٧٠/ م. أمـا البـلاطـات الأخــرى فسعـة كـل منهـا /٦,٤٠/م.

قامت عقود الجامع على دعائم من الآجـر تشبه دعـائم الصحن. وكانت هذه العقود متجاوزة منكسرة قليلاً، تنطلق مخارجها من مناكب الدعائم.

اتخذت السقوف أشكال هياكـل هرميـة، تتخللها ثـلاث قباب مقـرنصة تشبه قباب جامع الكتبية في مراكش، وقبة مقصورة سان فرناندو في جامع قرطبة الكبير، وقد وصف ابن صاحب الصلاة بناء القباب بقوله:

«واهتبل العرفاء واستغرقوا، وتحذّقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاهتبال في العمل بصفة الجبس».

وإلى يسار المحراب بني ساباط في الجـدار ليخرج منـه الخليفة إلى القصـر بعد تأدية الصلاة وفي ذلك شبه بجامع قرطبة.

أما عن يمين المحراب فيقوم المنبر.

ولكي تكتسب الجـدران الخارجيـة قوة ومنـاعة دعمت بـركائـز ضخمة. وفتحت في الجدران ثلاثة أبواب. أحدها يدعى باب الغفران، في الجزء الباطني

منه. وفي العقد الكبير المطل على الصحن في امتداد هذا الباب. أما الباب الشرقي ففوقه قبة المقرنصات الجميلة الرشيقة المحتفظة ببهائها وروعتها.

تقوم زخارف عقد باب الغفران على أشرطة بارزة فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها. ولها نظائر في قصور الزهراء وجامع قرطبة الكبير.

ويتألف الشريط الأوسط من تلك الزخارف من سعف النخيل الملساء بلا سيقان تطوقها خطوط محززة وتنحني أطرافها في تجعدات وتناسق وتلاحم. وكانت هذه الزخارف قد حفرت على طبقتين بصورة تسمح بإظهار التباين الواضح بين الظلمة والنور. ويطلق «مارسيه» على هذه الزخارف تسمية «الزخرفة الكثيفة».

تذكرنا هذه الزخارف بزخرفة محراب جامع توزر في تونس والذي يعود بناؤه إلى سنة ٥٦٠هـ ـ أي العصر الموحدي نفسه.

إذا كانت مساجد الموحدين الإفريقية قد غلب عليها طابع البساطة والتقشف متأثرة في ذلك بمذهب الموحدين ونظرتهم للحياة، فإن مسجد أشبيلية الموحدي تأثر برؤية الموحدين من جهة والفن الأندلسي من جهة ثانية، وفكرة منافسة جامع قرطبة الأموي الكبير من جهة ثالثة، لذلك جاء مختلفاً عن المساجد الموحدية في إفريقية باتساعه وروعة زخارفه. فهو من حيث الاتساع كان ضعف جامع الكتيبة في مراكش تقريباً واقترب من اتساع جامع قرطبة وهو من حيث الزخارف كان غنياً بزخارفه الأخاذة.

* * *

صومعة المسجد «الجيرالدا»

كان يوسف بن عبد المؤمن قد عهد لواليه على أشبيلية المدعو: «أبو داوود يلول بن جلداس» باستكمال بناء المسجد وتشييد صومعته، ومضى يوسف إلى

حملته المعروفة لحصار مدينة شنترين في البرتغال.

وقد توفي يوسف متأثراً بجراحه أثناء العودة من تلك الحملة، وتوفي بعده بعدة أشهر واليه أبو داوود. وبذلك توقف العمل ببناء الصومعة بعض الوقت.

بويع يعقوب بن يوسف بالخلافة بعد أبيه وتلقب بالمنصور. وهو في الحقيقة أبرز الخلفاء الموحدين وأعظمهم. وقد طلب المنصور من واليه على أشبيليه بناء صومعة المسجد. وأكد على ضرورة ارتفاعها أكثر من مئذنة جامع قرطبة التي كانت حتى ذلك الحين أعلى مئذنة في المغرب والأندلس.

تولى العمل كبير العرفاء أحمد بن باسة، ولكنه توفي قبل إكمال البناء فتلاه علي الغماري الذي استأنف العمل حتى ارتفعت المئذنة شامخة عملاقة وسط أشبيلية مشرفة على المدينة كلها والريف المحيط بها وقد رافق الانتهاء من بنائها (دام العمل بها حوالي عشرة أعوام) انتصار الموحدين الكاسح في معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥م. واحتفل الخليفة بانتصاره فأمر برفع التفاحات الذهبية الأربعة فوق قمة الصومعة.

وكانت هذه التفاحات مرفوعة على سفود مركب بأعلى المئذنة وهي تتدرج من الكبر إلى الصغر من الأسفل إلى الأعلى بحيث تكون شكلاً متناسقاً بديعاً. وقد أزيح الستار عن هذه التفاحات في احتفال مهيب فانتشر بريقها يأخذ بألباب الحاضرين.

لم يقدّر للمسلمين في الأندلس أن ينعموا بمسجدهم الكبير ومئذنته الباسقة أكثر من نصف قرن. فبعد معركة العقاب المدمرة عام ٦٠٩هـ ١٢١٢م وهزيمة المسلمين القاسية بدأت المدن الأندلسية تتساقط في أيدي النصارى الأسبان، وكان مصير أشبيلية الإسلامية السقوط بيد النصارى بقيادة فرديناند الثالث عام ٦٤٦هـ ـ ١٢٤٨م، بعد حصار دام أكثر من سنة ونصف، وقد طلب المسلمون أن يسمح لهم بهدم مسجدهم ومئذنته العظيمة فأجابهم القائد النصراني «سأقطع رقابكم جميعاً لو مسستم حجراً واحداً منها». وكما كان يحدث

دائماً، فقد حوّل فرديناند مسجد أشبيلية إلى كنيسة، أطلق عليها اسم «سانتا ماريا». ولم يغير الأسبان في بنائه أو مئذنته إلاّ بما يتفق مع شعائرهم. استمر المسجد على وضعه الموحدي حتى عام ٨٠٣هـ . ١٤٠٢م، حينما ضرب الزلزال مدينة أشبيلية فتصدع بناء المسجد، مما دفع المجلس الكنسي إلى هدمه وبناء كاتدرائية مكانه، ولم يبق من المسجد العظيم إلاّ عدة عقود حول باب الغفران والباب الشرقي. أما الصومعة الجبارة فلم تتأثر بالزلزال وبقيت شامخة. ولكن تفاحاتها الذهبية فقدت عام ٧٥٦هـ ـ ١٣٥٥م.

ضرب المدينة زلزالان آخران عام ٩٠٠ هـ ـ ١٤٩٤ م وعام ٩١٠ هـ ـ ١٥٠٤ م سقط على أثرهما الجزء الأعلى من المئذنة فقام المهندس «هرنان رويث» ببناء برج في أعلى الصومعة دام العمل به عشرة أعوام وتم بناؤها عام ١٥٦٨ م ونصب في أعلاه تمثال برونزي رمزاً نصرانياً نفذه «برتولومي موريل» وكان هذا التمثال يدور مع الرياح وارتفاعه ٤ أمتار. ولذلك أطلق على التمثال كلمة «جيرالديو Giraldillo » أي دوار الهواء. ثم تحول هذا الاسم إلى «جيرالدا Giralda» وأطلق على كل الصومعة منذ مطلع القرن الثاني عشر الهجري.

ومرة أخرى ضربت الزلازل صومعة الجيرالدا عام ١٨١٩ م وعام ١٨٨٤ م . ولكن المهندسين سارعوا إلى إصلاحها دائماً لكي تبقى معلماً أساسياً في مدينة أشبيلية يتوافد إليه ملايين السائحين كل عام.

* * *

يبلغ ارتفاع الجيرالدا اليوم /٩٣,٢٥/ متراً ويشمل ذلك الإصلاحات والإضافات على مر العصور. والجزء الإسلامي الباقي في الصومعة رغم الزلازل والهدم ارتفاعه /٦٩,٦٥/ متراً.
وقاعدة الصومعة مربعة الشكل طول ضلعها /٦,٢٥/ أمتار، وتتألف النواة الداخلية من سبع غرف فوق بعضها، وقد سقفت الخمسة السفلى منها بقباب

نصف كروية. ويدور حول النواة طريق صاعد بلا درجات يعتمد على انحدار متدرج مؤلف من /٣٥/ مقطعاً والجسم الخارجي تـزخرف بمخـرّمات متـوازنة بسيطة آية في دقتها ورقتها. ورغم ضياع الجسم العلوي من الصومعة الإسلامية فـإن الجسم السفلي البـاقي يمثل روعـة العمارة الإسلاميـة في تلك الفتـرة، وقد فرضت هذه الروعة نفسها على نصارى أسبانيا فلم يقومـوا بهدم الصـومعة كـما فعلوا بأكثر المساجد الإسلامية في المدن التي استولوا عليها.

وكما كان مسجد قرطبة الجامـع مثالاً معمـارياً اقتـداه مهندسـو المساجـد والقصور فيما بعد فقد أصبحت مئذنة جامع اشبيلية مثالاً أخذتـه بقيـة المباني في عصر الموحـدين وعصر بني الأحمـر في غرنـاطة، كـما نلاحظ أثر الفن المعماري لتلك المئـذنة في الكنـائس التي بنيت في تلك الفترة وقصـور ملوك النصـارى في أسبانيـا.

إن نظام الزخارف الذي اتبع في الجيرالـدا (في جسمها الخـارجي ونواتهـا الداخلية) يكشف بدقة عن التأثير البالغ الـذي انعكس على الفن المـوحدي من الفن الأنـدلسي. وكان لكثـرة عدد العـرفاء والمهنـدسـين وتنـوعهم أثـر في غنى الزخرفة وتعدد مصادرها. فنحن نـرى فيها أثـر جامـع قرطبـة ومباني سـرقسطة والمرية ومـالقة، ذلـك الأثر المتمثـل في الإفراط في الـزخارف الدقيقة المتنـاسقة المتوازية. والذي سنراه في قصور الحمراء بغرناطة بعد قرنين من الزمن.

شاعرات الأندلس

الجزء الثالث : (عصر الطوائف والموحدين)

توقفنا في محطة سابقة في مدينة غرناطة «دمشق الاندلس» بغوطتها وجبلها ونهرها . وكان لنا فيها لقاء مع نزهون بنت القلاعي الأديبة الشاعرة التي تمثل قيم المدينة المترفة في تلك الفترة .

وقبل أن نغادر غرناطة الجميلة الخضراء نعّرج على ريفها الساحر بوديانه وسهوله وغاباته وجباله لنلتقي هناك شاعرة أخرى كانت معاصرة لنزهون ، ولكنها على نقيضها في أسلوبها في الحياة وفي الشعر .

وشاعرتنا الآن هي **حمدونة بنت زياد**[1] واختها **زينب**.

ولدت حمدونة في بلدة «وادي آش» قرب غرناطة وأبوها زياد كان يدعى المؤدب . وقد أنشأ ابنتيه حمدونة «وكانت تدعى كذلك حمدة تدليلاً» وزينب على العلم والأدب حتى أصبحتا من أشهر شعراء الأندلس[2] وقد ظلمت كتب الأدب زينب فأغفلت ذكرها وألحقتها بأختها حمدونة ، فكلما ورد ذكر حمدونة قيل : وأختها زينب .

كان شعر الطبيعة في الاندلس قد وقف على قدميه واستمكن عوده لدى غير قلّة من الشعراء وكانت البيئة التي نشأت فيها حمدونة بما فيها من سحر

(١) الاحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب ج١ ص ٣١٥.
(٢) نفح الطيب ، المقري ج٤ ص ٢٨٢ وما بعدها.

وجمال وفتنة ومياه ووديان وخضرة دائمة، كانت كفيلة بأن توقظ في قلبها الموهبة وتحرك لسانها ببدائع الشعر .

ومن المؤسف جداً أن شعر حمدونة قد ضاع أكثره ولم تحفظ لنا كتب الأدب والتاريخ ديوانها ، وكذلك أختها زينب وما بقي لنا من شعرها إنما ورد في بعض الكتب متناثراً وبخاصة في نفح الطيب للمقري .

أطلق النقاد على حمدونة اسم «خنساء المغرب» كما أطلقوا عليها اسم «شاعرة الاندلس» وكان من عادة الاندلسيين أن يتشبهوا بالمشارقة في كتاباتهم وأعمالهم . ولذا نرى لقب متنبي المغرب يطلق على ابن هانىء ، وبحتري الاندلس على ابن زيدون وبشار الاندلسي على الأعمى المخزومي . . . الخ .

ولم تكن حمدونة شاعرة رثاء وبكائيات حتى يشبهها النقاد بالخنساء . إنما كان يشهد لها بالمقدرة ورفعة القدر كما يشهد للخنساء .

كانت حمدونة صورة أصلية لبيئتها النقية الطيبة الجميلة بما فيها من جمال طبيعة وبساطة عيش . وينقل لنا المقري في نفح الطيب عدداً من القطع الشعرية الرائعة لحمدونة منها ما يتعلق بوصف الطبيعة ومنها ما يتصل بالعواطف الإنسانية .

تقول حمدونة تصف وادي آش[1] منبتها الجميل :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ	سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا	حنوّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً	ألذ من المدامة للنديم
يصدّ الشمس أنّى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم

(١) نفح الطيب ، المقري ج٦ ص ٢٤ .

وهذه الأبيات على قصرها آية في الجمال والابداع الفني ، وهي من عيون شعر الطبيعة ليس في الاندلس فحسب بل في الشعر العربي عامة .

وقد أثيرت حول هذه الأبيات تساؤلات في مدى صحة نسبتها لحمدونة ففي «وفيات الأعيان» لابن خلكان[1] تنسب هذه الأبيات إلى شاعر يدعى أحمد ابن يوسف المنازي في القرن الخامس للهجرة (وكان تلميذاً لأبي العلاء المعري) .

ويدافع المقري في نفح الطيب عن نسبة هذه الأبيات إلى حمدونة[2] ويقول ما نصه حرفياً : « . . . وإن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد للمنازي من شعرائهم ، وركبوا التعصب في جادة ادعائهم وهي ابيات لم يحلبها غير لسانها (يقصد حمدونة) ولا رقم برديها غير إحسانها ، ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا وهي الأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود ويتصف بلفظة الموجود » .

وفي الوادي نفسه تقول حمدونة وقد رأت بعض الغيد يسبحن فيه فأعجبها ذلك وأطلق لسانها بالشعر :

أباح الدمع أسراري بوادي	له للحسن آثارٌ بوادي
فمن نهر يطوف بكل أرض	ومن روض يطوف بكل وادي
ومن بين الظباء مهاة أنس	سبت لبّي وقد ملكت فؤادي
لها لحظ ترقده لأمر	وذاك الأمر يمنعني رقادي
إذا سدلت ذوائبها عليها	رأيت البدر في أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق	فمن حزن تسربل بالحداد

هذه الأبيات في وصف الطبيعة ، والاستعانة بمحاسن الطبيعة لإضفائها

---

(١) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ج١ ص ١٢٦ .

(٢) نفح الطيب ، المقري ج٤ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

على المرأة إنما تجعل حمدونة شاعرة الطبيعة الأولى في الأدب الاندلسي ، ولذا كان الأجدر أن يطلق عليها لقب (صنوبرة الأندلس)[1] نسبة إلى الشاعر الشرقي أبي بكر الصنوبري المعروف بشاعر الطبيعة .

ومن جميل قول حمدونة في الغزل العفيف الذي عرفت به :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا   وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة   وقلّ حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وادمعي   ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

ورغم جمال تلك الأبيات ورقة معانيها فإن البيت الثالث منها موغل في تكلف الصنعة البديعية فقد عمدت الشاعرة إلى أسلوب (اللف والنشر) في قولها مقلتيك للسيف وأدمعي للسيل ، ونفسي للنار ، فجمعت الكلمات الثلاث الأولى على طريقة اللف ، ثم نشرتها بالكلمات الثلاث التالية : السيف والسيل والنار .

وتبقى حمدونة باعتراف سائر الادباء والمؤرخين شاعرة عفّة لم تنحرف عن جادة الادب الجيد ولم تنغمس في متاهات الحياة اليومية .

* * *

أم العلاء بنت يوسف الحجارية:

تحدثنا في محطة سابقة عن شاعرة من وادي الحجارة قرب مجريط «مدريد» وكانت تدعى حفصة الحجارية وها نحن الآن بعد قرن من تلك الشاعرة أمام شاعرة حجارية أخرى هي أم العلاء .

كانت أم العلاء استمراراً لحفصة الحجارية في غزلها العفّ الرصين المتأدب

(١) الادب الاندلسي ، مصطفى الشكعةص ١٥٥ .

قالت في أبيات غزل[1] :

كـل مـا يصـدر منكم حسن ... وبـعـليـاكـم تحـلى الـزمـن
تعـطف العـين عـلى منـظركم ... وبـذكـراكـم تـلذّ الأذن
مـن يعشْ دونـكـم في عـمـره ... فـهـو في نيـل الأمـاني يـغـبـن

وهذه المعاني في الواقع نجوى نفسية رقيقة بعيدة عن الغزل الحسي الذي نقرأه لبعض شاعرات الاندلس .

وقد خطبها يوماً رجل طاعن في السن فأجابته معتذرة مداعبة[2] :

الشيب لا يخـدع فيـه الـصبـا ... بـحيلة فـاسمـع إلى نـصحـي
فـلا تكن أجهـل من في الـورى ... يبيت في الجهـل كـما يـضحـي

ومن جميل قولها في الاعتذار[3] :

افهم مطارح أحوالي وما حكمت ... بـه الشـواهـد واعـذرني ولا تلم
ولا تـكـلني إلى عـذر أبيّنـه ... شرّ المعـاذيـر مـا يحتـاج للكلم
وكـل مـا جئتـه من ذلـة فبـما ... أصبحت من ثقة من ذلك الكرم

* * *

قسمونة بنت اسماعيل:

يهودية ورد ذكرها في نفح الطيب[4] في سياق شعراء غرناطة ، مما يغلب على الظن أنها كانت غرنـاطية ، ومعـروف أن غرنـاطة كـان فيها جـالية يهـودية واسعة أيام حكم المسلمين للاندلس .

---

(١) المغرب، ابن سعيد ج٢ ص ٣٨ .
(٢) نفح الطيب ، المقري ج٥ ص ٣٠١.
(٣) نفسه، ج٥ ص ٣٠١.
(٤) نفسه، ج ٥ ص ٣٠٢.

وقصتها مع الشعر بدأت حينما طلب أبوها أن تجيز بيتاً قاله وهو :

لي صاحب ذو بهجة قد قابلت نعمى بظلم واستحلت جرمها

فأجابته قسمونة :

كالشمس منها البدر يقبس نوره أبداً ويكسف بعد ذلك جرمها

ففرح بها والدها أعظم فرح وقام إليها يقبل رأسها .

كانت قسمونة جميلة ، ومع ذلك تأخر خاطبوها للزواج . فوقفت يوماً أمام المرآة تتأمل محاسن وجهها وتقول :

أرى روضة قد حان منها قطافها ولست أرى جان يمد لها يدا

ونظرت يوماً إلى ظبية لها فرأت فيها شبهاً من نفسها ، فقالت :

يا ظبية ترعى بروض دائما إني حكيتك في التوحش والحور
أمسى كلانا مفرداً عن صاحب فلنصطبر أبداً على حكم القدر

* * *

أسماء العامرية[1]:

من مدينة أشبيلية . ويروى لها أبيات أرسلتها لعبد المؤمن بن علي أمير الموحدين تستعطفه وترجو الإفراج عن أموال لها فتقول :

عرفنا النصر والفتح المبينا لسيدنا أمير المؤمنينا
إذا كان الحديث عن المعالي رأيت حديثكم فينا شجونا
رويتم علمه فعلمتموه وصنتم عهده فغدا مصونا

* * *

(١) نفح الطيب ، المقري ج ٥ ص ٧٣.

الشلبية [1]:

عاشت بين القرنين السادس والسابع للهجرة ، لم يذكر الرواة اسمها الحقيقي واكتفوا بنسبها إلى مدينة «شلب» غربي الاندلس .

ويروي لها النفح نصاً جريئاً تخاطب به يعقوب المنصور أحد سلاطين الموحدين تشكو ظلم صاحب الخراج ببلدها وقد استجاب المنصور لشكواها وأمر برفع الظلم عن بلدها. تقول في أبياتها:

قد آن أن تبكي العيون الآبية	ولقد أرى أن الحجارة باكيهْ
يا قاصد المصر الذي يرجى به	إن قدَّر الرحمن رفع كراهيهْ
ناد الأمير إذا وقفت ببابه :	يا راعياً إن الرعية فانيهْ
أرسلتها هملاً ولا مرعى لها	وتركتها نهب السباع العاديهْ
«شلب» كلا شلب وكانت جنة	فأعادها الطاغون ناراً حاميهْ
خافوا وما خافوا عقوبة ربهم	والله لا تخفى عليه خافيهْ

***

أم الهناء القرطبية [2]:

والدها القاضي أبو محمد بن عبد الحق بن عطية . وأبوها كان شاعراً وهو صاحب البيتين المشهورين في وصف قرطبة .

بأربعٍ فاقت الأمصار قرطبة	وهنّ قنطرة الوادي وجامعها
هاتان اثنتان ، والزهراء ثالثة	والعلم أكبر شيء وهو رابعها

ولأم الهناء أبيات جميلة في الغزل العفيف تقول فيها :

---

(١) نفح الطيب ، المقري ج٦ ص ٢٨ .

(٢) نفسه ، ج ٦ ص ٢٩ - ٣٠ .

جـاء الكتـاب من الحبيب بـأنـه سيـزورني فـاستعبـرت أجفـاني

غلب السـرور عـليّ حـتى أنــه من عـظم فـرط مســرتي أبكاني

يا عين صـار الدمـع عندك عـادة تـبـكـين في فــرح وفي أحــزان

فـاستقبلي بـالبشـر يـوم لقـائـه ودعي الـدمـوع لليلة الهجـران

* * *

حفصة الركونية[1]:

واسمها الكامل حفصة بنت الحاج . شاعرة الأندلس في القـرن السادس للهجرة[2]. ويرى المستشرق لويس دي جياكومو أن ولادتها كـانت سنة ٥٣٠ هـ ١١٣٥ م وأنها غالباً كانت في غرناطة .

ورغم الاختـلاف حول مكـان ميلادهـا[3] ، إلا أن الواضـح أنها نشأت وعاشت في غرناطة وملأت آفاق القرن السادس الهجـري أدباً وسمعـة ، شأنها في ذلك شأن ولاّدة في قرطبة خلال القرن الخامس للهجرة .

وأوجه الشبه بين حفصة وولاّدة كبيرة ، إلا أن حفصة لم تكن أميـرة من بيت الملك والسلطة . كانت حفصة ذات جمال وثقافـة وقوة شخصيـة ، وكانت أسرتها معروفة وإن لم تكن حاكمة . ولذا اختارها أمير غرناطة الموحـدي لتكون معلمة ومؤدبة لنساء بني عبد المؤمن (الاسرة الحاكمة في المغرب والاندلس) .

كـما كان لـولادة قصة حب خـالدة مـع الشاعـر ابن زيدون ، فقـد كـان لحفصة قصة حب مماثلة مع شاعر وزير كابن زيدون هو أحمد بن سعيد وزير بني عبد المؤمن في غرناطة .

وكـما كان لابن زيـدون منافس في حب ولاّدة هـو الوزيـر ابن عبدوس ،

---

(١) نفح الطيب، المقري ج ٥ ص ٣٠٣ وما بعدها .

(٢) الاحاطة ، ابن الخطيب ج ١ ص ٣١٦.

(٣) الشعر النسوي في الاندلس الريسوني ص ١١٩ .

فقد كان لابن سعيد منافس في حب حفصة هو عثمان بن عبد المؤمن بن علي أمير دولة الموحدين .

وإذا كان حب ابن زيدون لولّادة ومنافسة ابن عبدوس له قد آلا به إلى السجن والنفي والاغتراب ، فإن حب ابن سعيد لحفصة قد أفضى به أخيراً إلى القتل على يد أمير الموحدين .

كانت حفصة وفية لابن سعيد ، مخلصة في حبها كل الاخلاص ، مقيمة على إخلاصها مدى حياتها ، وكان أبو جعفر بن سعيد يبادلها الشعور نفسه بإخلاص صادق .

أما علاقتها بالأمير الموحدي فقد كان علاقة مجاملة ومداورة واتقاء لبأس السلطان ، وما قالته من شعر في الأمير الموحدي إنما يمثل ظاهرة المديح لا الغزل ، بعكس ما قالته في الوزير الشاعر ابن سعيد .

ولعل الأبيات التالية تظهر موقفها من الأمير الموحدي ، فلقد دخلت عليه القصر يوماً فارتجلت :

يا سيد الناس يا من ... يؤمل الناس رفده
امنن عليّ بطِرْسٍ ... يكون للدهر عدّه
تخُطُّ يمناك فيه ... «الحمد لله وحده»

وعبارة « الحمد لله وحده» كانت شعار دولة الموحدين ، ولذا تتجلى براعة حفصة في تضمينها تلك العبارة داخل أبياتها .

إذا نحن بحثنا في علاقة حفصة بابن سعيد الوزير لرأيناها علاقة حب خالص ووداد مقيم وشعر متبادل .

أرسل ابن سعيد إليها ذات مرة يصف لقاءهما في بستان في منطقة (حور مؤمل) :

رعى الله ليلاً لم يرح بمذمم عشية وارانا بِحَوْرِ مؤمل[1]
وغرّد قمريّ على الدوح وانثنى قضيب من الريحان من فوق جدول

فأجابته حفصة وهي تخالفه الرأي إذ ترى أن الروض ليس مسروراً بلقائهما بل يغار منهما ويحسدهما :

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا ولكنه أبدى لنا الغلّ والحسد
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا ولا غرّد القمري إلا لما وجد

ولعل في هذين البيتين تصوير لشعور المرأة القائم على الغيرة ، والمبالغ في هذه الغيرة أحياناً . ومن جميل شعر حفصة في هذا المقام قولها[2] :

أغار عليك من عيني رقيبي ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني وضعتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني

وتتجاوز حفصة في جرأتها شواعر الاندلس الأخريات ، بل تتجاوز ما يجب أن تتحلى به الانثى من أطار التمنع والحشمة . فتكتب إلى الوزير ابن سعيد[3] :

أزورك أم تزور فإن قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميل
وقد أمنت أن تظما وتضحي إذا وافى إليّ بك القبول
فعجل بالجواب فما جميل أناتك عن «بثينة» يا «جميل»

ويجيبها ابن سعيد جواباً رقيقاً يقول فيه :

أجلّكمْ ما دام بي نهضة عن أن تزوروا إن وجدتُ السبيل
ما الروض زوارا ولكنما يزوره هبّ النسيم العليل

---

(١) نفح الطيب ، المقري ج٥ ص ٣٠٩/٣١٠.
(٢) نفسه، ج ٥ ص ٣٠٨.
(٣) المغرب، ابن سعيد ج ٢ ص ١٦٤ .

ويروي المقري في نفح الطيب أحاديث مطولة عن لقاءات الشاعرين حفصة وابن سعيد، والقصائد الرقيقة المتبادلة بينهما.

ولا بد من لحظات خصام ونكد كما حدث بين ولّادة وابن زيدون. فقد سعى بعض الوشاة لدى حفصة أن ابن سعيد يهوى فتاة سوداء، فثارت غيرة المرأة في حفصة وأرسلت إليه ساخرة:

يا أظرف الناس قبل حالٍ	أوقعه نحوه القدر
عشقت حسناء مثل ليلٍ	بدائع الحسن قد ستر
لا يظهر البِشْرُ في دجاها	كلاّ ولا يبصر الخفر
بالله قل لي وأنت أدرى	بكل من هام في الصور
من الذي هام في جنان	لا نور فيها ولا زهر

ولكن الجفوة سرعان ما تزول ويعود حبل الوداد متصلاً بين المحبوبين، وترسل إليه حفصة قائلة:

سار شعري لك عني زائرا	فأعر سمع المعالي شنفه
وكذاك الروض إن لم يستطع	زورة أرسل عنه عرفه

فيجيبها ابن سعيد:

قد أتانا منك شعر مثلما	أطلع الأفق لنا أنجمه

ثمّ كانت النكبة، وقتل الوزير ابن سعيد، قتله الأمير الموحدي عثمان ابن عبد المؤمن، ولقتله قصة ترويها كتب التاريخ ومجملها أن ابن سعيد قال لحفصة يوماً، في معرض غيرته من الأمير الموحدي: «ما تحبين في ذلك الأسود، وإني أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه»[1].

وقد وصلت المقالة للأمير. فتحين الفرص للإيقاع بالوزير إلى أن خرج عبد الرحمن بن سعيد أخو الوزير أبي جعفر على الأمير الموحدي والتحق بأحد

(١) المغرب، ابن سعيد ج ٢ ص ١٦٤.

الثائرين ضد دولة الموحدين ، فوجدها الأمير فرصة وأمر بقتل وزيره أبي جعفر .

كان مصرع أبي جعفر أقسى من أن تستطيع حفصة احتماله ، ولكن كتب الأدب والتاريخ لا تروي لنا إلا النزر اليسير مما قالته في رثائه ، ولعل مرد ذلك إلى تخوف حفصة من الأمير عثمان وحرصها على عدم وصول تلك المراثي إليه .

وقد أورد المقري بعض أبياتها في رثاء الوزير أبي جعفر وفيها حرقة ولوعة وأسى صادق. تقول حفصة باكية أبا جعفر:

ولو لم تكن نجماً لما كان ناظري ... وقد غبت عنه مظلماً بعد نوره
سلام على تلك المحاسن من شجٍ ... تناءت بنعماه وطيب سروره

وتقول في مقام آخر:

هددوني من أجل لبس الحداد ... لحبيب أردوه لي بالحِداد
رحم الله من يجود بدمع ... أو ينوح على قتيل الأعادي
وسقته بمثل جود يديه ... حيث أضحى من البلاد الغوادي

وتنتهي حياة حفصة في مراكش عاصمة الموحدين سنة ٥٨٦ للهجرة بعد أن تركت دوياً في أرجاء الادب والمجتمع خلال القرن السادس الذي عاشت فيه .

* * *

إن ما ورد من ذكر للشاعرات الاندلسيات إنما كان على سبيل المثال لا الحصر ، وهناك أعداد كبرى من الشواعر لا سبيل إلى الحديث عنهن لقلة ما تركن من آثار أو ندرة ما ورد عنهن من أخبار .

وفي نفح الطيب للمقري مجال واسع للاطلاع على أخبارهن.

البحرية في الشعر الأندلسي

لمحة تاريخية:

كان الرومان يفرضون نفوذهم البحري على المتوسط قبل ظهور قوة المسلمين.

ومنذ منتصف القرن الأول الهجري تمكن المسلمون في شرقي المتوسط من قهر الروم وبسط سيادتهم على هذا الجزء من البحر وفتح جزر قبرص ورودس وسواهما.

وبلغت البحرية الإسلامية في المشرق ذروة قوتها في حصار القسطنطينية الثاني عام ٩٨هـ ٧١٦م في خلافة سليمان بن عبد الملك. وقد حشد المسلمون آنئذ ١٨٠٠ سفينة محملة بالجند والمؤن.

أما في الحوض الغربي للمتوسط، فقد تولى أمويو الأندلس بناء أساطيل بحرية قوية وكان ذلك العمل ضرورة عسكرية وسياسية، نظراً لطول شواطىء الأندلس على المتوسط والأطلسي ووقوع جبل طارق بينهما بأهميته البالغة.

لم يتمكن عبد الرحمن الداخل من بناء الأسطول نظراً لانشغاله بقضاياه الداخلية وتثبيت أركان دولته. فلما كان عهد حفيده الحكم بن هشام، بدأت طلائع الأسطول الأندلسي تظهر في المتوسط، واكتملت قوة هذا الأسطول في عهد عبد الرحمن الأوسط ٢٠٧ ـ ٢٣٨هـ. وقد بنى عبد الرحمن في أشبيلية داراً

لصناعة السفن ووضع نظاماً لجنود البحر وأسلحتهم وتموينهم ورواتبهم.

فهو في الواقع المؤسس الحقيقي للقوة البحرية الأندلسية.

وحينما وصل عبد الرحمن الناصر إلى سدة الخلافة ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ أصبح الأسطول الأندلسي قوة جبارة فرضت سيادتها المطلقة على غربي المتوسط بشكل تام وفتح سائر الجزر في تلك المنطقة وألحقها بالحكم الاسلامي.

وقد أطلق المسلمون على قائد الاسطول كلمة «أمير البحر» ومنها تحرفت الكلمة اللاتينية «أميرال» المنتشرة في أكثر اللغات الأوربية اليوم.

* * *

تحدثنا المصادر التاريخية عن قوة الأسطول الأندلسي وإسهامه في فتح صقلية، بل امتداد نفوذه إلى شرقي المتوسط وذلك بفتح جزيرة «كريت» التي كانت خاضعة للبيزنطيين، بقيادة أمير البحر الاندلسي «أبي حفص عمر بن شعيب البلوطي» كما فتح الأسطول الأندلسي سردينيا بقيادة أمير البحر أبي خروب.

* * *

من الطريف هنا أن نشير إلى بعض الروايات عن البحرية الأندلسية وما فيها من قصص المغامرات.

يروي الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق» أن ثمانية فتيان أبناء عم، أبحروا من ميناء «أشبونة» وهي ليشبونة الحالية عاصمة البرتغال، وانطلق هؤلاء الفتيان في رحلة عبر الظلمات (المحيط الأطلسي) دامت عدة أشهر، وعادوا بعد أن يئس الناس من عودتهم.

كما يروي المستشرق الأسباني «خوان بيرنيت» في كتابه «البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس » حكايتين طريفتين من هذا القبيل:

الأولى: أن بحاراً عربياً أندلسياً يدعى «خشخاش» أبحر في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي إلى غربي بحر الظلمات وأنه وصل إلى إحدى جزر البحر الكاريبي في أمريكا الوسطى.

والثانية: ان البحار العربي الأندلسي «محمد الجاوي» قد أبحر عبر الأطلسي في القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي ووصل إلى جزر الكاريبي والساحل الأمريكي سابقاً بذلك كريستوف كولومبس بأكثر من قرن كامل.

* * *

ومن المؤسف جداً أن نشير هنا إلى الصراع البحري العنيف بين قوتين إسلاميتين في غربي المتوسط هما الأمويون في الأندلس والفاطميون في الشمال الأفريقي. وكان المستفيد الوحيد من ذلك الصراع هو أوربا النصرانية.

* * *

شعر المعارك البحرية:

لعل أبرز شعراء الأندلس والمغرب في هذا المضمار هو ابن هانىء الأندلسي، وفي المشرق كان مسلم بن الوليد المعروف بلقب «صريع الغواني» قد وصف معركة بحرية تخوضها سفينة فقال:

تجافى بها النوتي حتى كأنما	يسير من الإشفاق في جبل وعر
أطلت بمجدافين يعتورانها	وقوتها كبح اللجام من الدُّبْر
فحامت قليلاً ثم مرت كأنها	عُقاب تدلت من هواء على وكر

* * *

أما ابن هانيء الأندلسي فقد كان معاصراً للمتنبي في الشرق، وقد آثر ابن هانيء الانضمام للفاطميين ومديحهم، وأصبح شاعر المعز الفاطمي.

بنى المعز الفاطمي أسطولاً قوياً خاض به عدة معارك ضد الروم في غربي المتوسط وشرقه. ولهذا الاسطول أمجاد عظيمة في معاركه ضد الروم واقتحامه الموانيء الأوربية ومطاردته أساطيل الأوربيين. ومن أشهر معاركه، اقتحام «جنوه» في ايطاليا عام ٣٢٣هـ ٩٣٤م ومعركة «المجاز» ضد اسطول نقفور امبراطور الروم عام ٣٥١هـ - ٩٦٣م.

ولكن من المؤسف أن هذا الاسطول الفاطمي الكبير قد قام بغارة مفاجئة غادرة على ميناء «المرية» الأندلسي الاسلامي وأغرق أكثر سفن الأسطول الأندلسي في عهد عبد الرحمن الناصر ودمر المدينة وميناءها.

قال ابن هانيء يصف أسطول المعز الفاطمي:

أما والجواري المنشآت التي سرت	لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما ترجى القباب على المها	ولكن من ضمت عليه أسود
مواخر في طامي العباب كأنه	لعزمك بأس أو لكفك جود
أنافت بها أعلامها وسمالها	بناء على غير العراء مشيد
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج	كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق	وأفواههن الزافرات حديد

* * *

في قرطبة كان الحاجب المنصور بن أبي عامر قد بلغ من القوة مبلغاً كبيراً وبنى جيشاً قوياً وأسطولاً هائلاً وأنفق حياته في جهاد متصل ضد النصارى الأسبان. وفي عهد المنصور برز الشاعر الأندلسي الكبير ابن دراج القسطلي وله في وصف البحر والأسطول أكثر من قصيدة.

قال في معرض مديحه «خيران العامري» أحد قادة المنصور:

إليك شحنّا الفلك تهوي كأنها ... وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان
على لجج خصر إذا هبت الصبا ... ترامى بنا فيها ثبير وشهلان
إذا غيض ماء البحر منها مَدَدْنه ... بدمع عيون يمتريهن أشجان
وإن سكنت عنا الرياح جرى بنا ... زفير إلى ذكر الأحبة حنّان
كواكب إلا أن أفلاك سيرها ... زمام ورحل، أو شراع وسكان

ولابن دراج قصيدة لامية يصف فيها أسطول المنصور:

تحمل منه البحر بحرًا من القنا ... يروع بها أمواجه ويهول
إذا سابقت شَأْوَ الرياحِ تخيلت ... خيولاً مدى فرسانهن خيول
سحائب تزجيها الرياح فإن وفت ... أنافت بأجياد النعام فيول

* * *

في عصر ملوك الطوائف، كان للمعتصم بن صمادح ملك المرية أسطول قوي وقد وصفه الشاعر ابن الحداد وركز في وصفه على واحدة من السفن قامت بأعمال حربية مجيدة فقال:

هام صرف الردى بهام الأعادي ... أن سمت نحو هم لها أجياد
ذات هدب من المجاذيف حالٍ ... هدبَ باك لدمعة اسعاد
حم فوقها من البيض نار ... كل من ارسلت عليه رماد

* * *

بلغ الموحدون ذروة القوة السياسية والعسكرية وأسسوا دولة مترامية الأطراف وبنوا أسطولاً ضخماً هزم الروم في أكثر من معركة. ومن شعرائهم أبو الحسن القرطبي الذي وصف إحدى المعارك البحرية أيام الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي بعد عبوره المضيق إلى الأندلس. ومن قوله في قصيدة له:

حدّث عن الروم في أقطار أندلسٍ — والبحر قد ملأ العبرين بالعرب
يرمي بهم ظهر طرف بطن سابحة — تقلب السيف بين الماء واللهب
وتعبر الماء منهم نار عادية — يصلى بها عابد الأوثان والصلب
وطور طارق قد حلّ الإمام به — كالطور كان لموسى أيمن الرتب

* * *

وحتى أيام الانحسار الإسلامي الكبير في دولة بني الأحمر في غرناطة يصف الشاعر والمفكر الكبير والوزير لسان الدين بن الخطيب الاسطول الأندلسي لبني الأحمر فيقول:

الحق يعلو والأباطل تسفل — والله عن أحكامه لا يُسأل
واستقبلتك السابحات مواخراً — تهوي إلى ما تبتغي وتؤمل
هن الجواري المنشآت قد اغتدت — تختال في برد الشباب وترفل
من كل طائرة كأن جناحها — وهو الشراع به الفراخ تظلل
وطلعن منك على البلاد بطارق — للفتح والنصر الذي يستقبل
وبقية من قوم عادٍ أهلكوا — ببقية الريح العقيم وجدّلوا

ويلاحظ إصرار الشعراء على تشبيه ممدوحهم بطارق بن زياد الذي ظل رمزاً للبطولة الخارقة على مدى التاريخ. كما يلاحظ تأثر ابن الخطيب بالعبارات القرآنية في قوله: «قوم عاد أهلكوا». وإشارته إلى الريح الصرصر العاتية بقوله: «ببقية الريح العقيم وجدلوا».

* * *

المهرجانات البحرية:

جرت العادة في الموانىء الأندلسية أن تنظم مهرجانات ترافقها زينات واحتفالات وعرض بحري ومناورات وتدريبات.

ومن أبرز الشعراء الذين وصفوا ذلك ابن اللبانة في عصر ملوك الطوائف والذي كان من شعراء المعتمد بن عباد، ثم هاجر إلى جزيرة ميورقة بعد نكبة المعتمد، وهناك أصبح شاعر الأمير مبشر العامري.

قال ابن اللبانة يصف مهرجاناً بحريا:

بشرى بيوم المهرجان فإنه ... يومٌ عليه من احتفائك رونق

وعلى الخليج كتيبة جرارة ... مثل الخليج كلاهما يتدفق

وبنو الحروب على الجواريّ التي ... تجري كما تجري الجياد السبق

خاضت غدير الماء سابحة به ... فكأنما هي في سراب أسبق

هزت مجاذيفاً إليك كأنها ... أهداب عين للرقيب تحدِّق

وفي الموضوع نفسه يقول الشاعر ابن محمد الأيادي:

لبست به الأمواج أحسن منظر ... يبدو لعين الناظر المتعجبِ

شرعوا جوانبها مجاذف أتعبت ... شادي الرياح به ولما تتعب

والبحر يجمع بينها فكأنه ... ليل يقرب عقرباً من عقرب

ولها جناح يستعار يُطيرها ... طوع الرياح وراحة المتطرب

يتنزل الملاح منه ذؤابة ... لو رام يركبها القطا لم يركبِ

وكأنما جِنّ ابن داوود هُمُ ... ركبوا جوانبها بأعنف مركب

ويبلغ لسان الدين بن الخطيب في عهد بني الأحمر ذروة الدقة في وصف المهرجان البحري على الرغم من قلة عدد الأبيات في قوله:

ومجْريّ تلاعب في شريط ... رضيّ الفعل متصل الصوت

تدلّى وارتقى وسما وأهوى ... وأعجب في التماسك والثبوت

وقلت إن يكن بشرا سويا ... ففيه غريزة من عنكبوت

* * *

وصف السفن الحربية:

تعددت أشكال السفن الحربية وحجومها بحسب طبيعة عملها في المعركة.

فهناك سفن للدفاع وأخرى للهجوم، وسفن تصلح للدفاع والهجوم. وهناك سفن تموين وإمداد، وسفن لنقل الخيل، وسفن لإلقاء المواد المحرقة، وسفن سريعة وأخرى بطيئة . . . . . وهكذا.

وقد أطلق الأندلسيون على كل نوع من السفن تسمية معينة. وأهم هذه التسميات «الشواني». ومفردها شونة. وهي من أبرز القطع الحربية في الأندلس وكان لها /١٤٤/ مجدافاً وتدهن بالقار الأسود لذلك كانت تدعى بالغربان أما قلوعها فلونها أبيض.

قال ابن حمديس الشاعر الأندلسي الكبير، الصقلي الأصل، يصف الشواني:

أنشأتَ شوانيَ طائرةً	وبنيْتَ على ماءٍ مُدُنا
ببروجِ قتالٍ تحسَبُها	في شمٍّ شواهِقِها قِنَنا
ترمي ببروجٍ إن ظهرَتْ	لعَدُوٍّ محرقَةً بطنا
وبنفطٍ أبيضَ تحسَبُهُ	ماءً وبه تُذكي السكَنا

إنه يشبه الشونة الضخمة بمدينة راسية فوق الماء، وهي طائرة بسرعتها أما بروجها فهي مثل قمم الجبال.

ويصف الشاعر آخر الشواني معجباً بها. وهو القاضي ابن غالب من شعراء القرن الثامن الهجري في بلاط بني مرين في المغرب فيقول:

شواني تحكيها انقضاضا شواهنٌ	وإن صرصرت يوماً حكاها صريرها
وإن قيل غربان فمن أجل أنها	نواعب أرواح العدا اذ تغيرها
لها صفحات الماء مثل صحائف	وتلك الجواري المنشآت سطورها

ويصف ابن الابار واحدة من الشواني مشبهاً إياها بحصان أدهم أصيل فيقول:

يا حبذا من بنات الماء سابحة	تطفو لما شب أهل النار تطفئه
تطيرها الريح غربانا بأجنحة	م الحمائم البيض للأشواك ترزؤه
من كل أدهم لا يُلغى به جرب	فما لراكبه بالقار يهنؤه
يدعى غرابا وللفتخاء سرعته	وهو ابن ماء وللشاهين جؤجؤه

* * *

ومن السفن الأندلسية «الحرابي» ومفردها حربية . وهي أصغر من الشواني وأسرع وأخف وهي لذلك تستخدم في الهجوم كما تستخدم في المطاردة.

قال ابن حمديس الصقلي يصف حربية:

رأوا حربية ترمي بنفط	لإخماد النفوس له استعار
كأن منافس البركان فيها	لأهوال الجحيم به اعتبار
نحاس ينبري منه شواظ	لأرواح العلوج به بوار

ويبدو أن الشاعر الكبير ابن حمديس كان مفتوناً بهذا النوع من السفن الحربية فهو لذلك يصف الحربية في أكثر من مناسبة:

وحربية ترمي بمحرق نفطها	فيغشى سعوط الموت فيها المغناطيسا
تراهن في حمر اللبود وصفرها	.كمثل بنات الزنج زفت عرائسا
إذا عثنت فيها التنانير خلتها	تفتح للبركان عنها منافسا

* * *

ومن السفن الحربية المشهورة «الحراريق» ومفردها حراقة . وأول من

صنعها الأغالبة أثناء حكمهم جزيرة صقلية.

والحراقة سفينة هجومية فيها حوالي مئة مجذاف، مزودة بالنفط لمطاردة سفن العدو وإحراقها.

يقول ابن هذيل في وصف إطلاق حجمها:

وظنوا بأن الرعد والصعق في السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد

والحديث عن السفن ووصفها من قبل الشعراء يطول. ويكفي أن نعدد بعض أنواعها المشهورة في الأسطول الأندلسي ومنها:

الطرائد: ومفردها طريدة ومهمتها نقل الخيول والمؤن وتستعمل في السلم والحرب ولها فتحة من خلفها لركوب الخيول.

ومنها الشلنديات ومفردها شلندي. وتحرف هذا الاسم فيما بعد إلى «صندل» وكان الأندلسيون يستعملونها لنقل الاسلحة.

ومن أضخم السفن الأندلسية الحمالات وتستخدم في نقل الجنود وتدعى أيضاً البطس ومفردها بطسة وتتسع لحوالي ٧٠٠ مقاتل وتتألف من عدة طوابق.

* * *

لقد بلغ الأسطول البحري الأندلسي مكانة رفيعة جعلته سيد الموقف في غربي المتوسط ومكنت بعض بحارته من اجتياز الأطلسي غرباً والوصول إلى البر الأمريكي قبل كولومبس بعشرات السنين.

المقاومة في الشعر الأندلسي

كان سقوط الدولة الأموية في قرطبة، وانقسام الأندلس إلى دويلات وطوائف إيذاناً ببداية النهاية للوجود العربي الإسلامي في تلك البلاد.

لم يكن سقوط الدولة الأموية الأندلسية مجرد انقلاب سياسي استبدل فئة بفئة أخرى فلقد رافقته فتنة كاسحة لم تشهد لها الأندلس مثيلاً من قبل.

وبلغ الصراع على السلطة حداً جعل أحد أمراء البيت الأموي يستقدم البربر من وراء المضيق ويلقي بهم بلا وازع ولا نظام في قرطبة فيلحقون بها الدمار الشامل، ويهدمون قصور الزهراء العظيمة قبل أن يمضي نصف قرن على بنائها، وينهبون البيوت والأسواق ويفتكون بالناس فتكاً ذريعاً.

أدّت هذه النكبة المؤسفة المخجلة إلى زوال هيبة الحكم واستشراء الفوضى والتجاوزات المختلفة.

وكان العدو الخارجي متربصاً في معاقله الجبلية في الشمال يتلقى العون من أوربا كلها وبخاصة فرنسا والكنيسة الكاثوليكية في روما.

لقد كان هدم نظام الخلافة في قرطبة معولاً قاصماً في جسم الوجود الإسلامي لم يفق منه تماماً فيما بعد.

وقامت بعد ذلك دول ملوك الطوائف التي اقتسمت مدن الأندلس إمارات وإقطاعات وعشائر، مما سهل للنصارى الأسبان الانقضاض عليها واحدة بعد الأخرى.

بدأت النكبة في مطالع القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي .

وانتقل النصارى الأسبان بعدها إلى مرحلة الهجوم واقتناص المدن الاسلامية تباعا. كانت المعاقل النصرانية في أقصى الشمال الغربي محاصرة ملاحقة في العهد الأموي لا تجرؤ أن تجتاز حدود مناطقها.

ولم يكتف ملوك الطوائف باقتسام المدن، بل أخذوا يتآمرون على بعضهم ويمدون أيديهم إلى العدو يستعينون به على اخوتهم، وكأنهم لا يدرون أن الدور آت عليهم بعد انتهاء العدو من اخوتهم الضحايا.

وهكذا سقطت مدينة «طليطلة» العظيمة بيد الفونسو السادس عام ٤٧٨هـ ـ ١٠٨٥م نتيجة التآمر والغدر والخيانة من الحكام المسلمين آنئذ. وشمت ملوك الدويلات الأخرى في الأندلس، وأنياب العدو تستعد لافتراسهم بعد طليطلة.

ولم يكن من شأن نصارى اسبانية أن يعاملوا المسلمين بالمثل ، فشتان بين التسامح الحضاري الرفيع الذي عامل به المسلمون نصارى اسبانيا وقت الفتح وخلال الحكم الاموي وبين التعصب الاعمى الذي اتسمت به سياسة الهجوم الصليبي على الاندلس مدعماً من كنيسة روما .

***

كان الشعر الاندلسي يرصد الاحداث ويتفاعل معها ، معبراً عن ضمير الامة ووجدان الشعب . وهو في ذلك ينفخ الحماس في النفوس ويهاجم الحكام المتخاذلين ويكشف تآمرهم مع العدو وتنكرهم للقيم والمثل وتعاليم الجهاد .

وكانت أولى الصرخات قد أطلقها الشاعر «السميسر» في عصر ملوك الطوائف بعد سقوط طليطلة وحمّل الشاعر حكام دويلات الطوائف مسؤولية ذلك قائلاً[1] :

(١) الذخيرة، ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٤.

أسلمتم الإسلام في   أسر العدا وقعدتم

وجب القيام عليكم   إذ بالنصارى قمتم

لا تنكروا شق العصا   فعصا النبيّ شققتم

يستمر الشاعر السميسر في كشف زيف حكام عصره وتعاونهم مع العدو في سبيل بقائهم في كراسي الحكم ، ثم خيبة أملهم بوعود العدو الذي لا يعرف إلا مصالحه ، يقول السميسر[1] :

خنتم فهنْتُم، فكم أهنتم   زمانَ كنتُمْ بلا عيونْ

فأنتم تحت كل تحت   وأنتم دون كل دونْ

سكنتم يا رياح عاد   وكل ريح إلى سكونْ

والسميسر ينتقل من التعميم إلى التخصيص ، فيهاجم بشعره حاكم غرناطة ويكشف اتصالاته مع الفونسو السادس ، ملك قشتالة والعدو الشرس للمسلمين ، والمصادر العربية تسميه «أذفونش» يقول السميسر :

صاحب غرناطة سفيه   وأعلم الناس بالأمور

صانع أذفونش والنصارى   فانظر إلى رأيه الدبير

وشاد بنيانه خلافاً   لطاعة الله والأمير

يبني على نفسه سفاها   كأنه دودة الحرير

دعوه يبني، فسوف يدري   إذا أتت قدرة القدير

حينما سقطت طليطلة رأى جميع مسلمي الأندلس حجم الكارثة التي حلت بهم ، وعرفوا أن الصمت معناه تلاحق السقوط كل يوم . يروي المقري في كتابه «نفح الطيب» أبياتاً لشاعر لم يذكر اسمه ، يتحدث فيها عن سقوط النصارى[2] :

---

(١) نفح الطيب ، المقري ج ٤٤ ص ١٠٨ .

(٢) نفسه ، ج ٦ ص ٢٢٨ .

وقيـل تجمعـوا لفـراق شكـل — طليـطلة تملكـهـا الكـفـور
فقـل في خـطة فيـهـا صغـار — يشيب لكـربها الطفـل الصغـير
لقـد صم السميـع فلم يـعـول — عـلى نبأ ، كما عمي البصـير

وقف الشعراء أمام نكبة طليطلة يحاولون البحث عن أسبابها واستقراء نتائجها . وفي نطاق حديثهم عن أسباب النكبة حملوا على الحكام لانغماسهم في ملاذهم وإهمالهم واجباتهم وتخاذلهم أمام العدو .

يقول الشاعر أبو الحسن بن الجد يتحدث عن هؤلاء الحكام[1] :

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر — هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
تلقاه كالفحل ، معبودا بمجلسه — له خوار ، ولكن حشوه خَور

ونعود للشاعر الذي اورد المقري قصيدته ولم يذكر اسمه ، فهو في قصيدته لا يكتفي بتحميل مسؤولية سقوط طليطلة للحكام فقط ، بل هو يرى الشعب مسؤولاً على المستوى نفسه[2] :

فـإن قلنـا العقـوبـة أدركتهم — وجـاءهـم مـن الله الـنـكـير
فـإنـا مـثلهـم ، وأشـد منهـم — نجـور وكيف يسـلم من يجـور
أنـأمـن أن يحـل بنـا انـتقـام — وفينـا الفسق أجمـع والفجـور
وأكـل للحـرام ، ولا اضـطرار — إليـه فيسهـل الأمـر العسـير

ويشتد الشاعر في حملته ويستعمل عبارات قاسية في وصف واقع التخاذل الذي أدى إلى النكبة :

ولـكـن جـرأة في عـقـر دار — كـذلـك يفعـل الكلب العقـور
نخـور إذا دهينـا بـالـرزايـا — وليس بمـعـجـب بـقـر تخـور

(١) أعمال الاعلام، ابن الخطيب ص ٢٤١ .
(٢) نفح الطيب، المقري ج ٦ ص ٢٢٩ .

لقـد ذهب اليقـين فـلا يقـين وغـر الـقـوم بـالله الـغـرور

ويستنكر الشاعر موقف الـراضين بحكم النصـارى يدفعـون لهم الجزيـة ويذلون لهم :

رضوا بـالـرق ، يـا لله ، مـاذا رآه ، ومـا أشار بـه مـشـير
فباقٍ في الـديـانـة تحت خِـزْيٍ تـثـبـطه الـشـويـهـة والـبـعـير
وآخـر مـارق هـانـت عـليـه مصـائب دينـه ، فله السعير

خـلال موجـة الأسى والذهـول لم يستسلم الشعر المجاهد ، ولم يعـرف اليأس ولا القنوط ودعا إلى مقاومة الهجمة الصليبية الشرسة التي بدأت تكتسح المدن الأندلسية وتفتك بأهلها . والشاعر المجهـول نفسه يلتفت في قصيـدته إلى إثارة العزائم وحث الهمم فيقول :

خـذوا ثأر الـديـانـة وانصـروهـا فقـد حامت عـلى القتـلى النسـور
ولا تهـنـوا وسلّوا كـل عـضب تهـاب مضاربـا عنه النحـور
ومـوتـوا كلكم ، فـالمـوت أولى بـكم أن تجـأروا أو أن تجـوروا
أصبـراً بعـد سـبي وامتحـان يـلام عليهـا القلب الـصبـور
فـأم الـصـبـر مـذكـار ولـود وأم الـصـقـر مـقـلال نـزور
ولا تجـنـح إلى سـلم وحـارب عسى أن يجبـر العـظم الكسـير

ويتلفت الشاعر باحثاً عن صـورة البطل المنقـذ الذي يقـود البلاد ويعيد وحدتها بعد تمزقها إلى دويلات ، ويستـطيع الأخـذ بيد شعبـه إلى النصر ودحـر الاعداء[1] :

ألا رجـل لـه رأي أصـيـل بـه عـمـا نـحـاذر نـسـتـجـير
يكـر إذا السيـوف تنـاولتـه وأيـن بـنـا إذا ولـت كـرور

(١) نفح الطيب، المقري ج ٦ ص ٢٢٦ .

وطعن بالقنا الخطار حتى يقول الروم : ما هذا الخطير

ويختم الشاعر قصيدته بتعنيف الهاربين ، ورجاء النصر المؤزر :

ولو أنا ثبتنا كان خيراً ولكن ما لنا كرم وخير
ونرجو أن يتيح الله نصراً عليهم إنه نعم النصير

وقد تحقق بعض ذلك بمجيء المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين وخوضهم معركة الزلاقة المشهورة عام ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م التي انهزم فيها النصارى بقيادة الفونسو السادس ولكن المسلمين لم يستثمروا النصر كما يجب فلم يلاحقوا النصارى ، ولم يستعيدوا مدينة طليطلة . بل إن مدينة سرقسطة لحقتها بعد فترة وجيزة وسقطت بيد النصارى ولكن معركة الزلاقة أخرت سقوط باقي الاندلس مدة طويلة .

* * *

وعندما جاء الموحدون تمكنوا من المحافظة على وضع الاندلس قرابة قرن من الزمن ، وبذل خلفاؤهم الأقوياء جهوداً جبارة وانتصروا في معركة «الارك» عام ٥٩١ هـ - ١١٩٥ م رأى الشعراء المجاهدون أن تثبيت أقدام المسلمين في الاندلس إنما هو بحاجة إلى إعادة الفتح من جديد ، والوصول إلى مدينة «شنت ياقب» في أقصى الشمال الغربي ، وتدعى اليوم «سانتياغو» وهي المدينة التي اقتحمها حاكم مسلم واحد هو الحاجب المنصور بن أبي عامر ودمرها .

يقول الشاعر الوقشي يدعو أبا يعقوب الموحدي لغزو شنت ياقب[1]:

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى فابصر شمل المشركين طريدا
وهل بعد يقضي في النصارى بنصره تغادرهم للمرهفات حصيدا

(١) نفح الطيب، المقري ج ٦ ص ٢٢٠ .

ويغزو ابو يعقوب في «شنت ياقب» يعيد عميد الكافرين عميدا
ويفتك من أيدي الطغاة نواعما تبدلن من نظم الحجول قيودا

ويكرر ابن طفيل الفكرة نفسها في الدعوة إلى إعادة الفتح على غرار ما فعل الأجداد الأوائل[1] :

أفرسان قيس من هلال بن عامر وما جمعت من طاعن ومضارب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب
بكم نصر الإسلام بدءاً فنصره عليكم ، وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به ولا تغفلوا إحياء تلك المناقب

* * *

انتهى حكم الموحدين بالهزيمة الكارثة في معركة «العقاب» عام ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٢ م وهي أثقل هزيمة تحل بالمسلمين في الاندلس بل لعلها أثقل هزائم التاريخ الإسلامي . وليس الآن مجال البحث في أسباب المعركة ونتائجها .

لقد تساقطت مدن الاندلس الإسلامية بعدها في أيدي النصارى كأنها أوراق الخريف الذابلة : قرطبة اشبيلية ، ابذة ، بياسة . . وبدأ حجم الوجود الإسلامي يتقلص شيئاً فشيئاً لينحصر في الزاوية الجنوبية أيام حكم بني الاحمر في غرناطة .

عرفت تلك المرحلة لوناً جديداً من الشعر توجه نحو الشمال الإفريقي يستصرخ الهمم ويطلب النجدة من مسلمي المغرب .

كان المغرب الأقصى قد أصبح تحت حكم بني مرين ، والمغرب الاوسط تحت حكم بني زيان . والمغرب الادنى (تونس) تحت حكم بني حفص . ورغم الصراعات الداخلية والحروب الطاحنة بين هذه الاسر الحاكمة الثلاث فإن

---

(١) البيان المغرب ، الموحدي ص ٨٨ .

حكامها مدوًا يد العون للأندلس أكثر من مرة وبخاصة بني مرين حكـام المغرب الأقصى ، ولكن الهجوم النصراني الذي تقف وراءه أوربا كلها كان أضخم من حجم الدفاع الإسلامي المتردد المتهافت .

ذهب الشاعر ابن الأبّار إلى تونس للقاء أبي زكريا الحفصي ودعوته لنجدة الانـدلس ١٢٢٨ ـ ١٢٤٩ م /٦٢٦ ـ ٦٤٧ هـ وأنشده قصيـدة مطولـة جاء في بعض أبياتها [١] :

نـادتـك أنـدلس فلب نـداءهـا — واجعل طواغيت الصليب فداءها
هبـوا لها يـا معشر التـوحيـد قـد — آن الهبـوب ، واحرزوا عليـاءهـا
هـذي رسـائلهـا تنـاجي بـالتي — وقفت عليهـا ريثهـا ورجـاءهـا
بشـرى لأنـدلس تحب لـقـاءه — ويحب في ذات الإلـه لقـاءهـا

وللشاعر نفسه قصيدة أخرى أشهر من الأولى في الموضوع نفسه [٢] :

أدرك بخيلك خيـل الله أنـدلسـا — إن السبيـل إلى منجاتها درسـا
صِلْ حَبْلَها أيها المولى الرحيم ، فما — أبقى المراس لها حبـلا ولا مرسـا
هذي رسائلها تدعـوك عن كثب — وأنت أفضـل مرجـوٍّ لمن يئسـا
وقـد تـواتـرت الانبـاء أنـك من — يحيي ، بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهـر بـلادك منهـم إنهم نحس — ولا طهـارة إن لم تغسـل النجسـا
وأوطىء الفيلق الجـرار أرضـهـم — حتى يطأطيء رأساً كل من رأسا

ولعل ابن الأبار كان أبرز شعراء القرن السابع الهجري في هذا الميدان ، ميدان الاستنجاد والاستصـراخ لمدّ يد العون لـلانـدلس الجـريـح . وقـد لبى الحفصيون دعوة الانـدلس ورجاء ابن الابـار وأرسلوا أسطولاً ضخـماً من تونس إلى بلنسية في الاندلس لمساعدة أهلها في حربهم ضد النصارى :

(١) ديوان ابن الابار ص ٧ .
(٢) نفسه ص ٢١١ .

وشاهد ابن الأبار استعداد الاسطول الحفصي فوصف ذلك مستبشراً بالنصر القريب في قوله مخاطباً نصارى الأندلس[1] :

ستصدمكم وتصمدكم خيول	من الاسطول ضمّرها الجراء
جوار منشآت من تبار	إلى الفوز العظيم بما تشاء

في الفترة نفسها كان هناك شاعر آخر يطرق أبواب الحفصيين في تونس مستنجداً مستصرخاً ، وهو الشاعر أبو الحسن حازم صاحب الكتاب المعروف باسم «المقصورة» وتستمر هذه النغمة ، يمتزج فيها الحزن بالأمل والحماس والتفاؤل المشوب بالحذر . يقول أبو البقاء الرندي في قصيدته المشهورة يدعو إلى نجدة الاندلس[2] :

يا راكبين عناق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وراتعين وراء البحر في دعة	لهم بأوطانهم عزٌ وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم	قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

وكان الشاعر موسى بن هرون قد أرسل صرخة استنجاد حارة مؤثرة حينما سقطت اشبيلية بيد النصارى وروعوا سكانها ودمروا مساجدها فقال[3] :

يا حمص[4] أقصدك المقدور حين رمى	وما رعى إذ رمى إلاً ولا ذمما
سكانها الكفر إذ قل النصير بها	فمن مغربها الإسلام ما سلما
يا أهل وادي الحمى بالعدوة انتعشوا	هذا الذماء فقد أشقى به لقما
ماذا يبطئكم عنا، وحولكم	أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما
وحقنا واجب في الدين يمنعنا	مع الجوار الذي ما زال منتظما

---

(١) ديوان ابن الابار ص ١١ .

(٢) نفح الطيب ، المقري ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٣) البيان المغرب ، الموحدي ص ٣٢٨ .

(٤) المقصود بحمص «اشبيلية» .

قصور الحمراء بغرناطة

مع إطلالة الفتح الإسلامي لم تكن غرناطة سوى قرية صغيرة تقبع في الركن الجنوبي من شبه جزيرة ايبريا. وقد أخذ الاهتمام بها يتزايد منذ سقوط الدولة الأموية في الأندلس وقيام ملوك الطوائف، فقد أصبحت مركز منطقة «البيرة» وحلت محل مدينة البيرة في الأهمية وغدت عاصمة دولة «بني زيري» إلى أن ضمها المرابطون إلى دولتهم، ثم دخلها الموحدون. وبعد سقوط قرطبة بأيدي النصارى عام ٦٣٤ هـ - ١٢٣٦ م انكمش الوجود الإسلامي في أسبانيا ضمن حدود منطقة غرناطة في الزواية الجنوبية المتاخمة للبحر المتوسط وكانت تضم مالقة وارجونة وبسطة ووادي آش وجيان.

منذ سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٧ م وحتى ٨٩٨ هـ .- ١٤٩٢م تمكن بنو نصر من الاحتفاظ بملكهم في غرناطة مستفيدين من دعم بني مرين لهم في المغرب، ومن مهادنة مملكة قشتالة النصرانية بشيء من البراعة السياسية أحياناً، ودفع الأموال أحياناً أخرى.

ورغم أن الصراع لم يكن متكافئاً فقد احتفظ بنو نصر بمملكة غرناطة أكثر من قرنين ونصف القرن في وجه الهجوم النصراني الضاغط.

* * *

استقطبت غرناطة رجال الفكر والفن والأدب والعمال المهرة في شتى الميادين بعد أن سقطت المدن الأندلسية الأخرى بيد النصارى. وتمكنت بذلك

من أن تلعب دور قرطبة الحضاري فيستمر الإشعاع العربي والإسلامي في الزاوية الجنوبية الغربية في أوربا الغارقة في عصورها الوسطى المظلمة.

وبرز من حكام غرناطة النصريين في القرن الأول من عمر المملكة ثلاثة يدعى كل منهم «محمد»: الأول والثاني والثالث، وهم جد وأب وحفيد وفي عهدهم شرع فن العمارة يشق طريقة بقوة وثقة ورشاقة.

على الجانب الآخر من المضيق كان بنو مرين قد تولوا السلطة في المغرب وغدت فاس عاصمة لهم، وقد هبوا أكثر من مرة ينجدون غرناطة حينما يتهددها خطر نصراني قادم من شمالها. ولم يتردد سلاطين غرناطة من بني نصر أن يستعينوا بسلاطين بني مرين.

تقع مدينة غرناطة على الشاطىء الأيمن لنهر «شنيل» بينما يخترقها نهر حدرة من وسطها مما جعل طبيعتها جميلة، والحدائق والبساتين تحيط بها من كل الجهات، ويطل عليها جبل شلير العالي المكلل بالثلوج.

كانت الخطوة الأولى في بناء الحمراء على يد محمد الأول الذي بنى قصبة الحمراء والبرجين المدعوين: برج الطليعة وبرج التكريم، أما ابنه محمد الثاني فقد اهتم بتوطيد سلطانه وتحالف مع بني مرين في المغرب، حتى إذا جاء ابنه محمد الثالث أمر ببناء قصر الحمراء، كما أمر ببناء مسجد القصر الجامع الذي يعتبر من أجمل مساجد الأندلس فنّا وزخرفة، ولكن الأسبان هدموه قبل أكثر من أربعة قرون وذلك بأمر من فيليب الثاني عام ١٥٧٦ م.

يعتبر السلطان يوسف الأول أبو الحجاج أعظم سلاطين بني نصر في غرناطة وقد حكم في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي ـ وفي عهده بنيت أكثر عمائر قصور الحمراء مثل: قصر الأساطير وبرج قمارش والبرج المتصل بقصر متشوكة والحمام الملكي وباب الشريعة وبرج الأسيرة ومصلى البرطل.

وجاء بعد يوسف ابنه محمد الخامس الغني بالله فتابع بناء القصور التي بدأها والده وفي عهده كان المفكران المسلمان العظيمان : عبد الرحمن ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب.

وتوفي الغني بالله في أواخر القرن الثامن للهجرة ـ الرابع عشر للميلاد وخلال المائة عام الباقية من عمر المسلمين في غرناطة تتابع سلاطين ضعفاء تصارعوا على السلطة حتى سقوط غرناطة عام ٨٩٨ هـ ـ ١٤٩٢ م.

***

مرت أعمال بناء القصور بمراحل ثلاث أساسية هي :

١ ـ مرحلة محمد الأول ومحمد الثالث: وخلالها بنيت القصبة الأولى والبرجان والمسجد الجامع. ولم يبق من مباني تلك المرحلة إلا باب قديم معزول عن بقية الأبنية.

أما المسجد فقد رأينا أنه هدم بأمر الملك فيليب الثاني.

٢ ـ مرحلة يوسف الأول: وهي الهيكل الأكثر حضوراً وفخامة في المباني.

وهذه المباني هي :

أ ـ السور الحصين حول مباني الحمراء بأبراجه المنيعة وبوابته الرائعة المسماة «باب الشريعة» وقد اكتمل بناؤه عام ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٨ م ولا يزال هذا التاريخ منقوشاً عليه، ويدعى أحياناً «باب العدل» بسبب النقش الذي عليه ويعبر عن يد مفتوحة ومفتاح. بحيث ترمز اليد المفتوحة إلى العدالة والمفتاح إلى مدخل قصور الحمراء.

ب ـ قصر البرطل «والبرطل في اللهجات الأندلسية يعني السقفية أو المظلة» ويقع إلى جانب برج السيدات، وتتألف مظلّته من خمسة عقود، أوسطها

مـرتفع أكـثر من البقية. ويـطل على نـافورة تسكب المـاء في بركـة أسفل العقـد الأوسط المرتفع.

وفي زاوية من البرطل قاعة مربعة تشبه البـرج، تقود إلى طبقـة أعلى عبـر درج واقع إلى اليسار، وقد كست الزخـارف الجميلة الأخاذة الجـدران التي تعلو العقود وتعتمد هذه الزخارف على شبكة من المعينات والرسوم الهندسية الملونة.

جـ ـ المسجد الصغير الملحق بقصر البرطل: وطوله ٤,١٦ متر، وعـرضه ٣ أمتـار وفـوق محرابـه قبة مقـرنصة وفيـه زخارف بـديعة تتنـاسق مـع زخـارف البرطل.

د ـ برج الأسيرة: ويقـع قرب البـرطـل في المنـطقـة الفـاصلة بـين مبـاني الحمراء وجنة العريف. وفي هذا البرج قاعة أساسية لها شرفات وحـولها مخـادع جانبية. وفي وسط البرج صحن داخلي صغير تحيط به المجنبات. وزخارف هـذا البرج آية في جمالها وتناسقها وألوانها المذهبة.

هـ ـ بـرج الشرفات: ويقع بـين مسجد البـرطل وبـرج الأسيرة. وسبب تسميته شرفاته المدببة البارزة. ويلاحظ فيه اختلافـه عن بقية الأبـراج في قصور الحمراء وتأثره إلى حد ما بالفن الأوربي النصراني في العصور الوسطى.

و ـ برج مخدع الملكة: وفيه قصر صغير جداً متصل بقصـر الريحـان وبرج قمارش وقد أدخل عليه الأسبان بعد سقـوط غرنـاطة بعض التعـديل، إلا أنهم أعادوه إلى شكله القديم حديثاً رغبة في اجتذاب السائحين.

ز ـ قصر بهو الريحان: وهو قصر السلطان ومقر الحكم وسمي بذلـك لأن بهو الريحان يتوسط القصـر الذي يعتبـر أجمل مـا بناه يـوسف الأول. وفي جهته الشمالية ينتصب برج قمارش الذي يضم قاعـة السفراء. وتـطل نوافـذ القصر وقمرياته على نهر هـدرة الذي يمـر أسفل بـرج قمارش وعـلى الطبيعـة الساحـرة حوله.

تتألف زخارف قصر الريحان من أشكال نباتية وخطوط هندسية وكتابات، وسقفه من الخشب المزخرف. وللوصول إلى قاعة السفراء يمر السائح برواق يدعى «رواق البركة» وتطل على بهو الريحان مظلة مؤلفة من سبعة عقود في وسطها بركة مستطيلة تحيط بها أشجار الريحان.

حـ - الحمامات السلطانية: وتقع شرقي برج قمارش وهي مجموعة متكاملة متناسقة من الأبنية. تقود إليها قاعة تدعى «قاعة الأسيرة» وفي الحمامات قاعة أساسية لها قبة تخترقها مناور ذات أشكال نجمية ينفذ منها الضوء وتحمل العقود أعمدة رشيقة مزخرفة. ولا يزال اسم يوسف الأول منقوشاً على مباني تلك الحمامات.

* * *

٣ - مرحلة محمد الغني بالله: وتتميز هذه المرحلة بطول حكم السلطان الغني بالله التي قاربت الأربعين عاماً - واستكماله بعض قصور أبيه، وبنائه قصوراً جديدة.

أ - أكمل محمد الغني بالله قصر الريحان ورواق البركة وأبدع العمال المهرة في زخرفة الجدران والعقود. كما أضاف إلى القصر مدخلاً جميلاً له واجهة رائعة الزخرفة.

ب - بناء قصر السباع: ويتعامد محور هذا القصر مع محور قصر الريحان. وقد أتبع في بناء هذا القصر نظام معماري جديد يختلف عن قصور الريحان وجنة العريف وذلك أنه يتألف من صحن مركزي تحيط به أربع بوائك. وفي وسط الصحن فوارة تتألف من حوض ونافورة، وحول الحوض المستدير يقبع اثنا عشر أسداً من الرخام يخرج الماء من أفواهها ليصب في الحوض. وحول الحوض كتابات زخرفية في مديح محمد الغني بالله. وأكثرها من شعر وزيره «ابن زمرك».

وصحن السباع مستطيل الشكل طوله ٢٨,٥ متراً وعرضه ١٥,٧٠ متراً وعلى جانبيه رواقان مقببان على أعمدة رشيقة. وخلف الرواق الغربي قاعة واسعة غيّر الأسبان من ملامحها الإسلامية. بينما تقع خلف الرواق الشرقي قاعة الملوك المزخرفة بعقود متقاطعة.

أما من الشمال والجنوب لصحن السباع فتقع قاعتان جميلتان هما: قاعة بني سراج في جنوب الصحن، وبنو سراج انتصر عليهم بنو نصر سابقاً. والقاعة الشمالية تدعى «قاعة الأختين» وسميت بذلك نسبة إلى لوحتين من الرخام متماثلتين تكسوان أرضية القاعة، والقاعتان لكل منهما قبة نجمية وتكسوهما أجمل الزخارف التي تركها المسلمون في الأندلس على مدى وجودهم هناك. وتزخر القاعة الشمالية بكتابات كوفية وأدعية وأشعار، وعبارة «لاغالب إلاّ الله» موزعة على الجدران.

* * *

قصر جنة العريف:

ويقع على مقربة من الحمراء، في منطقة تشرف تلالها المرتفعة على نهري حدرة وشنيل في الوقت نفسه. وعلى نهر حدرة كانت تقوم النواعير برفع الماء وصبه في أنابيب تخترق الوديان إلى القصور المحيطة بها.

يتألف قصر العريف من صحن شديد الاستطالة على جانبيه أبنية، وفي وسطه قناة ماء، وفي جنوب الصحن مجموعة من العقود المتصلة.

أول من شرع ببناء قصر جنة العريف هو السلطان إسماعيل الذي جاء بعد محمد الثالث وتوالى البناء في منطقة القصر بعد ذلك.

يلاحظ أن قصر جنة العريف يعتمد على جمال الطبيعة أكثر من اعتماده على جمال الزخرفة، فبناؤه أبسط وأقل تعقيداً وزخرفة من مباني الحمراء،

وروعي فيـه إطلال النـوافذ والفتحـات على الـطبيعة الجميلة من حـولـه ونهري حدرة وشنيل المارَّين قربـه.

إن قصور الحمراء من أجمـل الروائـع التي يمكن أن يراهـا الإنسان في أي مكان في العالم المعاصر.

وأذكر أنني حينما كنت أزور غرناطة للمرة الثالثة قبل عشر سنـوات وأمتع عيني بـروائع قصـور الحمراء، التقيت سـائحاً فـرنسياً قـال لي إنها المرة الـرابعة عشرة التي يحضر فيها إلى غرناطة وإنه لم يشاهد ولا يتصور أن يشاهد شيئاً أجمل من تلك القصور.

* * *

سقطت غرناطة بيد الأسبان النصارى عام ٨٩٨ هـ ـ ١٤٩٢ م.

وقد حافظوا إلى حد كبير على مباني الحمراء واتخذوها مقراً لإقامة ملوكهم ولكنهم قاموا ببناء بعض الأبراج الهجينة التي يظهـر مشهدهـا الفظ الخشن أمام روعة المباني العربية في القصور.

وقد قام الأسبان بإزالة بعض معالم قصور الحمراء كما فعل فيليب الثـاني بهدم المسجد الجامع في القصر.

إن غرناطة اليوم هي المدينة السياحية الأولى في أسبانيا، ويـدخلها سنـوياً ملايين السـائحين. وهـذا ما حـدا بالسلطات الأسبـانية إلى إعـادة القصور إلى شكلها الإسلامي ومحاولة إزالـة الزيادات النصرانيـة التي أدخلت عليها خـلال القرون الخمسة الماضية.

المقّري ونفح الطيب

أ ـ عصره:

شهد القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي تبديلات جذرية في الخارطة السياسية على مستوى الوطن العربي، مشرقه ومغربه.

ففي المشرق سقطت دولة المماليك على السلطان العثماني سليم الأول عام ٩٢٣ هـ ـ ١٥١٧ م ودخل العثمانيون القاهرة عاصمة المماليك، وكانوا قبل عام قد دخلوا بلاد الشام والحجاز.

وفي المغرب الكبير كانت السلطة السياسية موزعة بين ثلاث أسر هي:

الحفصيون: الذين حكموا تونس وليبيا وكانت عاصمتهم تونس.

بنوزيان: الذين حكموا الجزائر وكانت عاصمتهم تلمسان.

الأشراف السعديون: الذين حكموا المغرب الأقصى وكانت عاصمتهم فاس.

وبعد دخول العثمانين مصر لم يتوقفوا عن الزحف غرباً. فاستولوا على ليبيا عام ٩٢٧ هـ ـ ١٥٢١ م إلا أن مقاومة بني زيان وبني حفص استمرت فترة من الزمن ثم دخل العثمانيون تلمسان ٩٥٢ هـ ـ ١٥٤٥ م وتونس ٩٨٢ هـ ـ ١٥٧٤ م. ولم يتمكنوا من الاستيلاء على المغرب الأقصى رغم عدة محاولات قاموا بها. واستمر السعديون في حكم المغرب.

وكانت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس قد سقطت بيد النصارى الأسبان عام ٨٩٨ هـ ـ ١٤٩٢ م. ودخلها الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا، وقاما فيها بمذبحة جماعية فظيعة ضد المسلمين، وضد المظاهر الثقافية والحضارية الإسلامية في الأندلس.

وبعد سقوط غرناطة انتقلت أسبانيا وجارتها البرتغال إلى دور الهجوم الشرس استمراراً للحروب الصليبية التي لم تتوقف في المشرق ولا في المغرب.

فكانت الحروب البحرية الطاحنة في غربي المتوسط والمحاولات الأوربية الشرسة للإستيلاء على الموانىء الإسلامية. وقد احتلت أسبانيا أكثر من ميناء، منها وهران في الجزائر ثم أجليت عنها، ومنها سبته ومليلة في المغرب ولا تزال تحتلهما حتى اليوم. كما خاض المغاربة حروباً عنيفة ضد محاولات الغزو البرتغالي الذي كان يهاجم موانىء الأطلسي والمتوسط.

أما في شرقي المتوسط فكانت السيادة البحرية للعثمانيين بعد فتح القسطنطينية وجعلها عاصمة للخلافة العثمانية باسم «الآستانة».

٢ ـ حياته في المغرب:

المقَّري هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد. وقد لقب بالمقَّري نسبة إلى بلدة «مقَّرة» قرب قسنطينة في الجزائر التي كانت موضع سكن أسرة المقَّري. وقد بقيت نسبة الأسرة إلى مقَّرة رغم انتقالها إلى تلمسان وولادة شهاب الدين نفسه في تلمسان قاعدة المغرب الأوسط في تلك الفترة.

وينتهي نسب المقَّري إلى قريش[١]. ولذا كانت أسرته في المغرب والأندلس ذات مكانة طيبة، كما كانت أسرة علم وثقافة، وقد ورث شهاب الدين عن أسلافه مكتبة حافلة وكان أحد أجداده أستاذاً للوزير

---

(١) نفح الطيب، المقري ج ٣ ص. ١١٠

الغرناطي لسان الدين بن الخطيب في القرن السابع الهجري.

كانت ولادة شهاب الدين المقري أواخر القرن العاشر الهجري في مدينة تلمسان وعلى الرغم من أنه ترجم لنفسه في نفح الطيب فإنه لم يشر إلى سنة مولده.

وفي تلمسان قضى شهاب الدين طفولته وصباه المبكر، فيها تلقى تعليمه الأولي وكان من أبرز شيوخه عمه سعيد بن أحمد المقري مفتي تلمسان. وكانت دراسته موسوعيه شأن علماء عصره. فقرأ القرآن والحديث والأصول والفقه والأدب والتاريخ.

يروي لنا المقري أنه قصد إلى مدينة «فاس» عاصمة الأشراف السعديين عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠م وكان سلطانها المنصور السعدي أعظم ملوك السعديين. ولبث فيها قليلاً ثم عاد إلى تلمسان(١).

ومنها قصد إلى مراكش فمكث فيها عدة أشهر وقفل راجعاً إلى تلمسان.

وفي عام ١٠١٣ هـ - ١٦٠٤ م سافر المقري إلى فاس وأقام فيها أربعة عشر عاماً متصلة يتعلم ويحضر المجالس. وكان من أبرز أساتذته في فاس مفتيها الشيخ القصار. والشيخ التنبكتي السوداني الأصل. وهذان الشيخان إلى جانب عمه سعيد هم أبرز وأهم أساتذة المقري(٢).

كان رحيل المقري من تلمسان إلى فاس أمراً متوقعاً بالنسبة لعالم مثله، لأن تلمسان لم تكن تفي بتطلعاته العلمية، بينما كانت فاس عاصمة السعديين وملتقى العلماء والمفكرين وبقايا النازحين من الأندلس بعد سقوط غرناطة.

وكان السلطان السعدي المنصور قد توفي عام ١٠١٢ هـ وخلفه ابنه

---

(١) نفح الطيب، المقري ج ٤ص. ٢٦٩

(٢) أزهار الرياض، المقري ج ٣ ص. ٥٦

زيدان السعدي الذي كان فقيهـا مثقفاً محبـاً للعلم والعلماء، وقد لقي العلماء في بلاطه كل تشجيع وتكريم ورعايـة. وكان المقـري من المقربـين إليه خـلال فترة حكمه. وقد أفاد كثيراً من المكتبة السلطانية في فاس.

ومـع كل الحـظوة والمكـانـة في فـاس وفي بـلاط زيـدان السعـدي، قـرر شهاب الدين مغادرة فاس إلى المشرق من غير أن يوضح لذلك سبباً معيناً.

وحاول بعض أصدقائه وتلامذته ثنيه عن الرحلة ولكنه كان قد حزم أمره واتخذ من أداء فريضة الحج وسيلة لمغادرة فاس بشكل علني وصريح.

ويبدو أن الصراع على السلطة بين أمراء البيت السعدي لم يشجع المقري على الاستمرار وما رافق ذلك من مؤامرات وأعوان انتهازيين ومنافقين.

أرسـل أحد أصـدقائـه إليه يحـاول صرف عـزمه عن الـرحيل، مستعينـاً بأبيات قيلت قبل أكثر من قرنين للشاعر الأندلسي ابن خاتمة:

أشمس الغـرب، حقاً مـا سمعنا ... بـأنـك قـد سئمت من الإقـامـة
وأنـك قـد عـزمـت إلى طلوع ... إلى شـرق سمـوت بـه عـلامـه
لقـد زلـزلت منّـا كـلَّ قلب ... بـحق الـله لا تقـم الـقيـامـة

وقد ورد جواب المقري في استعماله أبياتاً للسان الدين بن الخطيب يقول فيها:

تلوَّن أخـواني عـليّ وقـد جنت ... عـليّ خـطوبٌ جمّـة ذات ألـوان
ومـا كنت أدري قبل أن يتنكـروا ... بأن خواني كـان مجمع خـوّاني[1]

في أواخـر رمضان عـام ١٠٢٧ هـ ـ ١٦١٨ م غادر المقـري مدينـة فـاس صوب المشرق، وكانت رحلته عن طريق البحر، الذي يسميه (البحـر الشامي)

(١) نفح الطيب، المقري ج ٣ ص. ١٦

ويقصد البحر المتوسط وقد طالت الرحلة وتعرض المسافرون للأهوال نتيجة العواصف والرياح والسفن المعادية. وأخيراً حط المقري رحاله في مصر.

* * *

٣ ـ المقري في القاهرة:

فور وصول المقري إلى مصر قام بإداء فريضة الحج، ثم عاد إلى القاهرة في رجب عام ١٠٢٨ هـ، واتخذ من القاهرة دار إقامة وتزوج من فتاة من السادة الوفائية الذين كانوا يتمتعون بحظوة اجتماعية، ولكن هذا الزواج لم يكن موفقاً، وانتهى الأمر بالطلاق مما أتاح لبعض حساد المقري أن ينالوه بألسنتهم.

لزم شهاب الدين المقري الجامع الأزهر يلقي فيه دروسه، وأصبح له تلامذة من سائر الأقطار، وذاع صيته بين العلماء وعامة الناس. وكان يمنح الاجازات بعد انتهاء مدة الدراسة وبخاصة في رواية الحديث.

وكان أحياناً يكتب هذه الإجازات شعراً.

وهذه الاجازات تشبه اليوم الشهادة الجامعية الموثقة. وقد أخذت أوربا عن العرب في الأندلس فكرة الاجازة الجامعية، وتحولت عبارة (بحق الرواية) التي كانت تكتب على الاجازة الدراسية إلى كلمة (بكالوريوس) باللغات اللاتينية المختلفة.[1]

وأقدم إجازة عثر عليها يعود تاريخها إلى عام ٢٧٦هـ ـ ٨٩٠م منحها ابن ابي خيثمة لتلميذه يحيى بن مسلمة. ونصها: «قد أجزت لأبي زكريا يحيى بن مسلمة أن يروي ما أحب من كتاب التاريخ الذي سمعه مني. وأذنت له في

(1) The Arabs And Europe. L. Young. P. 133

ذلك ولمن أحبه من أصحابه. فإن أحب أن تكون الاجازة لأحد بعد هذا فأنا أجزت له بكتابي هذا».

قام المقري بزيارة الحجاز وبيت المقدس أكثر من مرة، وكان يعود إلى القاهرة موطنه المختار. وقد بلغت زياراته لمكة المكرمة خمساً، وللمدينة المنورة سبعاً، ولبيت المقدس مرتين.

* * *

٤ ـ الرحلة إلى دمشق:

بعد عشرة أعوام من الإقامة في القاهرة، قام شهاب الدين المقري برحلته الوحيدة إلى دمشق والتي تركت في نفسه أطيب الأثر، وكان ذلك في أواسط عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م. وعلى الرغم من أن إقامته في دمشق لم تتجاوز الشهرين فقد ترك فيها عدداً من التلاميذ وسمعة حسنة وذكراً باقياً. وتركت المدينة في نفسه آيات الاعجاب إلى درجة أنه قرر العودة للإقامة فيها[1]. ولكن الأجل وافاه قبل تحقيق أمنيته.

ولإعجاب المقري بدمشق أسباب منها تاريخية تتصل بمكانة دمشق في النفوس كعاصمة إسلاميه انطلقت منها الفتوحات في القرن الأول الهجري، ومنها طبيعية تتصل بجمال طبيعة المدينة وغوطتها الغناء، ولعل أهم الأسباب ما لقيه المقري في دمشق من ترحاب ورعاية وإكرام، فقد استقبله فيها أديب شاعر يدعى أحمد شاهين القبرصي. وأنزله منزلاً كريماً وقدم له الهدايا، وعرفه على علماء المدينة وأدبائها، وأنصت له بمحبة وانتباه والتفوا حوله بشيء من الاكبار والاعجاب.

---

(١) نفح الطيب، ج ١ ص ٣٥

ويورد المقري في «نفح الطيب» شذرات من إعجابه بدمشق منها: [1]

«. . . . وارتحلت عنها إلى مصر، وقد تركت القلب فيها رهناً، وملك هواها مني فكراً وذهنا، فكأنها بلدي التي بها ربيت، وقراري الذي لي به أهل وبيت، لأن أهلها عاملوني بما ليس لي بشكره يدان، وها أنذا إلى هذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من البلدان ولا يشوقني ذكر أرض بابل ولا بغدان، فالله سبحانه وتعالى يعطر منها بالعافية الأبدان»

ويتحدث عن أهلها في مكان آخر قائلاً:

«فهم الذين نوهوا بقدري الخامل، وظنوا، مع نقصي، أن بحر معرفتي وافر كامل، حسبما اقتضاه طبعهم العالي، فلو شريت بعمري ساعة ذهبت من عيشي معهم ما كان بالغالي».

في دمشق ألقى المقري دروسه في صحيح البخاري يومياً بعد صلاة الصبح في الجامع الأموي الكبير تحت قبة النسر، وتكاثر عدد الحاضرين يومياً حتى ضاق بهم المسجد، وفي يوم ختم الكلام حول صحيح البخاري احتشد ألوف الناس في المسجد. وأفاض المقري في سيرة الإمام البخاري وثقافته الموسوعية واستمرت تلك الجلسة الختامية حتى الظهر.

وكانت قبة النسر موضع إلقاء الدروس وسماع الخطب وتبادل الآراء على مدى القرون. ومع قصر المدة التي قضاها المقري مدرساً فيها فإن التلاميذ الذين أجازهم كانوا أكثر مما تقتضيه تلك الفترة.

غادر المقري دمشق عائداً إلى القاهرة وسط وداع مؤثر، ولم تنقطع المراسلات بينه وبين أصدقائه من أدباء دمشق وفقهائها. وقد أورد في النفح بعض تلك المراسلات الشعرية والنثرية.

---

(١) نفح الطيب، ج١ ص ٥١١

٥ ـ المرحلة الأخيرة:

عاد المقري إلى القاهرة في شهر شوال عام ١٠٣٧هـ ، وكان في دمشق قد قطع على نفسه عهداً بكتابة في التاريخ الأندلسي وأخبار الوزير ابن الخطيب في دولة بني الأحمر. وذلك بعد إلحاح من أدباء دمشق وبخاصة أحمد شاهين ولهذا شرع فور وصوله إلى القاهرة بكتابة مؤلفه الكبير «نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» .

وفي مقدمة كتابه يشيد بدمشق وذكرياته فيها، ولكنه لا ينسى القاهرة. ويروي كثيراً من الشعر في المدينتين ويعقد بينهما المقارنة ويدافع عنهما ألسنة بعض القادحين.

ومن الأبيات التي يوردها لبعض الشعراء في محاسن مصر قول الصفدي :

سقيا لمصر وما حوت من أُنسها وأناسها

وقول محمد بن يوسف الخياط :

خلفت بالشام حبيبي وقد يمّمت مصراً لِعَناً طارق
والأرض قد طالت، فلا تبعدي بالله يا مصر على العاشق

كما يورد أبياتاً في الجمع بين القطرين [١]:

نحن في مصر رهن شوق إليكم هل لكم في الشآم شوق إلينا
فعجزنا عن أن ترونا لديكم وأبيتم عن أن نراكم لدينا
حفظ الله عهد من حفظ العهد، ووفى به كما وفينا

استغرق تأليف نفح الطيب عامين كاملين وانتهى منه عام ١٠٣٩هـ ـ ١٦٢٩م . وكان المقري ينوي العودة إلى دمشق نتيجة إلحاح أصدقائه ومحبيه، ولكن انشغاله بطلاق زوجته ووفاة ابنته منها جعلاه يؤخر رحلة دمشق. وقد

---

(١) نفح الطيب، ج ١ ص ٥٦٥

وافاه الأجل قبل أن يتمكن من تنفيذ مشروعه بالهجرة إلى دمشق، وكانت وفاته في شهر جمادي الثانية عام ١٠٤١هـ /١٦٣١م ودفن في مقبرة المجاورين في القاهرة.

***

٦ ـ مؤلفاته:

برز المقري كمؤرخ إلى جانب تأليفه في الحديث والأدب والتراجم.

وتتجلى قيمة مؤلفاته في ثقافته الموسوعية وإيراده معلومات عن كتب شتى ضاعت أكثرها، وهو يمزج المادة التاريخية بالأدب والشعر. ولا يتوانى المقري عن الاشارة إلى الكتب التي أخذ عنها. وأكثر من أخذ عنهم هو الوزير لسان الدين ابن الخطيب في كتبه المختلفة.

وتكثر في مؤلفاته الاستطرادات، وتلاحظ خفة الروح وبعض الدعابة كما تلاحظ الأمانة العلمية فيما يروي، فهو لا يحذف ولا ينقص في النصوص التي يرويها ولو تضمنت هزلاً أو مجونا.

وهذا عرض لأهم كتب شهاب الدين المقري:

أ ـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب» وهو أشهر كتبه. وقد كتبه بعد عودته من دمشق بعد إلحاح أدبائها عليه بكتابة تاريخ الأندلس وأدبه ووصف طبيعته الجميلة ورجاله الأعلام.

ويتألف الكتاب من أربعة أجزاء كبرى، اثنان منها يتحدَّثان عن الأندلس عامة، والاثنان الآخران يتحدثان عن لسان الدين.

ويقسم الجزءان الأولان إلى ثمانية أقسام:[١]

أولها: في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور

(١) تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا ص ٣٠٣ وما بعدها

خيرها، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور المستمدة من أضوائها.

والثاني : في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد، وفتحها على يدي موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد مع الالمام بذكر ولاتها قبل بني أمية.

والثالث: في ذكر خلفائها وملوكها وسرد ما كان للدين بالاندلس من العز السامي العماد.

والرابع : في ذكر قرطبة، التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة، وجامعها الأموي ذي البدائع الباهية الباهرة، والإلمام بحضرتي الملك: الناصرية الزهراء، والعامرية الزاهرة.

والخامس: في التعرف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق.

والسادس: في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق.

والسابع: في نبذة مما منّ الله به على أهل الأندلس من توقد الأذهان.

والثامن: في ذكر تغلب العدو والكافر على الجزيرة.

أما الجزءان الأخيران فيتحدثان عن أولية لسان الدين وشيوخه وأساتذته وأبنائه ومراسلاته ووزارته الأولى والثانية وشعره ونثره.

والطريف في طبع هذا الكتاب العظيم أن طبعته الأولى كانت بالفرنسية عام ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م في مدينة «ليدن» تحت عنوان:

Analectes sur l'histoire et la litérature des Arabes d'Espagne

وقد أصبح الكتاب منذ ذلك الوقت يعرف في أوربا اختصاراً باسم Ana-lectes وكان قد نشر من الكتاب بعض المقاطع باللغة الانجليزية بإشراف المستشرق جايانجوس تحت عنوان: The history of the Mohammedan dynasties Spain extracted

وفي بولاق تمت الطبعة العربية الأولى عام ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢م ثم أعيدت الطبعة عام ١٣٠٢هـ - ١٨٨٥م.

والطبعة المتداولة اليوم تمت في القاهرة عام ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م بإشراف الشيخ محي الدين عبد الحميد. وذلك في عشرة مجلدات، الخمسة الأولى للتاريخ الأندلسي، والخمسة الثانية للوزير لسان الدين.

ثم أعيد طبع هذه النسخة أكثر من مرة في بيروت والقاهرة.

ب - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: وقد كتبه في مدينة فاس قبل رحلته إلى القاهرة. وهو لا يقل عن النفح أهمية، رغم تكرار بعض الأخبار في الكتابين.

وكان تأليفه استجابة لرغبة نفر من أدباء تلمسان وعلمائها.

وصاحب موضوع الكتاب هو القاضي عياض بن موسى بن عياض عالم المغرب والأندلس في القرن السادس للهجرة. وقد ولد في مدينة سبته. ورحل منها إلى الأندلس حيث أمضى الشطر الأعظم من حياته قاضياً ومحدثاً وفقيهاً وأديباً، ثم ارتحل إلى مراكش وفيها توفي عام ٥٤٤هـ - ١١٤٩م.

ويعرض الكتاب لتاريخ المغرب من خلال الحديث عن القاضي عياض. وهو مطبوع في أربعة مجلدات.

ج - روضة الآس العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيتهم من أعلام مراكش وفاس. ولا يزال الكتاب مخطوطاً، ويحتمل وجوده أو وجود بعضه في مكتبات المغرب. وهو كتاب في الأعلام المعاصرين للمقري.

د - حسن الثنا في العفو عمن جنى: وهو مجموعة من الآيات والأحاديث في طلب العفو والمغفرة. وقد طبع في مصر بحجم ٤٧ صفحة.

هـ ـ إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة، وهو أرجوزة في التوحيد وعلم الكلام، مطلعها:

يقول أحمد الفقير المقّري المغربي المالكي الأشعري

وقد ألفه بين فاس والقاهرة. وطبع في تونس

و ـ إتحاف المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى. وهو كذلك في علم الكلام. وكتبه بين المغرب ومصر. ولا يزال مخطوطاً في جامع الزيتونة بتونس.

ز ـ فتح المتعال في وصف النعال: ويضم أرجوزة للمقري في وصف نعل الرسول الكريم وقصائد أخرى في هذا المجال، وهو مطبوع.

ح ـ عرف النشق في أخبار دمشق: وهو من الكتب الضائعة.

ط ـ أنواء نيسان في أنباء تلمسان: وهو كذلك من الكتب الضائعة.

ى ـ زهر الكمامة في العمامة: وهو أرجوزة مخطوطة.

ك ـ إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة: وهو كتاب في النحو، ولم يصل إلينا مخطوطه.

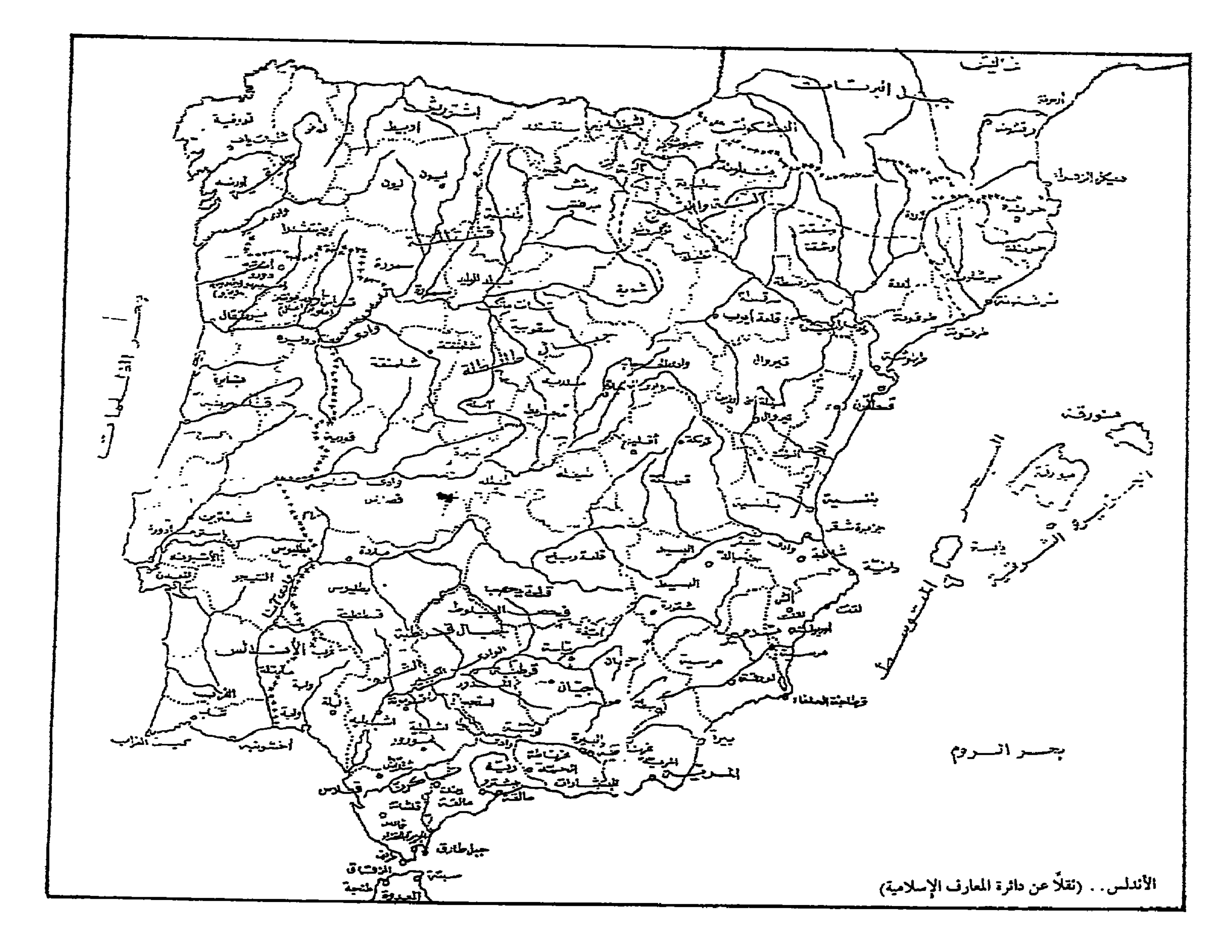
هذا وللمقري عدة كتب بدأها ولم يمتد به العمر لكي يكملها ولا نعلم عنها إلا عناوينها المثبوتة في أرجاء كتبه التي وصلت إلينا، ومثالاً على ذلك كتاب «مشق قلم المدح لدمشق» . الذي ورد ذكره في النفح .

وهكذا نجد أن أهم آثار المقري كانت في مؤلفاته التاريخية وبخاصة في «نفح الطيب» و«أزهار الرياض» وهما كتابان هامان جداً في تاريخ الأندلس والمغرب ورجال القطرين وأعلامها وأدبائها.

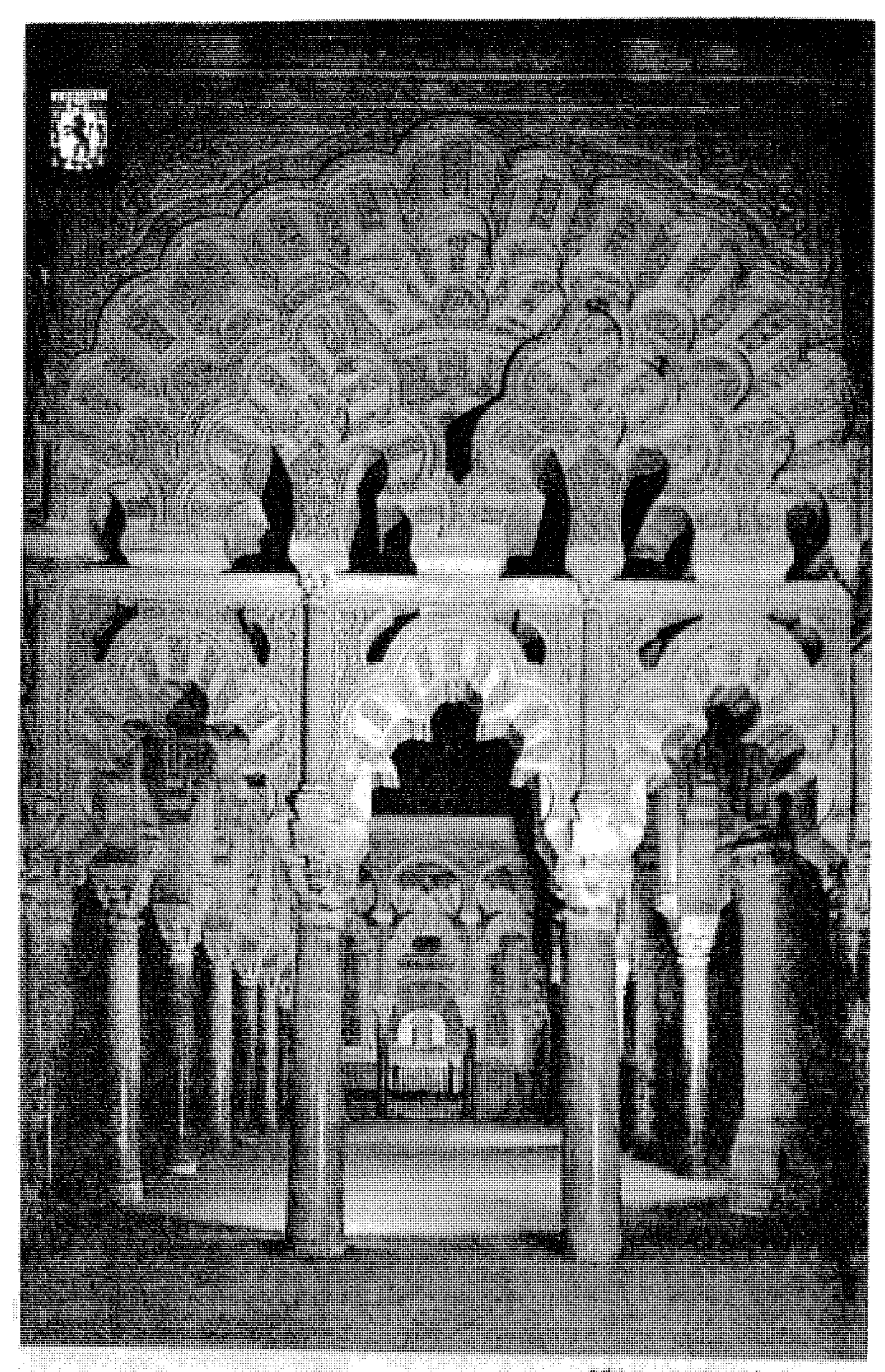
وما دمنا بصدد الحديث عن مؤلفات المقري فمن المفيد أن نذكر أن مؤلفين تونسيين نشرا دراستين عنه هما:

- «المقري صاحب نفح الطيب» من تأليف الحبيب الجنحاني.
- «المقري» من تأليف عثمان الكعاك.

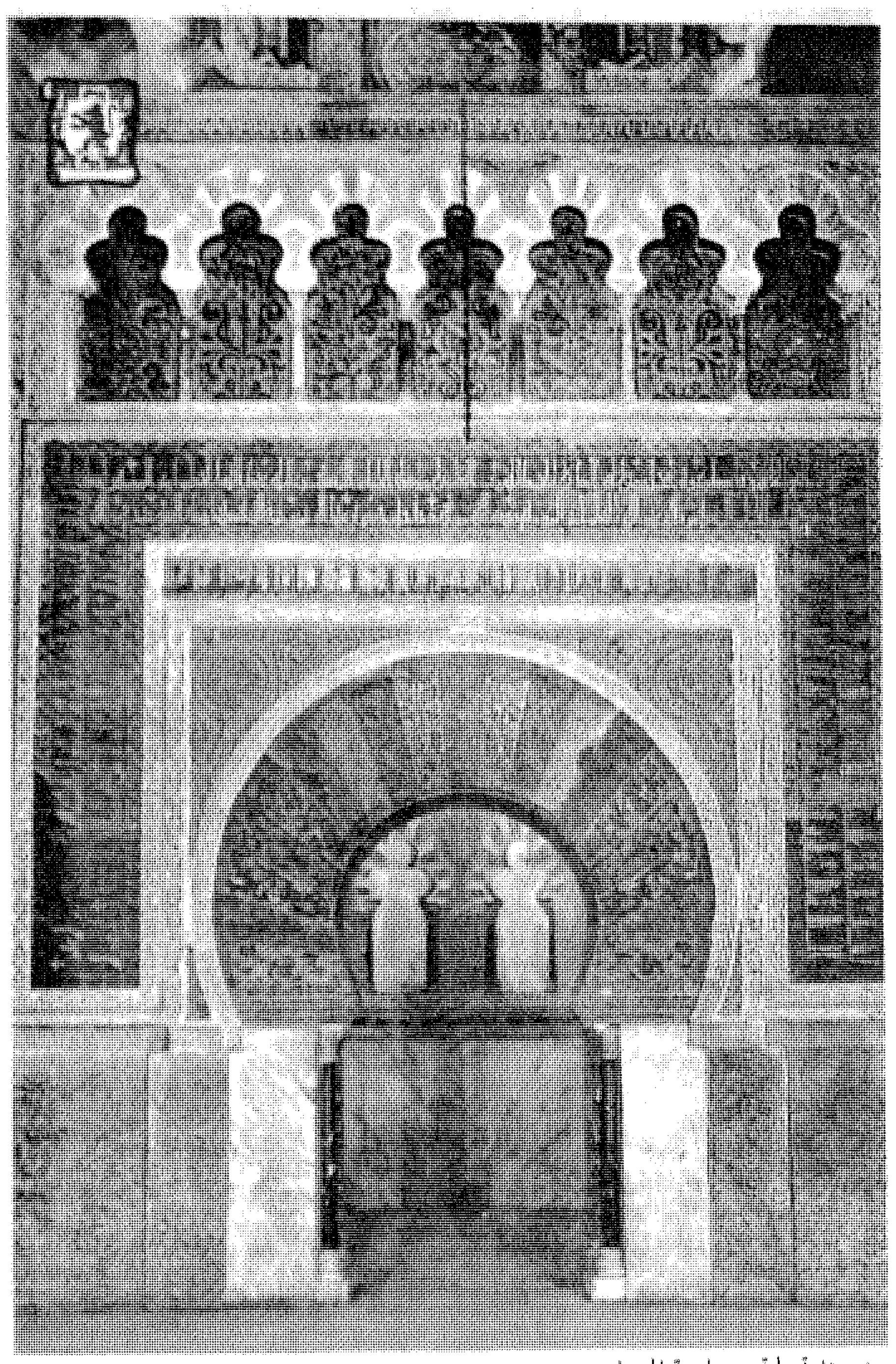
رحم الله المقري عالماً ومؤرخاً وأديباً، وجزاه خيراً بما قدم من جهود حفظت لنا كثيراً من تراث المغرب والأندلس ضاع كثير منه في ثنايا الكتب المفقودة أو المتلفة بأيدي الأعداء الجهلة.



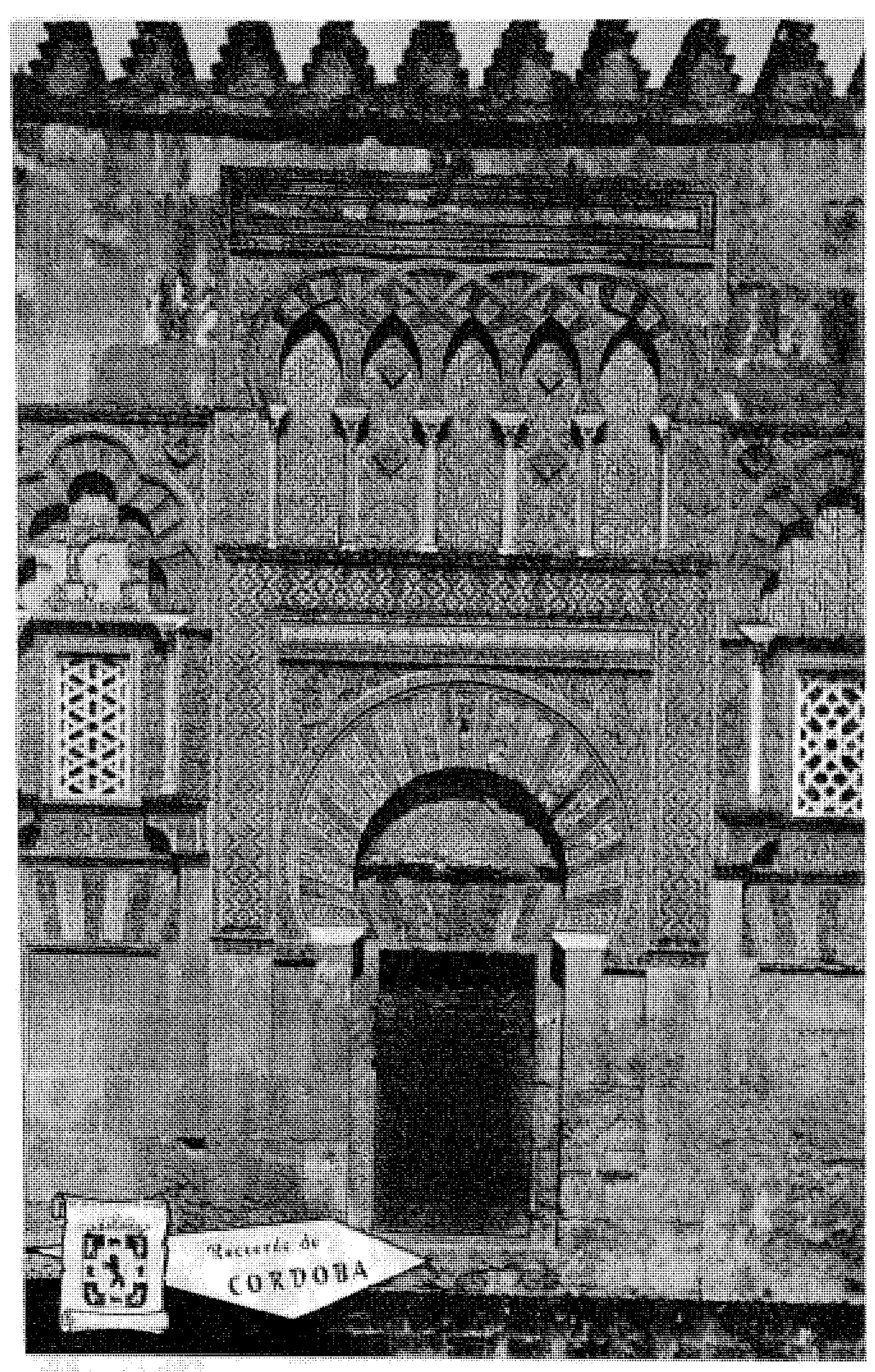
الأندلس.. (نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية)



مسجد قرطبة : عقود متشابكة



مسجد قرطبة . . واجهة المحراب



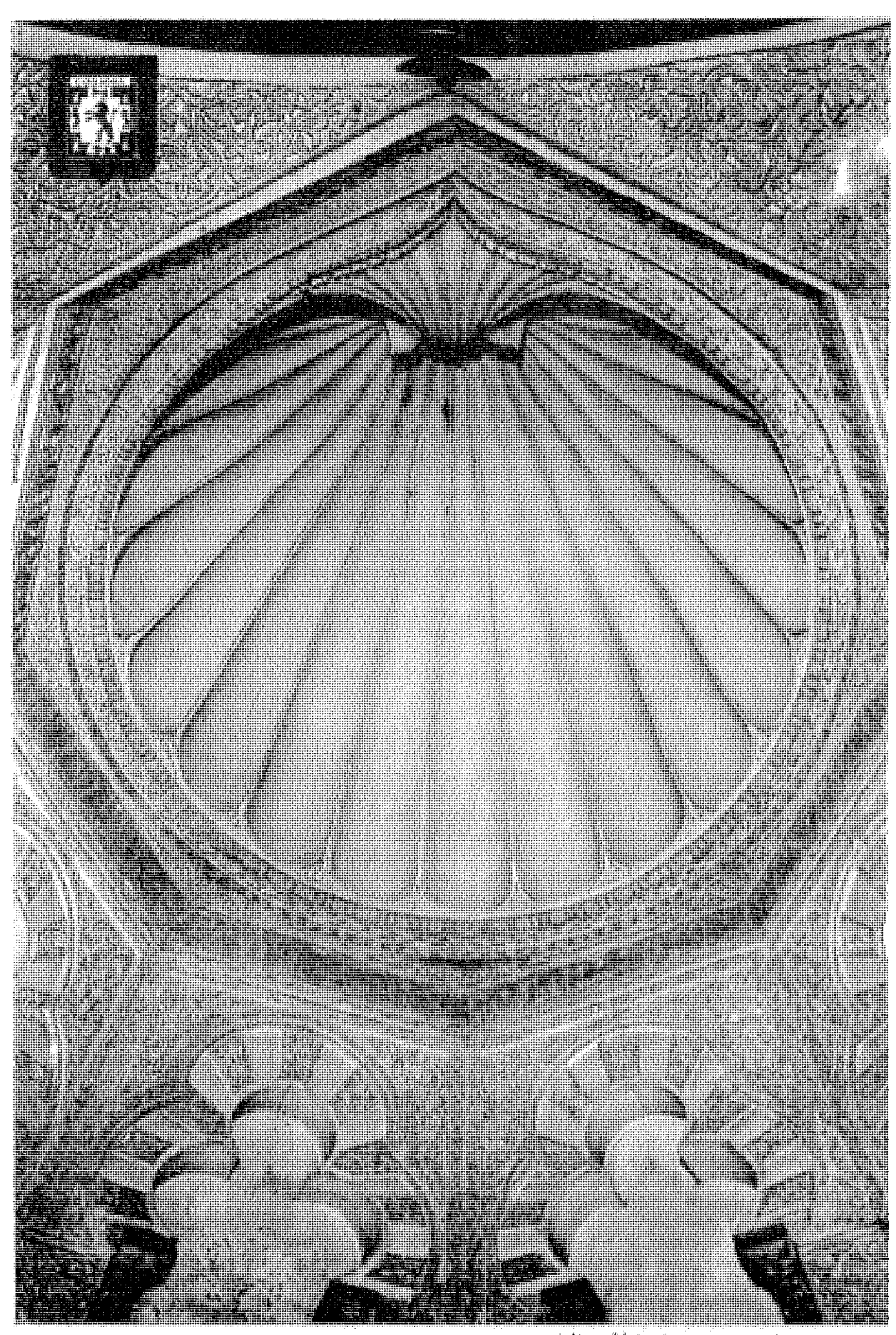
مسجد قرطبة . . باب في زيادة الحكم الثاني



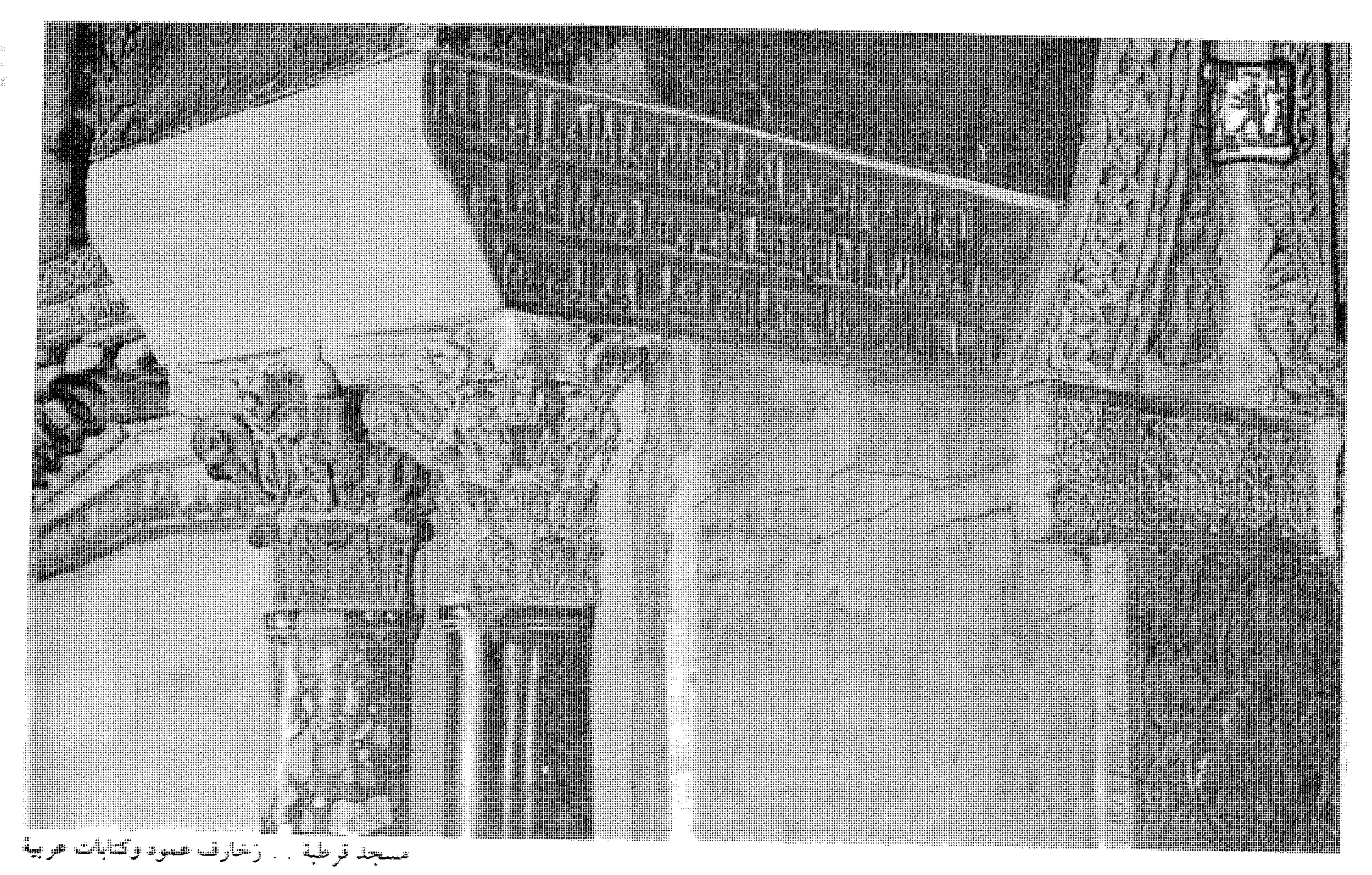
مئذنة جامع قرطبة



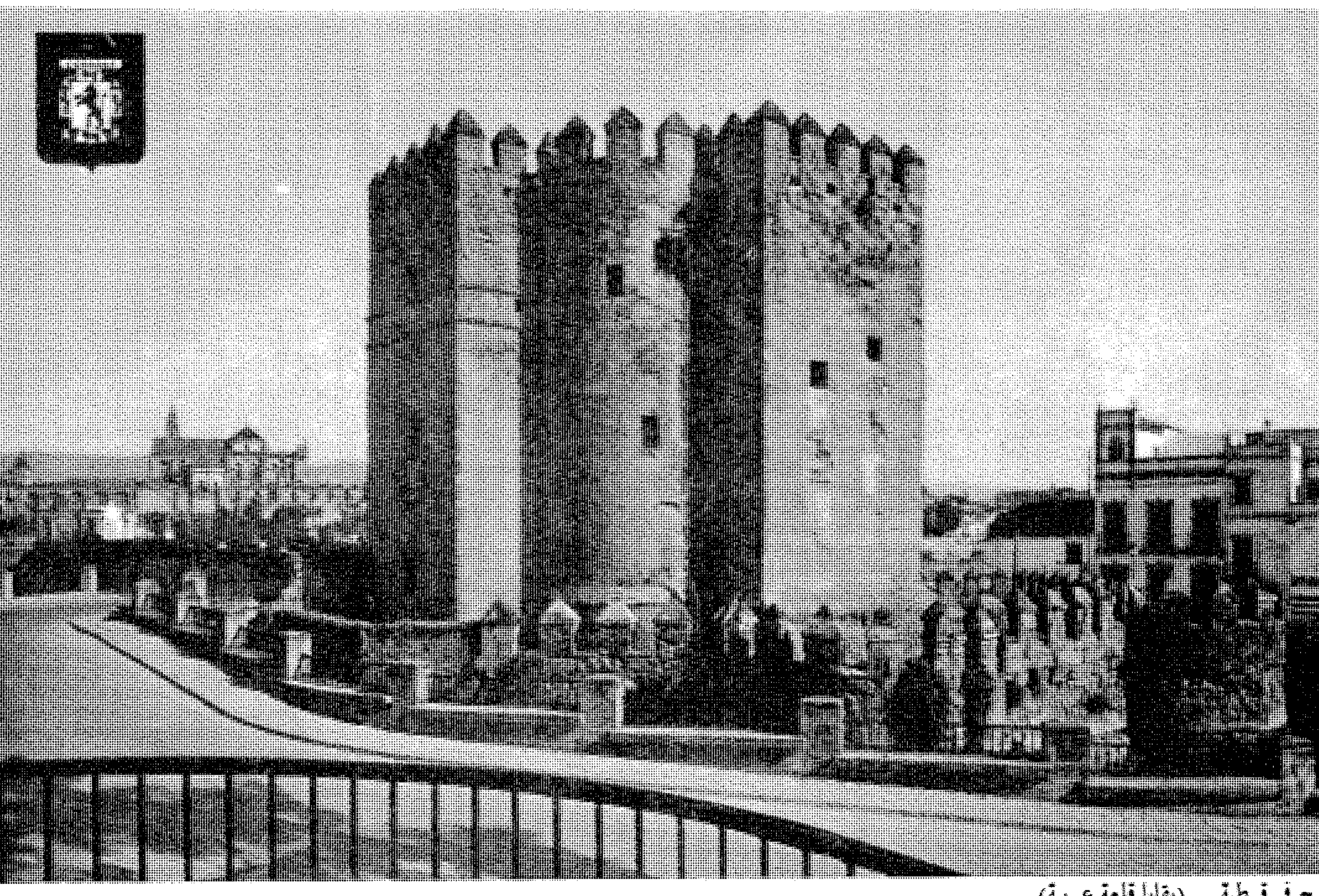
قرطبة .. منظر عام للمسجد وجزء من المدينة



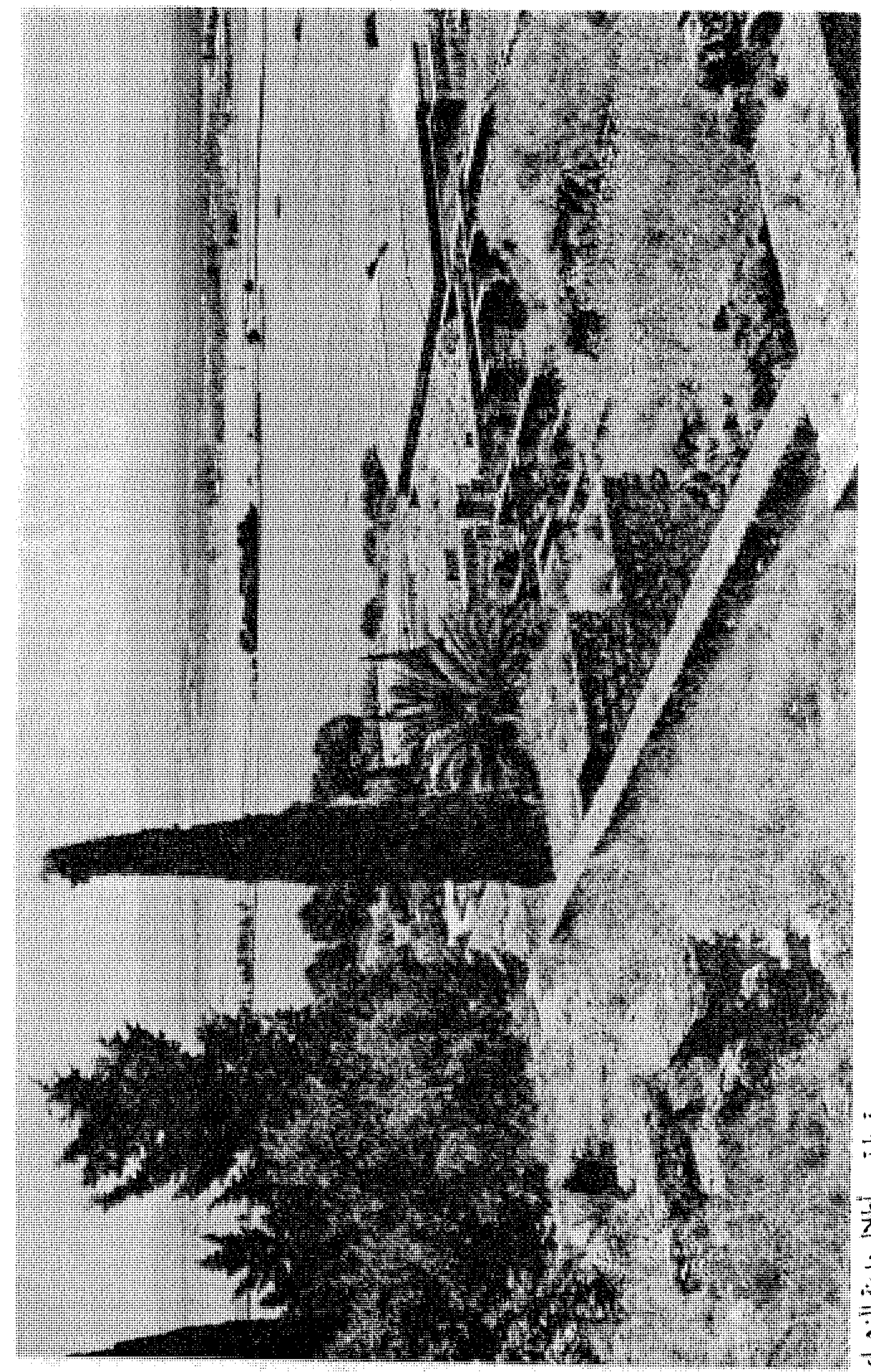
مسجد قرطبة . . من زيادة الحكم الثاني



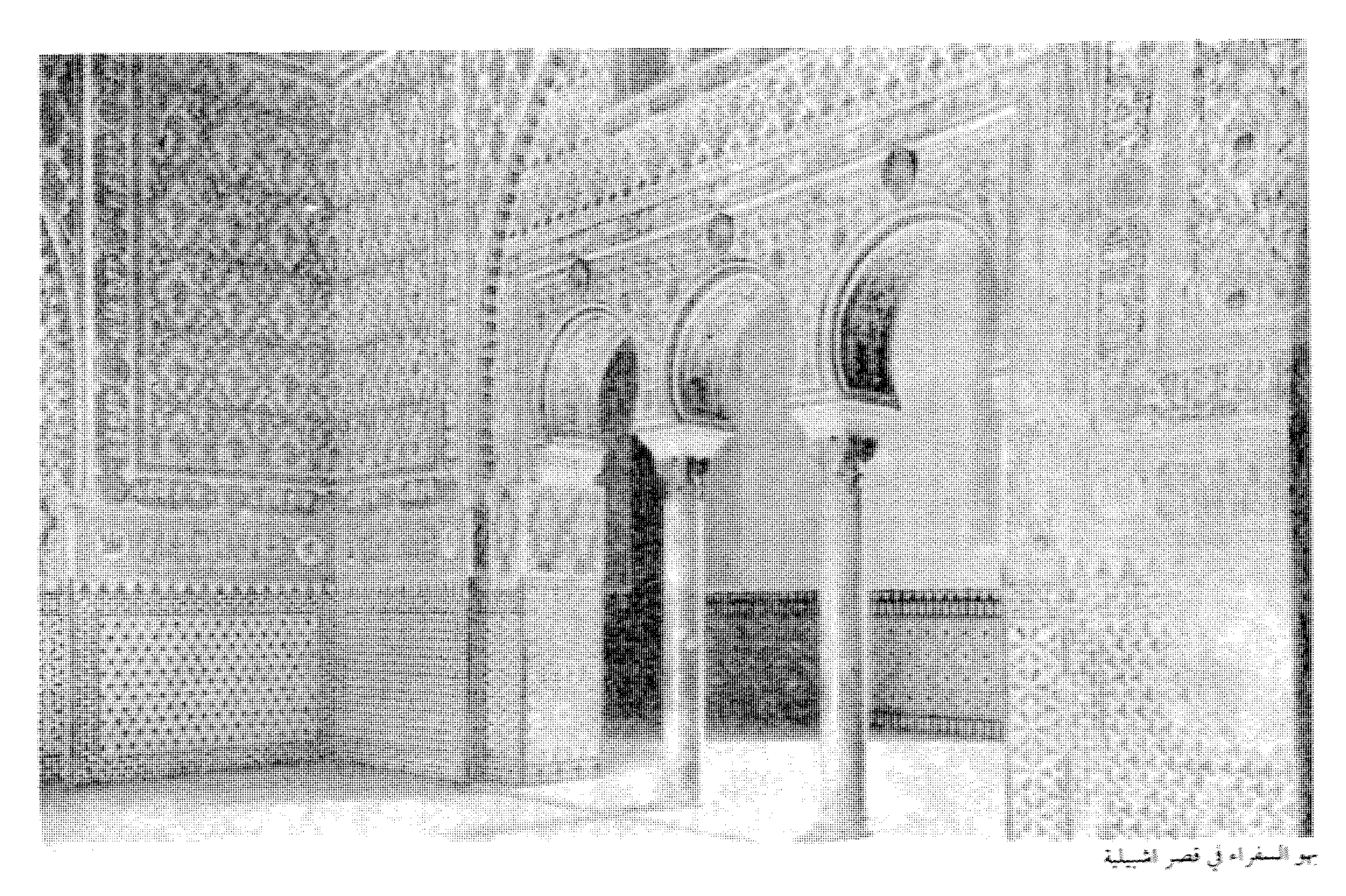
مسجد قرطبة .. زخارف عمود وكتابات عربية



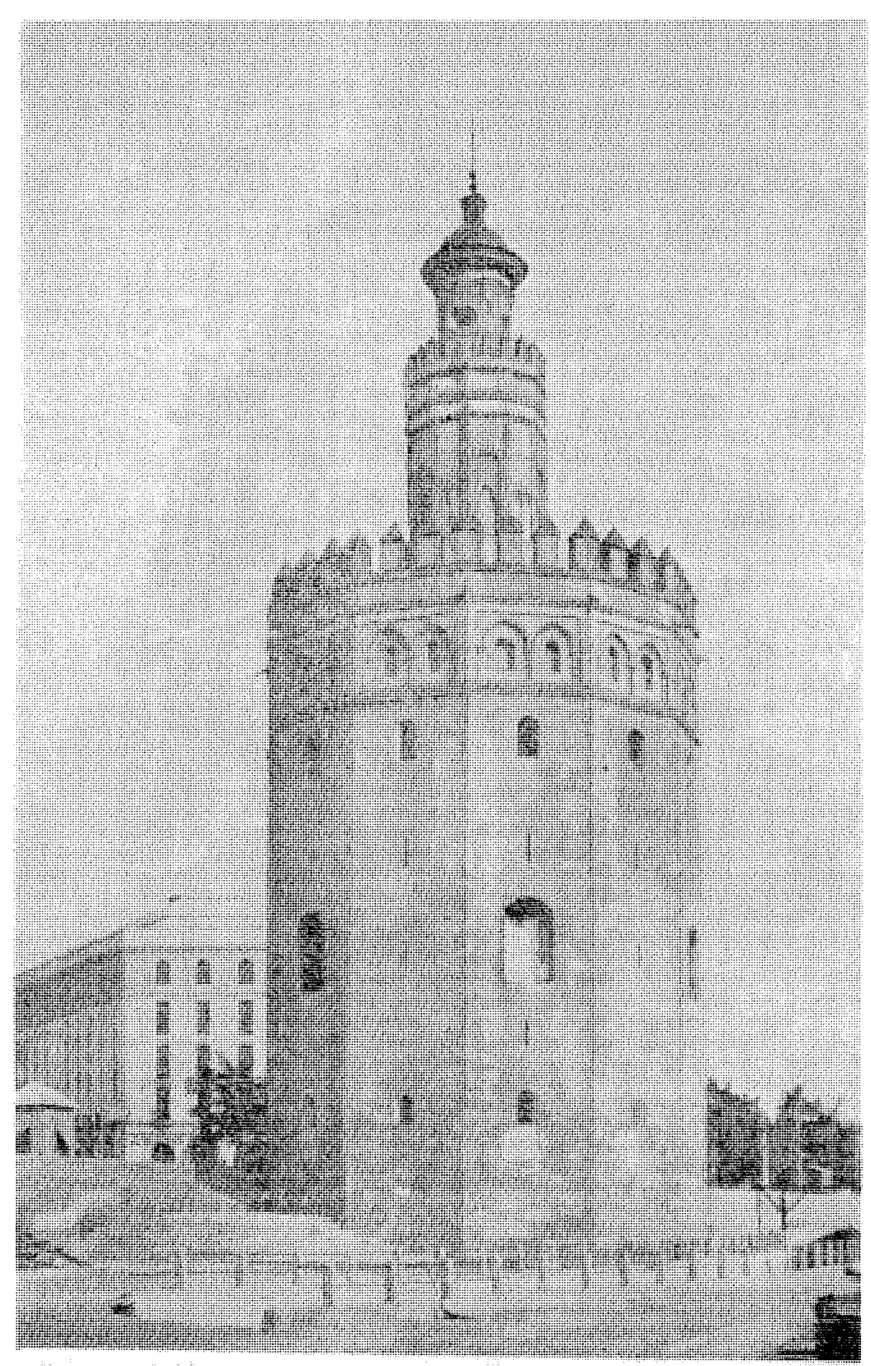
برج في قرطبة . . (بقايا قلعة عربية)



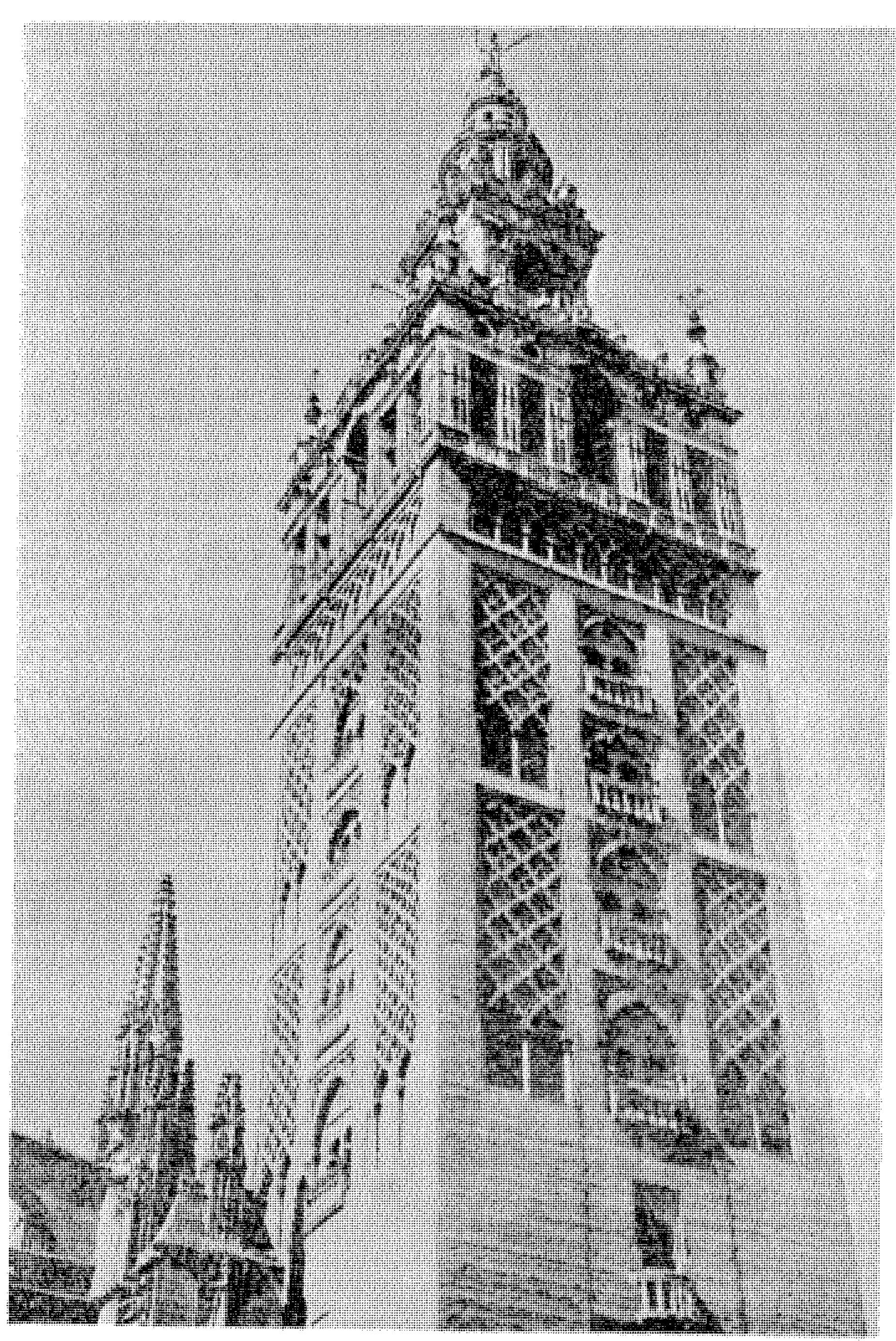
قرطبة .. أطلال مدينة الزهراء



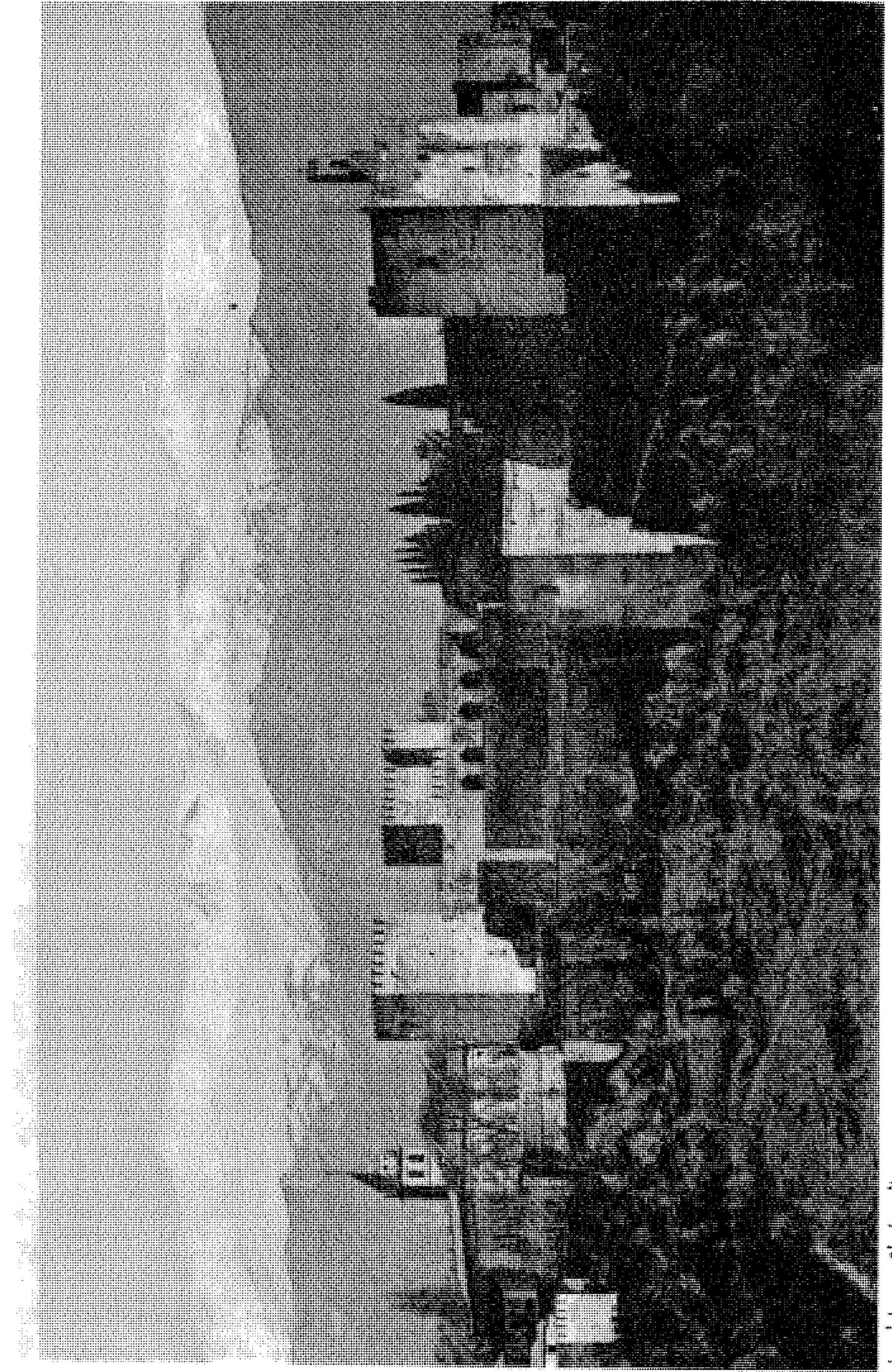
بهو السفراء في قصر اشبيلية



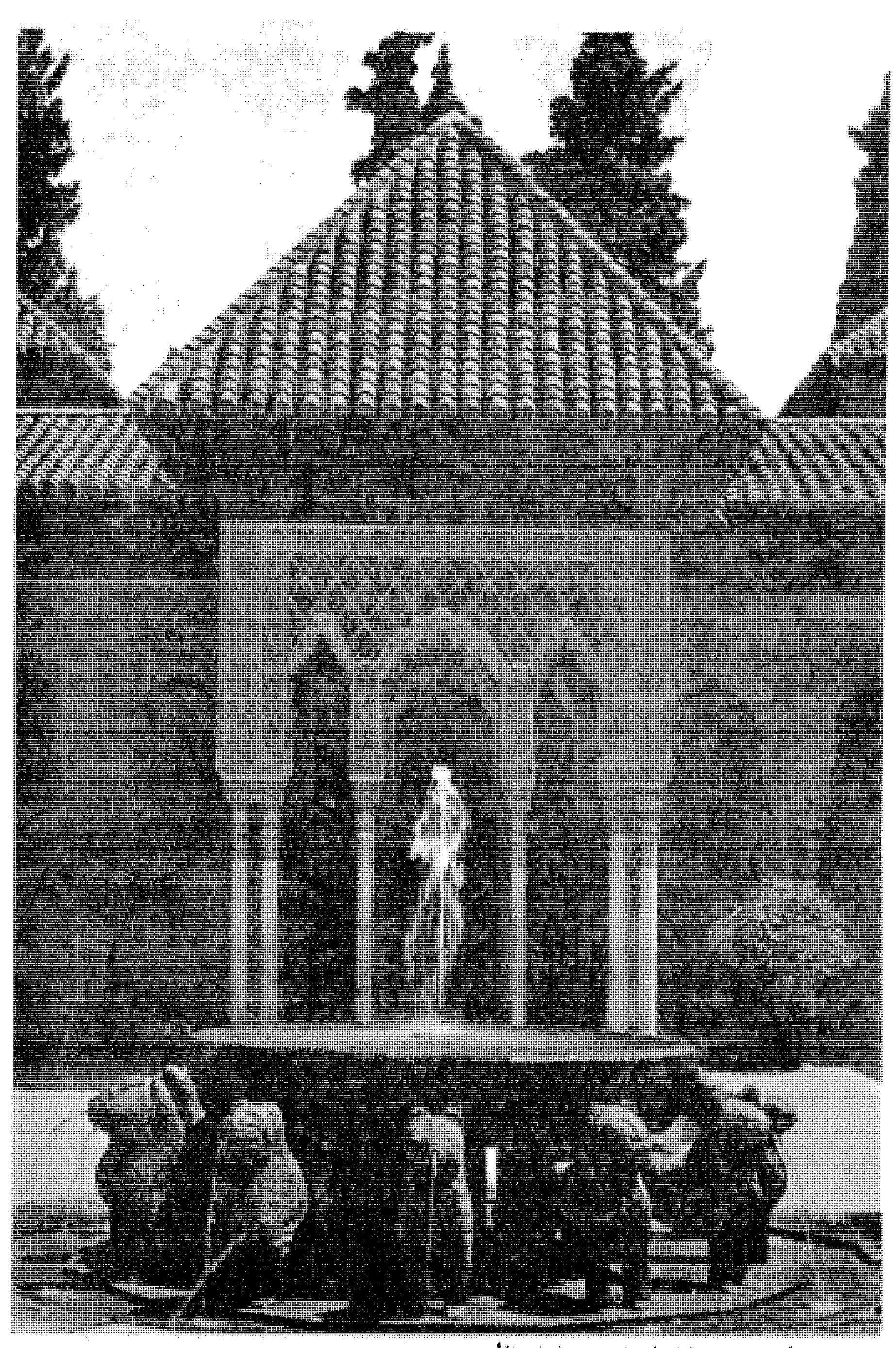
برج الذهب، إشبيلية . . أقامه خلفاء الموحدين



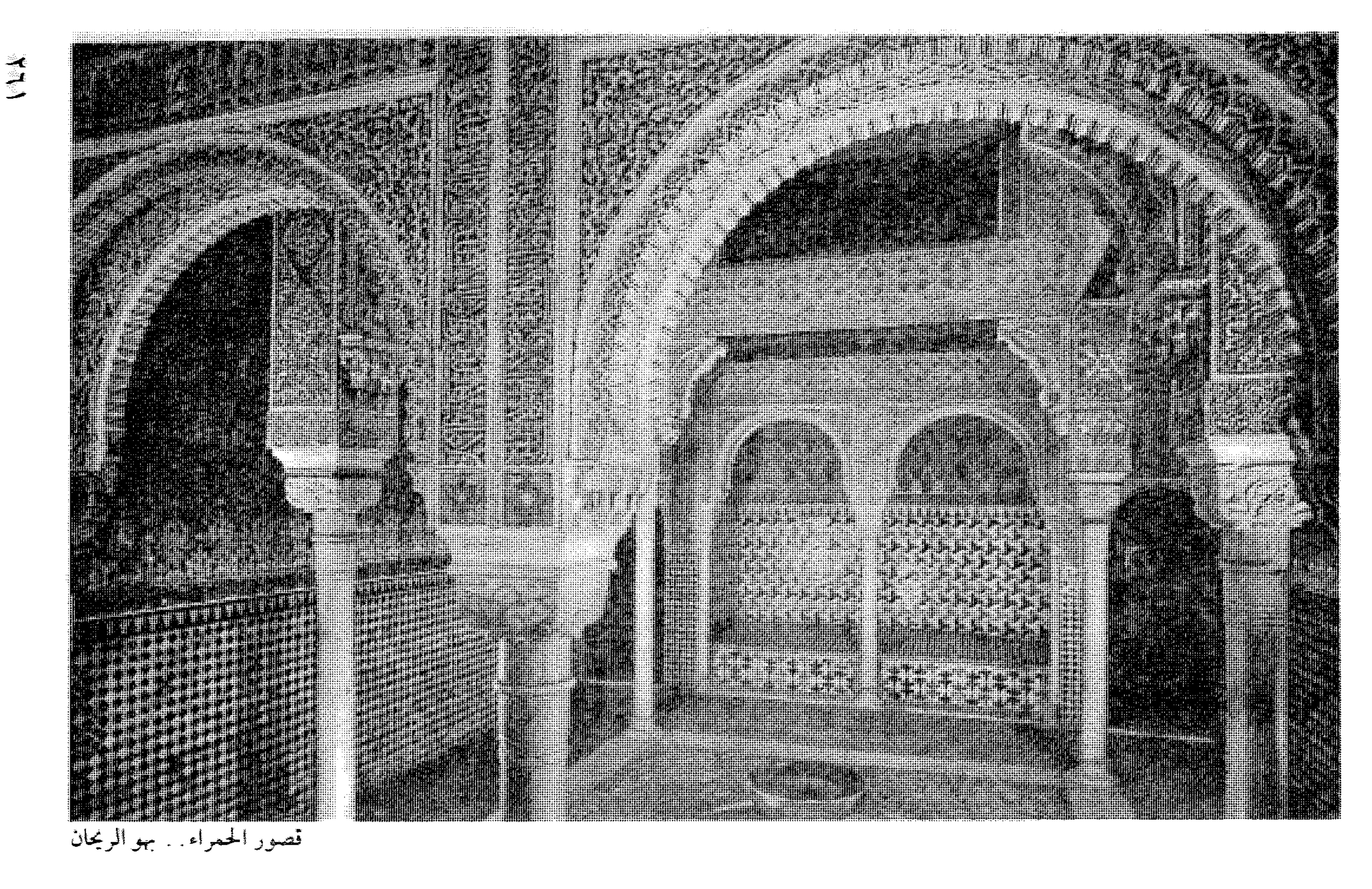
مئذنة مسجد اشبيلية . . الجيرالدا



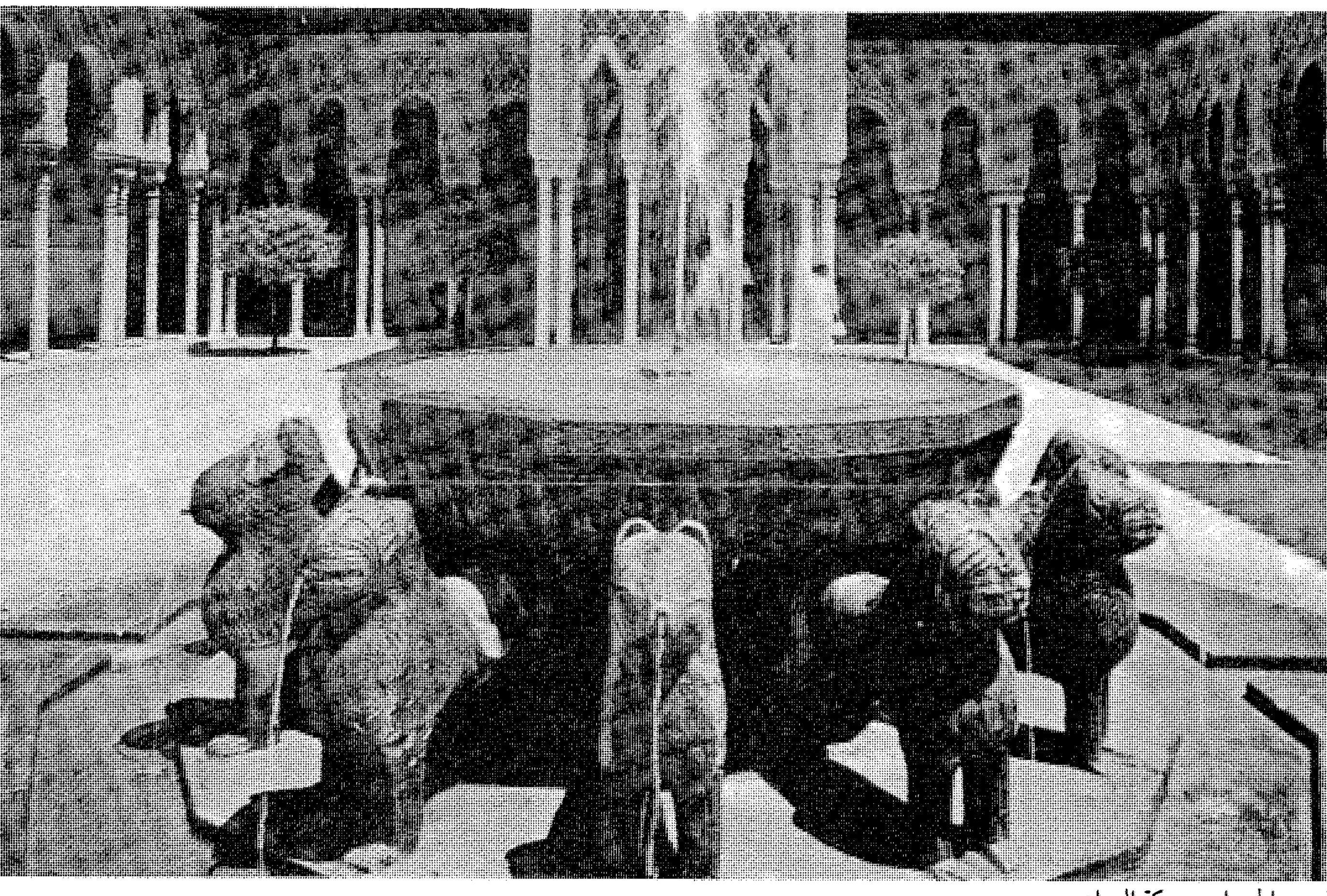
منظر عام لقصور الحمراء



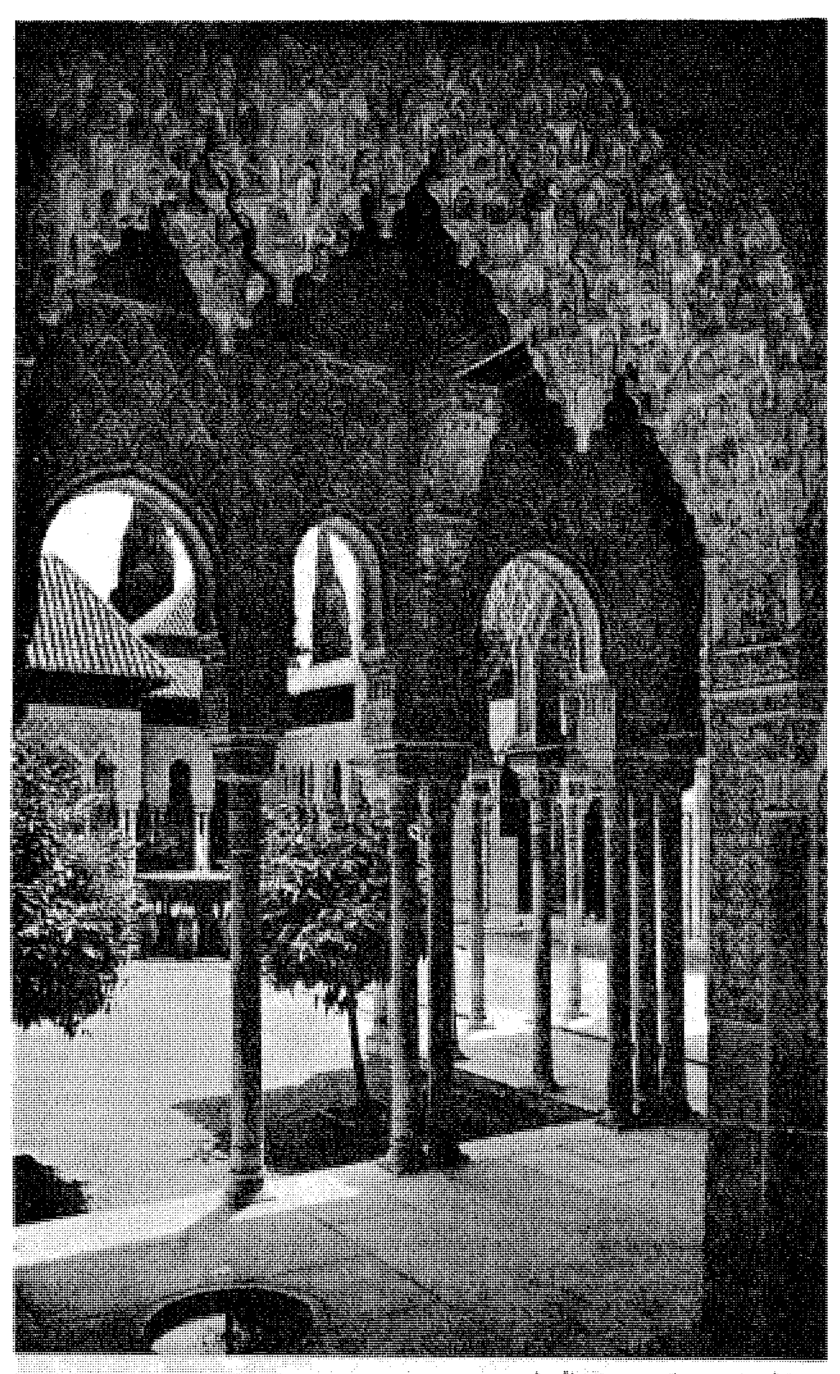
قصور الحمراء . . بركة السباع وزخارف الأعمدة



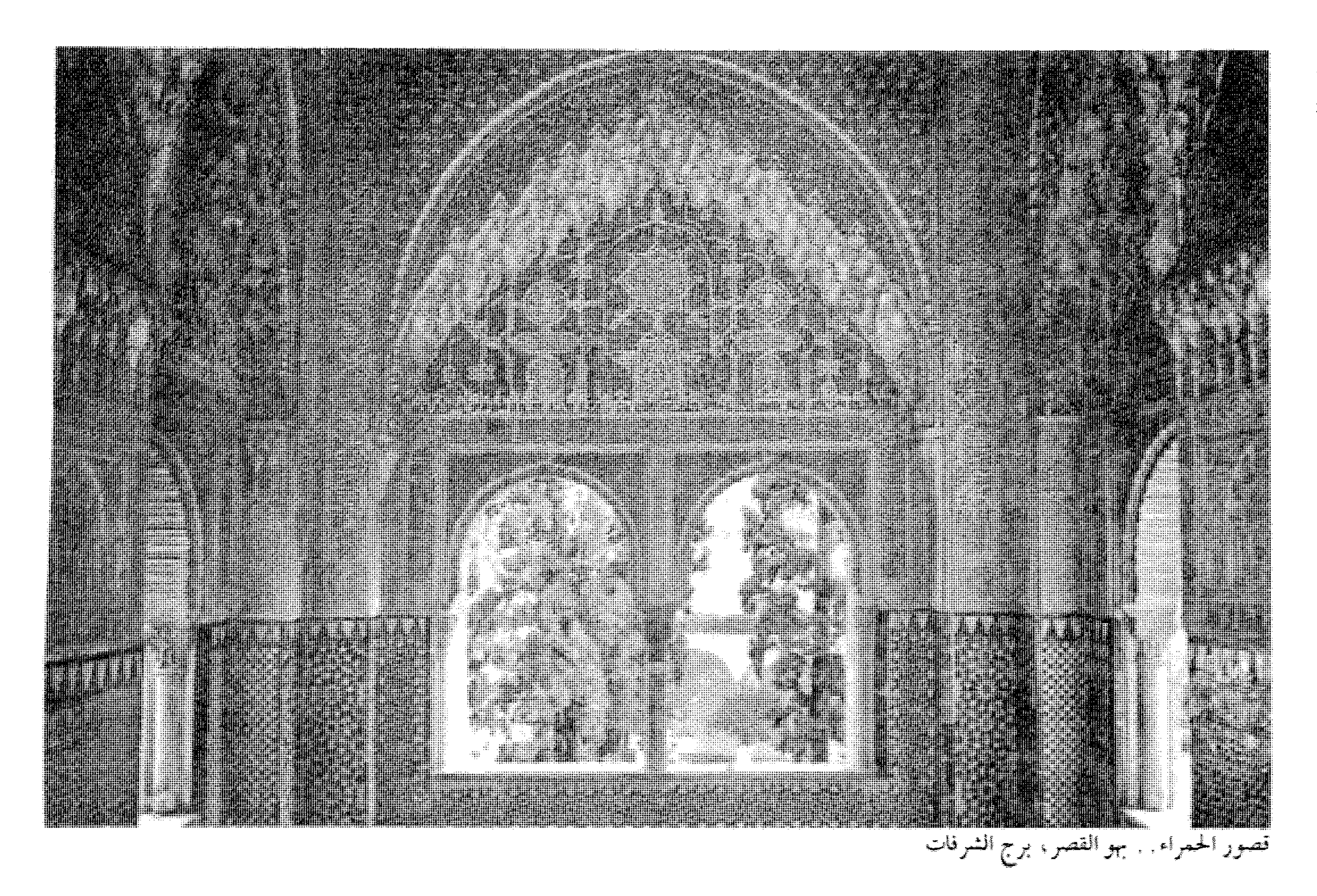
قصور الحمراء.. بهو الريحان



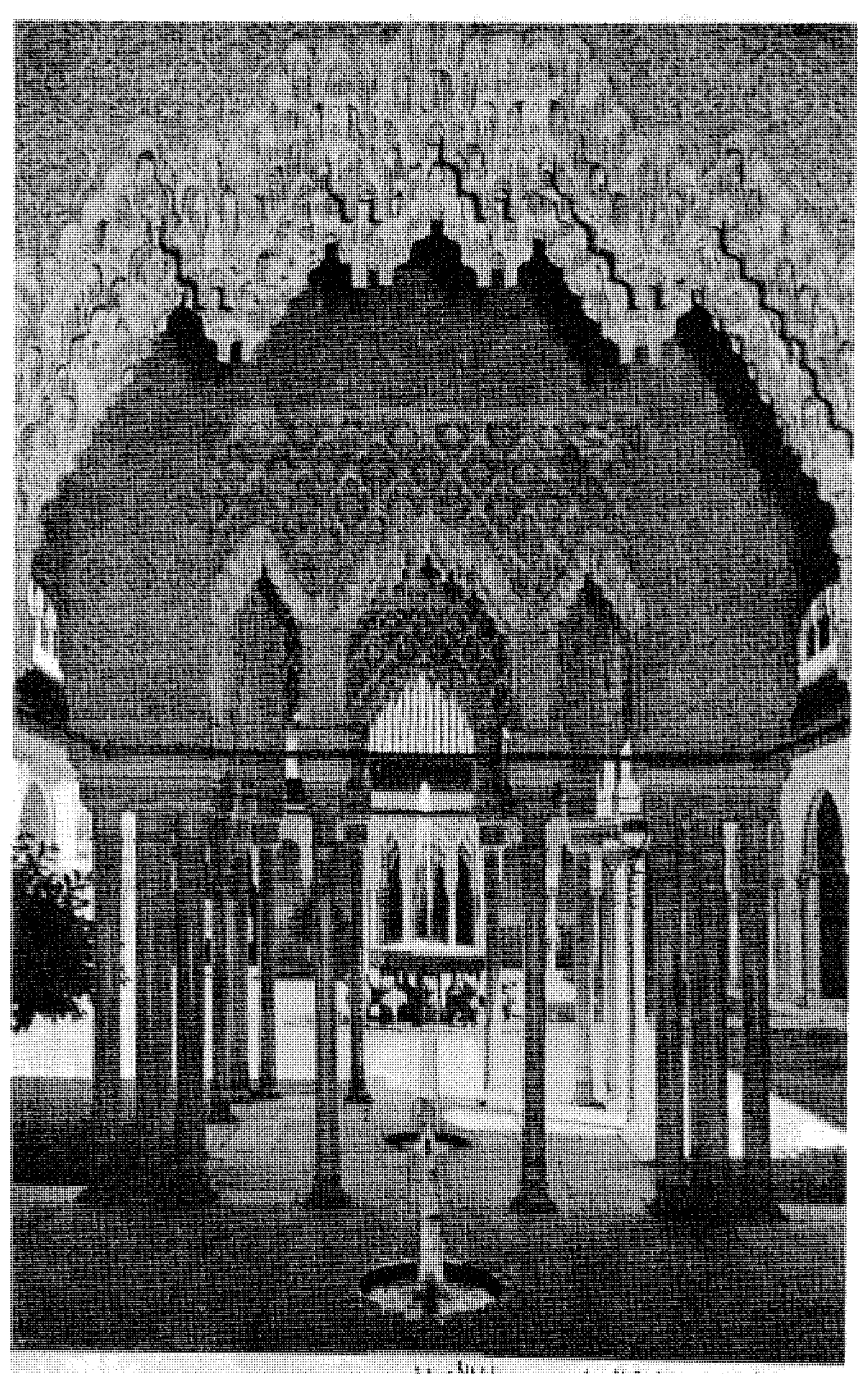
قصور الحمراء.. بركة السباع



ور الحمراء . . جانب من بهو السباع



قصور الحمراء.. بهو القصر، برج الشرفات



قصور الحمراء .. ساحة السباع ومن حولها الأعمدة



الحمراء.. قصر البرطل

المراجع

١ - ابن الأبار، أبو عبدالله محمد البلسني: التكملة لكتاب الصلة. القاهرة ١٩٥٥.

٢ - ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس. القاهرة ١٩٦٣.

٣ - ابن الأثير، علي بن أحمد، الكامل في التاريخ. بيروت ١٩٦٧.

٤ - ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. جامعة القاهرة.

٥ - ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك: الصلة في تاريخ أئمة الاندلس. القاهرة ١٩٦٦.

٦ - ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي، تحفة الأنظار في غرائب الامصار وعجائب الأخبار. بيروت ١٩٦٤.

٧ - ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد: جمهرة أنساب العرب. القاهرة ١٩٦٢

٨ - ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والالاف. بيروت ١٩٨١.

٩ - ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل. بغداد - القاهرة بلا تاريخ.

١٠ - ابن حزم، نقط العروس حتى تواريخ الخلفاء. القاهرة ١٩٥١.

١١ - ابن حيان، أبو مروان بن خلف القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس. بيروت ١٩٧٣.

١٢ - ابن الخطيب: لسان الدين أبو عبدالله بن محمد: الإحاطة في أخبار

غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان. القاهرة ١٩٧٣.
١٣ ـ **ابن الخطيب**: أعمال الأعلام. تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت ١٩٥٦.
١٤ ـ **ابن الخطيب**: مشاهدات ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس. تحقيق: أحمد مختار العبادي. الاسكندرية ١٩٥٨.
١٥ ـ **ابن الخطيب**: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. تحقيق أحمد مختار العبادي. القاهرة ١٩٦٨.
١٦ ـ **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد: كتاب العبر. بيروت ١٩٨١.
١٧ ـ **ابن خلدون**: المقدمة. بيروت ١٩٦٧.
١٨ ـ **ابن خلكان**: شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم: وفيات الأعيان وأبناء الزمان. بيروت ١٩٧٠.
١٩ ـ ابن سعيد المغربي، علي بن موسى: المغرب في حلى المغرب. تحقيق د. شوقي ضيف. القاهرة ١٩٦٤.
٢٠ ـ ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد: العقد الفريد. القاهرة ١٩٤٩.
٢١ ـ **ابن عذاري المراكشي**، أبو عبدالله محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق بروفنسال ـ كولان ـ دوزي. بيروت ١٩٥٠.
٢٢ ـ **ابن الفرضي**، أبو الوليد عبدالله بن محمد: تاريخ علماء الأندلس. تحقيق كوديرة. القاهرة ١٩٦٦.
٢٣ ـ **أبو العباس أحمد السلاوي الناصري**: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى. الدار البيضاء ١٩٥٠.
٢٥ ـ **الأصبهاني**، أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني. بيروت، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية.
٢٥ ـ **أمين، أحمد**: ظهر الإسلام. القاهرة ١٩٦٦.
٢٦ ـ **بالنثيا**، آنخل جونثالث: تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس. القاهرة ١٩٥٥.

٢٧ ـ بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الأندلس. بيروت بلا تاريخ. ٢٦٨.
٢٨ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي. القاهرة ١٩٧٧.
٢٩ ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. بيروت ١٩٥٤.
٣٠ ـ البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث. بيروت ١٩٥٨.
٣١ ـ الجارم، علي: قصة العرب في اسبانيا. القاهرة بلا تاريخ.
٣٢ ـ ديوز، محمد علي: تاريخ المغرب الكبير. القاهرة ١٩٦٣.
٣٣ ـ الحميدي، أبو عبدالله محمد بن فتوح: جذوة المقتبس في ذكر رجال الأندلس. القاهرة تحقيق محمد بن تاويت الطنجي.
٣٤ ـ الحميري، محمد بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس (من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار). تحقيق بروفنسال. القاهرة ١٩٣٧.
٣٥ ـ الركابي، جودة: في الأدب الأندلسي. دمشق ١٩٥٥.
٣٦ ـ الريسوني، محمد المنتصر: الشعر النسوي في الأندلس.
٣٧ ـ الزركلي، خير الدين: الأعلام. بيروت ١٩٨٠.
٣٨ ـ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب الكبير، ج٢ بيروت ١٩٨١.
٣٩ ـ سالم، السيد عبد العزيز: قرطبة، حاضرة الخلافة في الأندلس، ج١/ ١٩٧١، ج٢/ ١٩٧٢.
٤٠ ـ صقر، أحمد: مدينة المغرب الكبير. تونس ١٩٥٩.
٤٢ ـ الضبي، أحمد بن يحيي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. القاهرة ١٩٦٧.
٤٣ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، بيروت بلا تاريخ.
٤٤ ـ العبادي، أحمد مختار: المجمل في تاريخ الأندلس. القاهرة ١٩٥٨.
٤٥ ـ عويس، عبد الحليم: ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي

والحضاري. القاهرة ١٩٧٩.
٤٦ - فارمر، هنري: تاريخ الموسيقا العربية. بيروت بلا تاريخ.
٤٧ - فروخ، عمر: تاريخ الفكر العربي (إلى أيام ابن خلدون). بيروت ١٩٦٦م.
٤٨ - كولان، ج. س: الأندلس «دائرة المعارف الإسلامية» بيروت ١٩٨٠.
٤٩ - مؤنس، حسين: فجر الأندلس القاهرة ١٩٥٩، جدة - الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥.
٥٠ - مجهول: أخبار مجموعة. تحقيق لافونتي الكانترا. مدريد ١٨٦٧.
٥١ - مجهول: فتح الأندلس. تحقيق خواكين جونثالث. الجزائر ١٨٨٩.
٥٢ - المراكشي، ، عبد الواحد بن علي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب. القاهرة ١٩٦٣.
٥٣ - المسعودي، أبو الحسن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. القاهرة ١٩٥٨.
٥٤ - المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. القاهرة ١٩٤٩.
٥٥ - الناضوري، رشيد: تاريخ المغرب الكبير، ج ١. بيروت ١٩٨١.
٥٦ - هونكه، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب. بيروت ١٩٨٠.
٥٧ - هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٧١.
٥٨ - ياقوت الحموي، أبو عبدالله شهاب الدين: معجم البلدان. بيروت ١٩٥٧.
٥٩ - Dozy: Histoire des Muslimans. Leiden 1932
٦٠ - Warmington B. H: Carthage. London 1960
٦١ - Young Lewis: The Arabs and Europe. London 1970.

المحتوى

الصفحة

الصفحة

تحتل كلمة «الأندلس» مساحة بارزة من الذاكرة العربية تتمثل في صور شتى، مساحة فيها الأسى والمرارة، وفيها الفخر بأمجاد تولت، وفيها الهاجس التاريخي الذي ما فتىء يتكرر في حياتنا العربية منذ سقوط الأندلس قبل خمسة قرون.

ولا شك أن المكتبة الأندلسية غنية بالدراسات التي تناولت تاريخ الوجود العربي في اسبانيا. وعلى الرغم من المحن الملاحقة التي شهدها التراث العربي، من مكتبات وآثار، فإن هذا التراث لا يزال شاهداً حياً على روعة الحضارة الإسلامية التي غرسها العرب في أرض الأندلس ورووها دماً وعلوماً وعطاء بشرياً بلا حدود.

تتوزع الدراسات في هذا الكتاب بين التاريخ والأدب والفن والعمارة.. وهي دراسات مختصرة سريعة، كتبت في أوقات متباعدة فهي لا تسير في خط واحد منتظم، والرابط العام بينها هو الإطار الأندلسي على سعته وشموله. ويضم الكتاب اثنين وعشرين مقالة يتداخل فيها التاريخ بالشعر والعمران والموسيقى، لتقدم في خاتمة المطاف لوحات عابرة من السفر الأندلسي الكبير الخالد.